غادة السّمّان

يا دِمشق وداعاً

ABU ABDO ALBAGL

- فسَيفساءُ التمرّدُ -

منشورات غادة السمان

إذا أعجبك الكتاب، فرجاءً حاول أن تشتري النسخة الورقية.
تذكر أن الكتاب العرب معتّرون والكل يستوطي حيطهم
دعمنا لهم يضمن استمرار عطائهم.
(أبو عبدو)

يا دِمشق وداعًا

- فسَيْفساءُ التمرُّد -

حقوق الطبع محفوظة للمؤلفة

منشورات غادة السمّان
ص. ب ١١١٨١٣
الرمز البريدي ٩٠ ٧٢٠ ١١٠
بيروت ـ لبنان
تلفون ٣١٤٦٥٩/ ٠١
فاكس ٣٠٩٤٧٠ ـ ١ ـ ٩٦١

☐ **الطبعة الأولى**: كانون الثاني (يناير) ٢٠١٥

☐ **لوحة الغلاف الأول**: للفنّانة الشاعرة سوزان عليوان.
☐ **صورة الغلاف الأخير**: غادة السمّان في كاريكاتور للفنّان حسن أدلبي.
☐ **الخطوط**: للفنان حسبن ماجد.

غـادة السّمّان

يا دِمشق وداعًا

- فسيفساءُ التمرُّد -

رِوايـة

منشورات غادة السمان

رسالة حُب

متنكرة في إهداء

أهدي هذه الرواية،
إلى مدينتي الأُم دمشق. . .
التي غادرتها ولم تُغادرني.
يوم رحيلي، صرختْ في وجهي:
«أمطري حيث شئتِ فخراجك عندي».
وإلى الحبيب الوحيد الذي لم أخنه يوماً واسمه:
الحرية. . الحرية. . الحرية. .

غادة

□ لقد عَبَرتُ ميتات كثيرة..

ـ يانيس ريتسوس

□ هذي دمشق تناديني فأبلغها
سعياً على نغماتي لا على قدمي
دمشق يا معبد الأشواق في حلمي
يا كعبة الروح بعد القدس والحرمِ

ـ صالح جودت

□ إنسان بلا ذاكرة هو إنسان ميت..
وشعب بلا ذاكرة،
هو شعب بلا مستقبل.

فرديناند فوش

□ الذكريات تنظر إليّ.

ترانسترومير
(حائز على جائزة نوبل)

□ المدارس الأدبية تموت، لكن الأدب يبقى.

ألبرتو موراڤيا

□ ما يأخذه عليك الناس قُمْ برعايته وإنضاجه فهو ما يُميّزك... لا شيء جريئاً دونما عصيان القاعدة المتعارف عليها.

جان كوكتو

لحظة تذكير بحقيقة روايتي

□ هذه رواية، وبالتالي لا علاقة لأبطالها بأي أشخاص حقيقيين من الأحياء أو الأموات. فهي من صُنع الخيال الروائي الخرافي فقط لا غير، وأي تشابه مع أحياء أو أموات إنما هو من قبيل المصادفة.

غادة

الفصل الأول (محاولة سادسة)(*)

١) إلقاء القبض على حياتي

٢) أنا صخرة في قاسيون(**)

(*) هذه الرواية: «**وداعاً يا دمشق**» هي الجزء الثاني من «**الرواية المستحيلة**». الجزء الأول صدر بعنوان فرعي هو: «فسيفساء دمشقية» وفيه خمس "محاولات" لكتابة الرواية. ولذا يبدأ هذا الكتاب وعنوانه الفرعي: "فسيفساء التمرّد" بـ"المحاولة السادسة".

(**) أترك للقارئ اختيار أحد العنوانين الفرعيين (١ أو ٢) لهذه المحاولة وشطب الآخر!

(***) الجزء الأول من «الرواية المستحيلة» صار فيلماً سينمائياً يحمل عنوان الفصل الأخير وهو: «حرّاس الصمت».

(يجب أن أنسلّ من السرير من دون أو يشعر بذلك..

أن أرتدي ثيابي على عجل.

أن أغادر البيت قبل أن يستيقظ ويتبعني، أو يستجوبني.

هذه المرة، يجب ألا يعرف إلى أين أنا ذاهبة. لا هو ولا أي مخلوق آخر...

هذه المرة، عليّ الاحتفاظ بالسرّ حقاً لأنجح في إلقاء القبض على حياتي، والنجاة من قتل مُهذَّب يُعَدُّ لي ولأمثالي، أنا العاشقة المجنونة الخائبة.

يجب أن أذهب بلا خوف ولا تردد؛ أن أتمدد في المكان الآخر، عارية حتى من طلاء أظافري كما طُلب مني..

عارية من أي دعم معنوي من الأهل أو الصديقات أو الأصدقاء. لم أخبر بنات عمي ولا جدتي الحاجة حياة ولا بعض رفيقات الجامعة اللواتي أرتاح للحوار معهن. لم أخبر نبيلة ولا منتهى ولا عفاف ولا سواهن من الصديقات الحميمات عما أعتزم القيام به. البوحُ ترفُ الألم ولا ترف عاطفياً لي أمام قرار القتل. ثم إنني صُرت أعرف أن المرء يموت وحيداً ويولد وحيداً وعليّ بالجرأة في مواجهة تلك الميتات كلها. ثمة خط أحمر من صيام الصمت بدأ يرتسم على صحراء روحي منذ أسابيع لا أستطيع تجاوزه ولذا لم أخبر أحداً.

لأنجو، عليّ أن أقترف ذلك وحدي.

وحدها البومة رفيقة أهوالي تعرف ما أعتزم القيام به وتطلق صيحات غامضة لعلها محذرة أو مشجعة وهي تقف مقابلي وأراها بوضوح في كعب السرير بعينين شاسعتين غامضتين. يُدهشني أن صيحاتها وتغريداتها لم توقظ زوجي في أي ليلة، ولم يرها يوماً.

أنسل من السرير بهدوء. لم تتبدل نغمة شخيره الخافت. لن يدري بما سأقترفه اليوم.

أخرج من غرفة نومنا شبه المظلمة بستائر مسدلة وأنا أهرول بهدوء على رؤوس

أصابع قلبي الذي يخفق بجنون كصوت ذلك الطبل الإفريقي يقرعه مجنون ما في شارعنا وأسمعه وحدي.

أمضي نحو المطبخ لإعداد فنجان قهوة. لا أستطيع أن أبدأ يومي بدونه، لكنني أتذكر أن عليَّ ألا آكل أو أشرب شيئاً منذ منتصف الليلة الماضية. وداعاً أيتها القهوة وصباح الخير أيها الموت الحيّ في نهار مفتوح على القتل. أتابع ارتداء ثيابي التي وضّبتها ليلاً وكوّمتها جانباً وغطيتها بالشراشف المغسولة كي لا يراها زوجي إذا استيقظ قبلي.. ثياب مطلع الخريف الدافئ، مختزلة وبلا أناقة اخترتها سهلة الخلع!!.

أقتربُ من غرفة النوم قبل مغادرة البيت للتأكد من أن زوجي ما زال نائماً. أرى بومتي بعينيها ونظرتها الثاقبة الغامضة. تُراها تشجعني أم تحذّرني. زوجي يزداد شخيره ارتفاعاً، كمن يهدد ويتوعد..

لا أريد أن ينهض وهو يشهر عليَّ «مطيف الألماظ»[1] هديته كما علمت من أمه، وأن يقول لي: «عيد ميلاد سعيد وهابي بيرث داي»، فاليوم عيد ميلادي الثامن عشر.

لو فعل لقلت له إن عمري صار ألف سنة وسنة من الأحزان والخيبات منذ زواجنا قبل سنة في عيد ميلادي السابع عشر... كنت أعرف أنني ـ لو استيقظ ـ لما قُلتُ له شيئاً بل لهربت راكضة لامبالية بشيء لأتمدد عارية في المكان الآخر، لإلقاء القبض على حياتي بعد أسبوع من التردد والخوف والقلق والصمت والبكاء الليلي السرّي على شُرفة المطبخ الخلفية، والجارة المُسّنة السيدة الكوتللي تشفق عليَّ وتحاول دعمي من دون أن تعرف شيئاً عنّي. أم تُراها تعرف كل شيء كبقية الجارات؟ مرّة قالت لي جدتي حياة التي تخيلت دائماً أن عمرها من عمر أحجار بيت أخيها المشيد في جزء منه من سور دمشق... قالت لي مرة: لا سرَّ مكتوماً في دمشق. البيوت لا تضمر سراً. أهلها نوافذ بشفاه.. ربما للجدران آذان في كل مكان، أما في الشام فللنوافذ كما للجدران شفاه أيضاً.

---

(١) "مطيف الألماظ" (باللهجة الشامية): قلادة ماسية ثمينة. لعلّ أصل العبارة "بوندانتيف" الفرنسية.

أفتح الباب بهدوء. لا أحمل معي ما يدل على هويتي. أرتدي إسوارتي الماسية التي سأعود بالتأكيد بدونها فهي الثمن لما اعتزمته، هذا إذا عُدت ولم أُقتل.

لا أدري ما إذا كُنتُ سأستطيع العودة حيّة من مغامرتي تلك أم لا. في الليلة السابقة قبل أن أتمدد لأتظاهر بالنوم قُمتُ خلسةً بوضع الزيت على مفاصل الباب لكي لا يُصدر صريره المألوف حين نفتحه ونغلقه.

لا أطبق الباب وأنا أغادر البيت بل أقوم بإدخال المفتاح في ثقب القفل بهدوء رغم ارتجافي.

أغلقُ الباب بمعونة المفتاح دونما صوت وأنطلقُ راكضةً على السلم.

يفتح الباب جارنا الذي يكرهني وينظر إليَّ بعدوانية وقد سمع حركة على السلم ثم يطبق الباب دونما تحية. إنه يخاف من تأثيري "السلبي" على أخته ناجية المذعنة التي لا تدبّ الحياة في أوصالها إلا حين "نشطف" سلم المبنى معاً وتفوح رائحة مسحوق الصابون الذي نرشه طلباً للهفهفة[1] وننزلق أحياناً فوق رغوة الصابون ونقع ونضحك وأُحدّثها عن الحرية، الكلمة المحرّمة الملعونة التي سمعني شقيقها أتفوه بها وتمنى إحراق لساني بجمرة كما فعلت جارتنا في زقاق الياسمين حين وضعت على لسان إبنتها جمرة لأن المسكينة تلفظت بكلمة "حب". حب؟ حرية؟ تمرد؟.. إنها كلمات محرّمة!

ها أنا في الشارع. صار بوسعي أن أركض من دون أن أبالي بصوت حذائي على الرصيف الصباحي.

رائحة الخريف الشامي الدافئ المنعشة تسري في شرايين مدينتي وشراييني. مذياع الخبّاز المجاور مرتفع الصوت كعادته والمطربة الجديدة فايزة أحمد تغني "أنا قلبي إليك ميّال.. وما فيش غيرك عالبال".

ليس في البال ـ بالي أنا ـ إلا هربي ممّن مال إليه قلبي مرة حتى الجنون.

تمتزج رائحة خريف دمشق الحنون برائحة الأرغفة الحارة الصباحية. الناس في دربهم إلى أعمالهم، وأنا ذاهبة للتمدد في "فرني" الخاص!!.

---

(١) **الهفهفة**: النظافة النظيفة حقاً بالتعبير الشامي. في نظر أهل الشام، ثمة نظافة وسخة!

لعلّ هذا الشاب المارّ الذي يحدّق بوجهي يتوهم أنني مثله موظفة تكاد تتأخر على موعد عملها. تلك حالي في الأيام الأخرى كموظفة في مكتبة وطالبة جامعية. أما اليوم فالأمر مختلف. ولن يخطر ببال أحد ما اعتزمت القيام به ضد كل ما كبرتُ في ظلّه من تعاليم (وضد القانون أيضاً وقد يُلقى القبض عليّ)، بل وضد جزء كبير من صوت قلبي، لكنني لا أريد أن يكون زوجي هذا أباً لابني أو لابنتي.

لا أريد أن يولد طفل لي في بيت ممزّق كما حدث لي. أريد أن أضع نقطة لأبدأ من أول السطر التالي (هل ذلك ممكن حقاً؟).

لقد صمّمتُ على ذلك كما صمّمتُ ذات يوم على الزواج منه وأخطأت، لكنني لن أتراجع عن إلقاء القبض على حياتي أياً كان الثمن. لقد أفلتُ بها ـ حياتي تلك ـ وكاد يجرفني سيل المألوف والمعتاد.

تتداخل أصوات الشارع والأصوات داخل رأسي. عبد الحليم حافظ يغني "أهواك وأتمنى لو أنساك" وتصرخ عمتي: حب؟ يا للهول! لا معاشرة قبل الزواج، لا بد من "كتب الكتاب"[1]. وهكذا كان!.. لو سمحوا لي بالتعارف حقاً معه قبل الزواج لما كان ما كان.. زواج بائس؟ لا طلاق. العلاج بإنجاب طفل تتلهى به "بنت الأصل" عن بؤسها مع زوجها وهو ما بذل زوجي جهداً لحدوثه، ووقع للأسف.

تحب رجلاً تريد الزواج منه؟ هذه خطيئة وعليها الزواج ممّن تختاره القبيلة وتُناسبها مصاهرته. وأنا اقترفتُ الخطيئة الأولى: الزواج ممّن أحب على الرغم من اعتراض أبي على ذلك. ولكن تصادف أن من أحببت كان يُناسب معايير قبيلتي. وعلى الرغم من ذلك جنّ جنون القبيلة. بنت تختار زوجها. لا. ذلك لا يُطاق.

وحده أبي حماني، لأنه لم يكن بوسعه قتل أمي مرتين. والآن سأقترف الخطيئة الثانية (اجتماعياً). سأعلن بمناسبة عيد ميلادي أنني أريد تطليق زوجي. نعم أخطأتُ وأريد تصحيح ذلك. الرجالُ يصحّحون أخطاءهم وسط تصفيق القبيلة. إحدى الجارات في حي الياسمين ذُبحت لأنها تجرأت على ذلك. حق الخطأ للذكور فقط وكأن عليَّ أن أدفع بقية حياتي ثمناً لغلطتي. غلطتي خطيئة لا تُغتفر... وخطايا

---

(١) كتب الكتاب: عقد القران الشرعي.

الرجل مسألة فيها نظر. منذ طفولتي وأبي يردد لي: صححي غلطتك ولكن بعد الاعتراف بها، وسأفعل!

لعلّه كان يتحدث عن كسر كوب من الماء يمكن ترميمه. ولكن، تراني أستطيع تصحيح زواج خاطئ بطلاق؟ هل أستطيع تصحيح غلطة فادحة بأخرى؟ فالطلاق خطيئة في نظر من حولي. أم أنني ذاهبة الآن لتصحيح غلطة بفضيحة إضافية نفسية وسريّة؟ لا. لن أعاقب نفسي لرغبتي في الإجهاض. ها أنا في "حي عرنوس". هنا أحببته حينما شاهدته للمرة الأولى في هذه المكتبة، وهنا أنساه وأنا أتابع دربي إلى المبنى القريب من المكتبة! صوت مذياع البقّال مرتفع ينشد: "كان عهدي عاهدك في الهوى. يا نعيش سوا يا نموت سوا. أحلام وضاعت في الهواء"... تكاد تسيل دموعي. أتردد أمام المبنى وأقف. لا أحد يعرف أين أنا وإلى أي سرير معدني أدخل وقد لا أخرج منه حيّة. ربما كان عليَّ إخبار جدتي حياة على الأقل بما أعتزم القيام به. فهي تكتم الأسرار. من مذياع "اللحام" ينطلق صوت فريد الأطرش يؤكد: "مهما بكيت لا تبك لحد ومهما شكيت لا تشك لحد.. إن صان الود.. أو خان العهد ما تقولش لحد.."

لا. جدتي تكتم الأسرار الصغيرة كقفزنا نحن الأولاد قبل ستة أعوام فوق السرير أو كسر إبريق الماء، ولكن هل بوسع جدتي أن تتحمل سرّاً كهذا؟ بل هل بوسع أبي أن يرضى بما سأفعله على الرغم من حبّه الكبير لي وكرهه المعلن لزوجي؟ هل تستطيع نبيلة أو عفاف أو منتهى أو سواهن من صديقاتي أو حتى إبن عمتي، وصديقي الكاتب إبن الفلسطيني، كتمان سر كهذا؟

تحاصرني متسولة وهي تقول: "الله يخليلك ولادك حسنة لله"! أكاد أصرخ بها: أنا ذاهبة لقتل أحد أولادي! الأول!!.. ولكن خذي حسنة..

أدخل إلى المبنى. أمد يدي إلى جرس الباب وألامسه وأنا مترددة: أقرعه أم لا أقرعه؟ ربما كان عليّ أن أترك ورقة لأبي ليعرف أين أنا إذا حدث أن....

يدي على الجرس. لا أقرعه. أكرر لنفسي: ثمة قرارات كبيرة علينا أن نتخذها بمفردنا من دون الاتكاء على كتف أحدٍ، وأن نتحمل مسؤوليتها بمفردنا أيضاً، كما فعلتُ يوم قررتُ الزواج منه في عيد ميلادي السابع عشر، وعليّ الآن الطلاق منه

والتخلّص من طفلنا الآتي. . ومتى؟ اليوم في عيد ميلادي الثامن عشر. إنه اليوم الذي حدده الطبيب وتصادف يوم ميلادي. . أتراه عيد ميلاد أم عيد موت؟ يا له من عيد دموي! . . أجل الطبيب اختار هذا التاريخ ووافقتُ. عيد ميلادي لا يعني شيئاً لي أو لأسرتي فهو عيد الموت الأول لأمي التي كُدتُ أقتلها بولادة قيصرية كأنني لم أكن أريد الخروج إلى كوكبنا. . إجهاضي بمفردي جنون؟

مجنونة؟ ولما لا؟ من منا ليس مجنوناً على نحو خاص؟

لا أقرع الباب بيدي ولا أضغط على الجرس بإصبعي. ما زلتُ واقفةً في لحظة تردد مريرة وصوتٌ من أعماقي يؤكد لي: لا مفر من البتر ثم الكيّ!! صوتٌ بدأتُ أسمعه بوضوح منذ اليوم الذي بدأت فيه اقتراف كتابة قصتي الأولى سراً وقصيدتي الأولى كمن يرتكب إثماً. . كمن يعاشر اللغة بالحرام: أليس اقتراف الكتابة من قبلي إثماً؟ لعل أمي دفعت حياتها ثمناً له حين كرهتها الأسرة ورفض عمي إحضار طبيب (ذكر) لها وهي تحتضر بعد تعسُّر ولادتها الثانية وماتت؟ هل كان يريد أن يقول لها إنها "حرمة" ولن يكشف أحد على جسدها ـ حتى للعلاج. فالشرف (المزعوم) للأسرة أكثر أهمية من حياتها التافهة كبعوضة إنثى أخرى. ألم يرم عمي على أحجار سور دمشق بالقطط الإناث التي ولدتها القطة وأبقى على حياة المواليد الذكور؟

يقول لي الصوت: إقرعي الباب. فما من باب يفتح إذا لم نقرعه. ستندمين إذا لم تقرعي أبواب عمرك بجرأة. يتعالى الصوت في قاعي، صوت المرأة الأخرى التي تقطنني وتملي عليَّ الكتابة المتمردة زاعمة أنها تحمل صوتي الخاص غير معنيّة بعد ذلك بما يصيبني أو يصيبها وتكرر لي بذلك الصوت اللاواقعي شبه مقال تكتبه داخل رأسي: علينا أن نولد ولادتنا الثانية الأليمة المريرة ولكن بمذاقها الخاص الرائع الذي يداوي جراحنا الغابرة والآتية. مذاق الحرية. . ترياق الحرية. ها أنا من جديد أكتب داخل رأسي هراءً إضافياً حول نشوة الحرية وأنا منتشية بقراري ذاك، متوجعة وسعيدة وثمة باب يجب أن أقرعه وهذا كلّ ما في الأمر. لكنها تتابع الكتابة داخل رأسي: سأغادر شرنقتي حرة بأجنحة بعدما كنت دودة قزّ في شرنقة تصنع الحرير التقليدي وقد تموت مختنقة إكراماً لمن لا يستحق. . لا. . سأطير بجناحي بومة هادئة التحليق كشبح أو بجناحَيْ نسرٍ أو طائرةٍ شراعيةٍ كتلك التي كنتُ أقودها

قبل زواجي. ومنعني زوجي من ذلك ورضيت بقمعه باسم الحب وها أنا ذا أتمرد باسم الصدق والحرية.

لا. لن أقول شيئاً لأحد: قد تحتفظ جدتي بسرّي أو لا تفعل، كما صديقاتي. نحن لا نعرف دخيلة أحد أو بالكاد نعرف حقاً دخيلتنا. كل ما أعرفه هو أن صوتي بدأ يمتزج بصوت تلك الكاتبة المجنونة في قاعي.. الآن عليّ أن أقف وحيدة على قدمَيْ بلا عكاز. وعليّ أن أكفّ عن الكتابة داخل رأسي مثل هاملت وعن الثرثرة الداخلية اللامجدية وأن أقرع الجرس!

لماذا لم أقل لأحد شيئاً عمّا اعتزمته؟ لم أقل لأحد شيئاً وانتهى الأمر!! هكذا ببساطة نتصرف أحياناً بوحي ما لا ندري به في قاعنا! ربما لأنني أعرف للأسف أن لا أحد يستطيع كتمان السرّ قاومت "فخ الحاجة" للبوح بسرّي للتخفيف من أحمال قلبي. سأفعل كذاك الملك الذي كان يبوح بأسراره إلى ضفادع الغدير ليشعر بالراحة دونما طعنة خنجر تعقب البوح. تُرى هل ضفدع الغدير هو الطبيب النفساني الأول؟ والدكتور "شطاطي" في هذا الحقل في مدينتي، هل هو ببساطة ذلك الضفدع الأسطوري؟ حسناً. لم أذهب إليه. كنت دائماً أتوهم أنني أعرف ما ينبغي أن أفعله وتلك حالي الآن.

أقرر للمرة الثالثة: سأقرع الجرس وقبل أن أفعل، تفتح الباب زوجة الطبيب التي قيل إنها معاونته وهي تقول لي بلغة عربية مكسرة ممتزجة بالفرنسية وبصوت نزق كأنها شاهدت عبر منظار الباب ترددي الطويل: كنا بانتظارك. هيا ادخلي. أقول لها عبارة يعرفها حتى من يجهل الفرنسية وكأنني أحاول كسب ودّها: "بونجور" بدلاً من صباح الخير. أتظاهر بأنني لم أفهم ما سبق أن قالته بالفرنسية وهي متذمرة من ترددي. فمن المفترض أنني نصف أميّة وابنة راقصة في "ملهى السيريانا"[1] وأن عشيقها ـ عشيق أمي ـ اغتصبني(!!) وهي قصّة اخترعتها لنفسي في لقائي الأول والوحيد بالطبيب لأبرر حاجتي إلى الإجهاض من دون أن تعلم أمي، الراقصة المزعومة التي لها سوابق في هذا الحقل وعرفتُ اسمه بفضلها كما زعمتُ أيضاً!!!.

---

(١) **السيريانا**: ملهى دمشقي كان شهيراً مطلع الستينات وكان يقع قرب ساحة الأمويين بين البساتين يومئذ.

زوجة الطبيب تشير بإصبعها للمقعد في غرفة الانتظار قرب المدخل وتقول لي بالفرنسية: أجلسي هنا. لا أفهم ما الذي جعلك تقفين أمام بابنا من دون أن تضغطي على الجرس أم تراه لا يعمل؟ أتظاهر بأنني لم أفهم ما تقوله لكنني أجلس. هل سيغضب أبي مني إذا علم بما فعلته ويقاطعني هذه المرة إلى الأبد؟ ثم إنني كتمت عنه الأمر كي لا يتألم، فقد سبّبتُ له من الحزن ما يكفي ويزيد.

أجلس وأحصنة مجنونة تركض داخل رأسي. ذاكرتي أفلتت مني وأنا أستعيد الماضي أستعداداً للموت وربما للنجاة. حين أصررتُ على الزواج ممّن أحبّ حبّاً جنونياً غضب والدي وقال إنني مراهقة لا تعرف ماذا تفعل (ويبدو أنه كان على حق). لكن حزنه عليّ كان أكبر من غضبه.

ولأنه كان واثقاً من فشل هذا الزواج وأنا العاشقة يومئذٍ لم أفهم لماذا، فقد أدعى أن السبب أنني مراهقة عمرها سبع عشرة سنة. من طرفي كنت بصدق أعتقد أنني أكثر فهماً من أبي الأربعيني العجوز ومنهم جميعاً، وقلت لأبي إنني صرتُ كبيرة وعمري سبع عشرة سنة وأفهم الدنيا وضرب وجهه بيده وتألمتُ، بينما تدخلت أسرة العريس دعماً لإرادة حبيبي يومئذٍ وهي من "علية القوم" وهي لا تريد غير استقراره والراحة من مشاكله.

أحرجتُ أبي. لم يكن بوسع والدي يومها الرفض (اجتماعياً) أو القول إنه يرضى بالأسرة لكنه يرفض الرجل ـ بسبب ما عرفه عنه ـ فالردّ جاهز: سيتبدل بعد الزواج وتصطلح أموره ويعود تحت جانح الأسرة الكبيرة وأخلاقها الكريمة المشهود لها.

وهكذا أنفق والدي الكادح ثروة طائلة على إعداد جهاز عرسي وملابسي الفاخرة وبعضها بل وأرخصها من مخزن الحايك الذي فتح أبوابه مؤخراً في المبنى المطلّ على بردى تحت مكتب صحيفة "أخبار اليوم" في دمشق، وثياب النوم المطرزة من عند الراهبات[1]، وفستان العرس من عند "ديور" باريس، فستان يقُلّد ثوب سندريللا الحكايات الفرنسية التي درستها في "الليسيه فرانسيه" في شارع بغداد.

(١) خياطة الراهبات: كان ذلك هو النمط الأكثر أناقة وجمالاً في الستينات من القرن الماضي واللباس الأكثر كلفة لأنه مطرز باليد.

حين جاءت نساء أسرة العريس الأعلى كعباً في السلم الاجتماعي للتفرج على "الجهاز" كما تقتضي التقاليد، أبدين إعجابهن بذلك البذخ كله لأنه كان مرادفاً لقيمتي عند أبي والأهم لقيمة أهل العريس، فوالد العريس أحد أعمدة الشركة الرباعية الشهيرة! أبي اليتيم كان طفلاً حين فقد والده التاجر في الدكان خلف الجامع الأموي قرب بيتنا في زقاق الياسمين وعاش شبابه في الفقر والكدح والدراسة العسيرة في باريس لأن بعض أعمامه اغتصبوا حصّته في الدكان كأوصياء واضطرت جدتي للعمل خيّاطة لتعليمه. وقد عزّ على أبي أن ينظر إلينا "الأكابر"[1] من فوق.. ولعلّي أظلمه. ما عزّ عليه هو أن ينظر إليّ "بيت حمايي"[2] من فوق. فزايد عليهم وكاد يفوقهم لو لم يقوموا بدورهم بما تقتضيه الأصول: شراء بيت الزوجية وتأثيثه لنا في "حي الرئيس"، الحيّ الراقي حيث يقيم الرئيس شكري القوتلي كما قالت لي والدة خطيبي بفخر.

يمرّ ذلك الشريط في عيني كومضة برق. لا. لن أتردد. سأمضي إلى سرير الإجهاض وأنا لا أعرف ما ينتظرني من ألم جسدي ونفسي فيما بعد. نعم أنا مذعورة. أركض مذعورة صوب الإجهاض في غابة سرية تقطنها التماسيح والثعابين والرتيلاء العملاقة، ولكن يجب أن ألغي ذلك الرجل من حياتي. أكرر لنفسي: لا أريد طفلاً يكبر بلا أم مثلي في بيت ممزّق فأنا أعرف طعم ذلك. لا. لا أريده أباً لابني. لا أريد أن ألتقيه بعد اليوم وإذا التقيته أريد ألا أعرفه. أين الطبيب اللّعين؟ ولماذا يتركني أنتظر هكذا فريسة مخاوفي وأفكاري؟ إني مذعورة.. عليّ أن أجد ذلك "المحرك الثاني" في داخلي وأن أعيد تنشيطه.. لا. لم أنسه بعد.

كنتُ في العاشرة. مشينا أبي وأنا من بلودان إلى بقين فالزبداني في رحلة وداع للصيف. كنتُ بنتاً صغيرة وفي طريق العودة "قادومية"[3] لم يعد بوسعي المشي. تعبت. انهرت أمام نبع الماء رغم رغبتي في إرضاء أبي وكنت أريد الشرب. قال لي: هيا انهضي. قلت بصوت خامل: لم أعد أستطيع. قال: هيا شَغِّلي "المحرك

---

(١) الأكابر تعبير دمشقي عن علية القوم.

(٢) أسرة العريس.

(٣) قادومية: مشياً على الأقدام في طرق فرعية ترابية.

الثاني" لديك. دعيه يعمل. اكتشفيه بقوة الإرادة. أعرف أنك تمتلكينه وربما تمتلكين المحرك الثالث والرابع. وأكثر من ذلك، انهضي واركضي هذه المرة بدلاً من المشي.. تذكري أنك قوية. قوية. لم أفهم شيئاً مما يقوله أبي غير أنه كان عليّ أن أنهض. نهضتُ وتعلمتُ كيف أنهض. وبعدها سَخَّرتُ "محركي" الثاني ضد أبي، حين صمّمتُ على زواجي من وسيم.

أغرمت به منذ لقائي الأول به في مكتبة عرنوس الذي تقع قربه عيادة الطبيب الذي أزوره اليوم. أغرمت به من النظرة الأولى وكان ذلك قبل ثلاثة أشهر من عيد ميلادي السابع عشر وخضت حروباً مع أسرتي ولكن غرامي به منذ النظرة الأولى كان ضارياً شرساً متوحشاً بملايين المحركات، لا يقف في وجهه شيء كما هو الآن قراري بِهَجْره بعد أقل من حوالى سنة على حياتنا المشتركة بين "قاسيون"[1] و"كاندلز"[2] وبعد أشهرٍ من الزواج المرير والهرولة من المكتبة حيث اخترت أن أعمل، والجامعة، وأنا المصرّة على متابعة دراستي، والعمل على إعداد الطعام، في المطبخ حيث أغفو على طاولته تعباً.. وأنا أردد لنفسي كل ليلة بعد أسبوع العسل: أهذا الرعب اليومي والليلي هو الزواج؟؟ لا.. لا أريد ذلك ولا أستطيع.. كنتُ أريد بيتاً لي أكون حرة فيه من الخالات والعمات والجارات وتعاليم زقاق الياسمين، لكنني استبدلت قامعاً بآخر مثله. تركض أفكاري تلك كلها داخل رأسي في ومضة عين. لا أفكّر بالإسوارة بل أتساءل: هل أريد حقاً اقتراف ذلك؟ أمر بلحظة تردد.

لا. عليَّ أن أقطع كل صلة بتلك الغلطة الفادحة.. كل صلة. يجب أن أنسى ذلك كله وأن أستجمع قواي لمواجهة الآتي المجهول. لا. لن أنجب طفلاً يصير ساحة حرب بيني وبين زوجي. ثم إنه لا مفرّ من الطبيب لأنني وقبل ذلك استعلمتُ على نحو غير مباشر عن إمكانيات الإجهاض زاعمة أن ذلك من أجل صديقة لي من رجل حملت منه وهو متزوج من إمرأتين ويريد منها المتعة فهو مرؤوسها في العمل وأب. بيُسرٍ بالغ أَخترعُ الحكايا والقصص والسيناريوهات لأشخاص وهميين. وسمعت التفاصيل المرعبة كلها عن الطرق الشعبية للإجهاض وأنا أرتجف وأتخيّل

---

(١) قاسيون: جبل يكلل دمشق.

(٢) كاندلز: مطعم رومانسي في حي الصالحية في دمشق مطلع الستينات من القرن الماضي.

إمكانية ممارستها عليّ في غرف التعذيب النسائية السرية... إبتداءً بـ"سيخ الملوخية"[1] ومروراً بحمل جرن الكبة والضرب على البطن.. وأخيراً زلّ لسان إحدى صديقاتي في الجامعة بشائعة من تلك التي تتلذذ بعضهن بتداولها: الدكتور فلان الشهير إبن الأسرة العريقة والأستاذ في كلّية الطب، وزوجته الممرضة الفرنسية، يُمارسان عمليات الإجهاض سراً في عيادته الملاصقة لبيته. هذا الدكتور واسمه رهيف المناهلي أعرفه منذ طفولتي، ثم إنه أستاذ جامعي ومن الخير لي أن أثق بعلمه وبخوفه الشخصي من الفضيحة الذي قد يوازي خوفي من الموت نزفاً!

وهكذا ذهبتُ للقائه ولم أقلّ له إنني إبنة صديقه المحامي أمجد الخيّال لكي لا يرفضني وينكر كل شيء. لذا قُلتُ له إنني إبنةُ راقصةٍ في "السيريانا" وإنني أميّة ويتيمة ولدي أسوارة ماسية ثمينة سرقتها من أمي وستتهم بذلك أحد عشّاقها سأعطيها له بدلاً من النقود مقابل إجهاضي وهذا كل شيء...

ضربتْ لي زوجته موعداً للإجهاض وها أنا الآن هنا. لعلّه تردد لكن زوجته انقضّت على الفرصة ومن حقّها ذلك فهي تضيق ذرعاً بدمشق؟ تلك مشكلتها ولديّ من المتاعب ما يكفي ويزيد..

لقد انتهى كل شيء وشقيقة زوجي الكبرى تردد باستمرار قائلة عني وأنا أهرول: «بالدوارة مثل الشرارة، وبالبيت مثل الخيط»[2].

حسناً. لن أكون بعد اليوم في بيته. سأتفرّغ لعملي ودراستي وكتاباتي السرّية.

يدخل الطبيب ويقول لي بصوت مطمئن شبه متعاطف: هيا أخلعي ثيابك كلها وارتدي هذا "الروب" الأبيض. لا تقلقي. سيمرّ كل شيء على ما يرام. أخلع أسوارتي الماسية وأقدّمها إليه وأنا أقول: شكراً لك. سأرتاح قليلاً ثم أعدّ نفسي للأمر. تراه رفض قبول الإسوارة لأنه تذكر أنني إبنة صديقه الطفلة التي كان يحملها ويضعها في حضنه سعيداً بحوار معها لا يناسب عمرها كأن موت أمها أنضجها قبل الأوان كما كنت أسمعهم يكررون؟ دخلت زوجته الغرفة لحظتها وانقضّت عليها. أتراه تذكرني؟ ولماذا تردد بل ورفض؟ هل رفض الإسوارة الماسية مؤقتاً لأنه لا يريد

---

(١) أسلوب بدائي للإجهاض ينتهي غالباً بنزيف أليم وقاتل.

(٢) مثل شامي عن المرأة المقصرة في واجباتها التي لا تنشط إلا خارج بيتها.

أن أعرف أنه عرفني لكي لا أُصاب بالاضطراب خلال العملية الجراحية وذلك أمر سيء طبياً؟ أجل زوجته انقضّت على الإسوارة. وحين مد يده معترضاً، نهرته بالفرنسية وهي تظنني أجهلها، وذَكّرته بضرورة جمع المال قبل هجرتهما إلى باريس ليقدرا على شراء عيادة في شارع فوش.. وصمت الطبيب. حدث ذلك أيضاً في المرة الأولى لزيارتي له. تُراه تذكّر أنني زين الطفلة التي صدمه أنها كبرت وجاءته تريد الإجهاض وهو يعرف أنها متزوجة من رجل من أسرة عريقة ثرية وذات نفوذ؟ بالتأكيد لا. تراه كان أحد مدعوي أبي إلى حفل زفافي الكبير في الفندق "الأوريانت بالاس"؟ لا يمكن له أن يتذّكرني يومذاك، ولا حين كنت طفلة حقاً وقد صُرتُ اليوم إمرأة حامل متزوجة وعلى وشك الطلاق. تردده في قبول الإسوارة الماسية، وثمنُها يساوي ثروة صغيرة، لا يمكن أن يكون مرده أنه تذكّرني... لا. نعم. لا..

ماذا لو كان شخصاً طيباً كما تقول الشائعات؟

تركض تلك الصور كلها داخل رأسي وتتداخل الأصوات والمشاهد كمن يبثّ عدة أفلام في وقت واحد على شاشة واحدة وأنا أنجز خلع ثيابي وأرتدي "الروب" الطبي الأبيض مثل كفن وأتلو دعاء التوبة الذي علّمتني إياه جدتي وأنا طفلة لا يخطر ببالها موتها. أشمّ الروب الأبيض الطبي قبل ارتدائه للتأكد من أنه نظيف!! وأكاد أنفجر ضاحكة من نفسي: يا لي من شامية عتيقة تريد التحقق من نظافة كفنها! هل سأموت؟ سامحيني يا نفسي على الخطايا الكثيرة التي اقترفتها باسم الحب.. تقودني زوجته الممرضة الفرنسية بكثير من الرفق إلى دهليز فغرفة شبه مظلمة لولا المصباح المسلط على سرير مرتفع معدني ضيق ينتهي بساقين معدنيتين متحركتين لهما خطافين وتشير لي بأن أتمدد فوقه وأضع كل قدم داخل الخطاف المعدني المتحرك.

الهلع يتملّكني فلم يسبق لي أن شاهدت غرفة للتعذيب كهذه مدَّججة بالمشارط والمقصّات والمسابر والشاش المعقم. يجتاحني ذُعرٌ حقيقي يقطعه دخول الطبيب "غرفة التعذيب" ويمسك بيدي مشجعاً ويسألها بالفرنسية التي يتوهمان أنني أجهلها: هل تذكرتِ "الإبرة" المهدئة. أجابته زوجته الممرضة: أجل لم أنسَ، لكنني خفتُ أن لا تقوى على المشي بعدها فهي ترتجف ومضطربة جداً سأفعل الآن. ورغم أنني مذعورة وصغيرة وهشّة فقد غرست في ذراعي إبرة وأنا أخاف حتى الموت من الإبر(!!). قال لي الطبيب مطمئناً: إنها إبرة مهدّئة ستساعد البنج ولن تشعري

بأي ألم. لا تقلقي. سأحرص عليك كما لو كنت «إبنة لصديق لي». لولا هلعي لتوقفت طويلاً عند مدلول العبارة الأخيرة.. لكنني مذعورة. يمددني عارية على منصة شكسبيرية تحت الرعود والبروق (أم أنني أهذي والإبرة المخدِّرة هي التي تتكلم؟). تضع زوجة الطبيب كمامة على وجهي تنبعث منها رائحة كريهة وفي عينيها أرى رقة محبّبة. صوت يقول لي بالفرنسية لعلّه صوتها: قومي بالعدّ من العشرة حتى الصفر. لم أعد قادرة على الكذب والتظاهر بعدم الفهم. أبدأ بالعدّ ولصوتي صدى.. ثم أتلاشى.. أ.. ت.. لا.. شى.. أتلاشى ولا أتلاشى.. أشعر بالوجع ولا أستطيع الصراخ.. أشعر بسيخ ناري يخترقني.. أ.. ت.. ل.. ا.. ش.. ى..

ها أنا تحت المطر والريح والصواعق والرعود والبروق أسمعني أردد مع «الملك لير» الذي يمشي إلى جانبي والذي أدرسه لاعناً أقداره وحماقاته: «Wilt break my heart» لاعناً أقداره وبناته[1]. أرتجف ذعراً في هذا القفر الذي رميت فيه بنفسي. أندم. أقرر الهرب.. هل انتهى كل شيء؟ ولماذا أسمع صوتي ولا أقوى على الصمت وروحي مبعثرة كأفكاري؟ يأتي ذلك الصوت الذي أسمعه حين أكتب ويدعم تلك الرعديدة التي هي أنا.. صوت شبيه بصوتي (أم تراه صوت أمي على سرير احتضارها وأنا طفلة) يقول لي: لا تخافي.. لا تخافي.. أنصت للصوت. لا أسمع غيره. أقرر فجأة وكمامة تنطلق من جديد منها رائحة كريهة تغطي أنفي وشراييني.. رائحة كريهة... وصوت الطبيب مع الصدى: المزيد من البنج.. إعطها المزيد من البنج.. لا. لستُ خائفة. أنا لست امرأة نحيلة هشّة. أنا صخرة في قاسيون. أنا صخرة لا تخاف الأمطار فهي تغسلها. لا تخاف الصواعق والرعود فهي تنطلق منها. أنا صخرة قرب "قبة السيار"[2] ليس بوسع مسبار اختراقها وليس بوسع صاعقة إحراقها. أنا صخرة حيّة.. أردد ذلك أسمع صوت الطبيب إعطها المزيد من البنج.. وصوت أمي يقول: لا تخافي.. وهي تتلاشى على سرير موتها. ها أنا الآن طفلة كذلك اليوم بين بلودان والزبداني أمام النبع وصوت أبي يصرخ بي في الدرب عندما انهرت

(١) عبارة شكسبيرية شهيرة تعني: «ستكسر قلبي».

(٢) "قبة السيارة": مكان أثري فوق إحدى قمم جبل قاسيون.

أمامه: أنت كبيرة وفي العاشرة من عمرك. قومي بتشغيل المحرك الثاني داخلك. أشعر بألم بالغ في موضع حسّاس من جسدي. أهو "سيخ الملوخية" الحارق؟ ماذا يدور؟ أتوجع. لستُ مخدرة. ما هذا الألم؟ صوت يكرر الصدى: إعطها المزيد من البنج.

أغرق وأطفو.. لا.. لن أصرخ.. لن أقوم بالأنين.. أنا صخرة في قاسيون لا شيء يطحنني. المطر والريح والصواعق تعبرني ولا تزعزعني. أنا منذ عصور صخرة لصق "قبة السيار". أسمع صوت أنيني. لا. أنا صخرة في قاسيون لا تتألم.. لم أعد أتألم.. أ.. ت.. ل.. ا... ش..ى. أرى زين تضحك مع والدها.. ثم تنام.. تنام.. تنام.. تصحو تسمع صوتاً يتلو قصيدة لشكسبير (أهو صوتها؟) أهي التي تقول بالإنكليزية: «أن تموت. أن تنام. لم يعد بوسعك القول إنك بالنوم تنتهي». تعي أن الصوت صوتها وعليها أن تصمت. أن تكف عن... إنه صوتها أو ذلك الصوت يكرر بالإنكليزية: «أنا لستُ ميتة. أنا حيّة.. I am not dead.. I am alive». تحاول السيطرة على نفسها والتزام الصمت.. وتفشل.. وتلك الكمامة[1] برائحتها الكريهة تكاد تخنقني. سأستسلم لها وأسترخي. أنا صخرة لكنها تستسلم للعاصفة بل وتعانقها وتتحد بها.. أنا العاصفة.. البروق والرعود تطلع مني.. من الصخرة.. أتلاشى. أستيقظ على صوت أنيني ولا أدري كم من الوقت مرّ عليّ وأنا على تلك الحال..أطفو وأغرق.. زلزال يحيط بالصخرة القاسيونية التي أراها منفصلة عني..

أنا نصف متوجعة.. نصف صاحيّة.. نصف حيّة. أسمع صوتي.. أجل، أسمع صوتي أتلو أتلو.. ماذا أتلو وأثرثر.

أتلو من دون أن أقوى على الصمت.

أفتح عيني. وجه غريب.. يا إلهي.. إنه الطبيب.. وجه آخر، إنها الممرضة تحدق بي بهلع من يرى لغماً! يبدو أنني لم أعد صخرة لأنني أعي أنني أهذي وعليّ

(١) في مطلع الستينات حين تدور أحداث الرواية كان التخدير بالغاز ما يزال شائعاً عبر الكمامات على الأقل في العيادات الخاصة، ولعلها اختفت اليوم من غرف العمليات بالمستشفيات وحلّت محلّها إبرة تُعطى في الشريان.. أو كانت يومئذٍ شائعة لكن الطبيب اختار عدم استعمالها لغياب طبيب إختصاصي في التخدير.

أن أصمت. أن أغلق فمي. أنا صخرة في قاسيون تغلق فمها؟ لا. لن أغلق فمي بعد الآن. سأقول إنني متوجعة وتعيسة ومهزومة وخائبة. ترى هل انتهى الأمر؟؟.

أحاول أن أهبط عن المنصة الحديدية. أفشل أكاد أقع. تساعدني الممرضة وقبل أن أقول شيئاً يؤكد لي الطبيب مطمئناً: لقد مر الأمر بسلام على الصعيد الطبي. لا تقلقي، ستنجبين أطفالاً فيما بعد. ولعلّي قلت دونما وعي مني: سأذهب.. إذ قال: لن أدعك تذهبين الآن. ستتمددين على السرير في الغرفة المجاورة وتنامين وسأوصلك بعد ذلك إلى بيتك.. لا تقلقي. انتهى كل شيء.

أؤكد له: أستطيع المشي الآن والعودة إلى البيت. قال لي نصف ضاحك: تمددي ونامي. لا تقلقي.. لا أدري كيف غادر "غرفة التعذيب".. أتمدد وأتلاشى.. أستيقظ منتعشة مع بعض الألم الحاد في بطني ومغص أليم يتوقف بعد حين بجرعة دواء. أرتدي ثيابي ببطء بالغ. أقرر مغادرة هذا المكان من دون أن أدري بالضبط إلى أين أذهب. أتدحرج صوب الباب هاربة. يُناديني الطبيب ثم يمسك بذراعي: تعالي. أريد قياس "ضغطك"!! أعود مذعنة.. يؤكد بعد دقائق: أنت بنت صلبة العود وأنت بخير.. لكنني سأوصلك بالسيارة إلى بيتك. تمّهلي. على ساعة الجدار خلفه اكتشفت أنها الرابعة بعد الظهر وذهلت. إذن أنا هنا منذ ساعات طويلة من دون أن أعي ما يحدث لي. قلت إنني سأغادر عيادته بمفردي لكنه رفض. لا أفهم جيداً ما يدور لي. وأنا أغادر العيادة معه مستلبة الإرادة أصمت وأحاول التركيز على رغبتي بألاّ يعرف من أنا. أقول له إنني ذاهبة إلى بيتي في ذلك المبنى مقابل "حديقة السبكي"[1] على بعد خطوات من مدخلها الرئيسي. يسألني كأنني أخته أو جارته تريدين الذهاب إلى هناك؟ تراه عرفني؟ ويعرف أين بيتي الحقيقي؟ لماذا أكذب عليه. أقول: هناك بيتي.

تراه لم يصدقني؟ وأنا أهبط السلم معه مستندة على ذراعه تقول لي نظراته: هل تتوهمين أنني لم أعرفك يا زين؟ تراه عرفني؟ المهم أن أمضي. أريد أن أغادر ذلك المربع الأليم الذي وجدت نفسي محشورة فيه. أكذب كذبات يناقض أحدها الآخر

---

(١) جنينة السبكي: حديقة عامة في دمشق قرب أحياء الروضة وشعلان وعرنوس ولعلّها ما برحت هناك اليوم.

لخوفي وارتباكي وثمة موضوعات لا أريد التحدث عنها مع أحد. ذلك قهري الشخصي وذلّي وأخطائي وأحاول النجاة من شبكة غزلتها أنا بالحب في لحظات كثيفة مضيئة.

مر أمام عيني شريط لحظات الإذلال كلها التي عشتها في ذلك الزواج ولم أشعر أنني قتلت لتوي طفلاً بريء. بل أنقذته وقتلت ذلاً إضافياً لطفل بريء لا أدري كيف استطعت أن أطيقه طوال تلك الأيام والليالي بما فيها البكاء ليلاً على الشرفة الخلفية للمطبخ في حين كانت الأرملة العجوز الكوتللي تسمعني في حي الرئيس[1] وكنت وأنا أكتشف كيف يمكن للحبيب أن يصير جلاداً..

الآن تم صحوي من غيبوبة لعلها كانت عميقة.. ونحن نغادر البيت إلى السيارة سألتني زوجة الطبيب بالفرنسية: من أنت؟.. كُنتِ تهذين بأشعار قال زوجي إنها لشكسبير!! لم أجب كنت أتمنى قول الصدق: لقد فشل زواجي ويبقى أن ينجح طلاقي، لقد أخترعت لنفسي حياة أخرى كما في قصصي التي بدأت كتابتها سراً كما لو كنت أقترف جرماً أخلاقياً. تصمت قليلاً ثم تصرخ بي من دون أن تترك لي المجال لقول المزيد من الأكاذيب وهي تناولني وصفة طبيبة وضّبها زوجها: لم نصّدق أنك ابنة راقصة "السريانا" وبالذات زوجي الطبيب. وتطبق باب العيادة ـ البيت بعد ذلك بعنف خلفنا. تراه يعرف منذ البداية أنني أكذب وأنا التي توهمت أنني الشاطرة التي تخترع السيناريوهات؟ تراه يشك في أنني زين إبنة صديقه المحامي؟ تراه حدس مأساة الحب المجنون وعقدة روميو وجوليت الحب الأرعن الذي يتحدى الأعراف والأهل والجميع؟ تراه شاهد صوري في حفل عرسي الكبير، ولعله كان بين المدعويين؟ نحن في الطريق صوب جنينة السبكي، لكنه يمضي صامتاً لا يقول كلمة. أهبط من السيارة أدخل إلى المبنى الذي زعمت إنني أقيم فيه وأودعه شاكرة متحاملة على ألمي. أقف في المدخل لدقائق وأنا أصلي كي لا يخرج أحد من سكان المبنى ويراني أختبئ هناك حتى أسمع صوت سيارته وهي تمضي به وبكل ما كان ذلك اليوم.. كي لا يرى أنني أغادر المبنى إلى "جنينة السبكي" مقابله لأرتمي على أحد المقاعد ولعلي أنزف. أحاول أن ألملم نفسي وأقرر ما الذي سأفعله وإلى أين سأذهب!).

---

(١) حي الرئيس: منطقة في دمشق دُعيت كذلك لأن الرئيس شكري القوتلي كان يقطن فيها.

الفصل الثاني (محاولة سابعة)

حبّي لدمشق يذلّني

ودع الدكتور المناهلي زين أمام الباب وهي تترنح وقلبه لا يطاوعه على تركها من دون إيصالها إلى بيتها الحقيقي أياً كان.

مضى صوب قاسيون حيث توقف في الساحة وبقي جالساً في سيارته (إنها لا تدري إنني لم أصدق أنها إبنة راقصة في "السيريانا". البنت كذابة سيئة، لكنها بالتأكيد بنت شجاعة. إنها الوحيدة التي جاءت للإجهاض بمفردها وأنا أعرف أنها ليست بنت ٢٤ سنة كما ادعت وتأكدت من ذلك بخبرتي الطبية خلال إجهاضها ولم يسبق أن حدث معي ذلك من قبل. كلهن يأتين برفقة زوج أو أخت أو أم أو صديقة، أي برفقة دعم ما.. هي جاءت بمفردها إلى عيادتي لتحديد موعد الإجهاض. لم أصدِّق تبرُّجها الذي بالغت في تلوينه لإقناعي بأنها إبنة الراقصة الوهمية. شعرت بالكثير من الشك في صدقها. أعرف أن بعض الراقصات أكثر حرصاً على تعليم أولادهن من بعض سيدات المجتمع المخملي المحيطات بي وبأسرتي.. لكنها ليست إبنة راقصة والإسوارة الماسية التي عرضتها عليّ ثمينة ونادرة ومن الواضح أنها إبنة لأسرة عريقة توارثت تلك الإسوارة النادرة إلا إذا كانت قد سرقتها.. ثم إن الراقصات وبناتهن يعرفن قيمة المال الذي يشقين لتحصيله ولا يتخلين عن إسوارة ماسية لشراء طبيب مثلي.. ذلك كله أسرني. أخطاؤها البريئة تسحرني لكنني لا ألومها أيضاً لتوهمها أن شرائي بإسوارة ماسية ممكن لأن سمعتي في المدينة صارت سيئة. فأنا أرضى أحياناً بممارسة عمليات الإجهاض الممنوعة رحمة بالأطفال! المال في حقيقة الأمر ليس شاغلي بل شاغل زوجتي لنستطيع شراء عيادة في باريس والاستقرار هناك. ما يشغلني هو ألا يولد طفل مثلي في بيت ممزّق يُعاني كما عانيت وكما عانت زين على الأرجح من عمّاتها في البيت الكبير بزقاق الياسمين الذي أعرفه جيداً حين كُنتُ أذهب للعب مع أبيها ونحن صغار.. هذا إذا كانت تلك الفتاة الغامضة هي زين الخيّال، كما اعترفت حين كانت تهذي.. وانتهزت زوجتي الفرصة وسألتها عن إسمها. لم تعترف حقاً. كانت تلفظ إسماً لستُ واثقاً من أنني فهمته.. كانت تغمغم مُخدّرة ولعلّها تقول شيئاً آخر.

زوجتي سألتها بالفرنسية فأجابت بالعربية: إسمي زين.. زين الخيّال. حسناً.

لستُ متأكداً من قولها الخيّال أو الخيال ولذا لا أعرف حقاً من هي، وكرجل علم لا يقين حقيقياً عندي. زوجتي التي لا تفهم العربية جيداً رغم محاولاتها المشكورة كلها لتعلمها سألتني: ماذا تقول؟ قلت لها: لا شيء.. إنها تهذي. اللواتي يتمددن على ذلك السرير المرعب المعدني وعلى الوجه الكمامة والإبرة في الشريان، لا يعرفن بأية أسرار يبحن.. أسمعهن، أكره بعضهن وأتعاطف مع الباقيات كزين التي حاولتْ السيطرة على عقلها الباطن، لكن أحداً لا يصمد أمام تلك العقاقير.. فالبشر في النهاية عجينة من كيمياء المشاعر والعواطف الغامضة والظلال والإضاءات المفاجئة لكنها كلها مُعبأة في أنابيب الشرايين وخلايا تلك الكتلة الصغيرة الملّقبة بالدماغ.. وخزة إبرة حيث ينبغي وقطرات من عقار وتنفتح خزائن القلوب المغلقة بأسهل من خزائن البنوك أمام سارق ماهر. زين أم مزين؟ ما الفرق؟ المهم انني مشدود إلى تلك الشجاعة التي جاءتني بمفردها) يتذكر المشاهد منذ وصولها وزين تطارد أفكاره في كل خطوة خطتها في عيادته وكل أنين مكبوت أطلقته وكيف أسندها بذراعه وهي تصعد إلى سيارته وسألها إلى أين تريد أن يوصلها فقالت له بصوت آلي: إلى "جنينة السبكي"، ثم أضافت: إلى البيت المقابل لمدخل جنينة السبكي. وقتها سألها ليربكها: أي المداخل؟ ردّت باقتضاب: الرئيسي. أدرك أنها تكذب. يعرف أن بيت والدها إذا كانت زين الخيّال ـ كما يظن ـ فبيته في شارع أبو رمانة، في ساحة المدفع. قَدّر أنها تدله على بيتها الزوجي. لا. لعلها تكذب أيضاً وكذبها الرديء يسحرني. **(هذه الصبية لديها مرض قول الحقيقة. وما لا تعرفه زين لأنني لم أقل الحقيقة أنا أيضاً هو أنني أجري هذه العمليات لا طمعاً بالمال والأساور الماسية ولكنني لا أريد لطفل أن يكبر في بيت ممزق كما حدث لي وعانيت الكثير).** يسترجع في باله كيف أشارت زين إلى مبنى من طابقين مقابل أحد مداخل "جنينة السبكي" وقرأ على الباب لافتة "مبنى للبيع". قالت باختزال: هنا.. قالتها وهي تتحامل على نفسها وخيّل إليه أنها بصعوبة ترفع يدها لتشير بها إلى المكان!

يهبط الدكتور المناهلي من سيارته في ساحة المهاجرين[1] تحت جبل قاسيون وتلح عليه صورة زين ومكابرتها وكذبها الطفولي الرديء.. البريء.

(١) ساحة في سفح جبل قاسيون. كانت في الستينات من القرن العشرين خالية من المباني وهي تشرف على مدينة دمشق القديمة وكذلك الجديدة.

يروح د. رهيف المناهلي جيئةً وذهاباً على رصيف ساحة المهاجرين ويحاول عبثاً طرد زين من شرايين عذاباته... يكرر لنفسه مراراً (لم أصدق أن بيتها هناك. إنها كذّابة رديئة وذلك يقرّبني منها. لم أعرف يوماً إمرأة تكذب على ذلك النحو الردي. وذلك ما يشدّني إليها. لا.. لعل ما يشدّني إليها هو جرأتها وهو ما لم أجرؤ على قوله لزوجتي أو لنفسي: أريد البقاء في دمشق على الرغم من كل شيء. لا أريد الذهاب للحياة في باريس. لم أقل شيئاً لزين، بل أنزلتها من سيارتي وأنا جدّ قلق على تلك الصبية. أقلعت بسيارتي حتى طرف الشارع أمام جنينة السبكي ثم توقفت قليلاً حائراً بما سأفعله. من الواضح أنها فتاة لا تحب أن يتدخل أحدٌ في شؤونها حتى وبقايا البنج في رأسها.

يربطني بها أنها يتيمة مثلي إذا كانت حقاً زين الخيّال كما أميل للاعتقاد. نحن الأيتام نعرف من يحبنا ومن يكرهنا بالتخاطر من دون الحاجة إلى البوح بكلمة. يُعَلّمنا قهرنا ذلك ـ كالمقهورين جميعاً ـ. ومثلهم جميعاً نتضامن ويدعم بعضنا بعضاً سراً وربما علناً. دعمتها سراً. تظاهرتُ بأنني لا أعرف عنها شيئاً حين كذبتْ مدّعية أنها إبنة راقصة. أكرر لنفسي باستمرار أن بعض الراقصات أكثر خلقاً ودفء قلب من بعض سيدات المجتمع اللواتي يمارسن مهنة مشابهة من خلف أقنعة وأنا أدرى الناس بذلك حينما تأتيني نجمة منهن وهي تشك في حملها من عشيقها داكن السمرة وتخشى بعد الولادة أن ينتبه زوجها أزرق العينين أشقر الشعر إلى أن "طفله" نصف زنجي! بل إن إحداهن سألتني بعدما ضاجعت السفرجي الزنجي وحملت من دون أن يمسّها "البانيو" في حمامي وحملتُ لوساخة الخادمة؟

لم يخطئ حدسي. شاهدتها في مرآة سيارتي. شاهدت زين أو مزين الكذابة تغادر المبنى الذي اختبأتْ في مدخل سلمه قليلاً كما توقعتُ ريثما توهمتْ أنني مضيت وغادرته. قطعت الشارع ودخلت إلى حديقة السبكي بخطى مرتعشة. لا. لم أتجسس عليها بعد ذلك. أدركت أنها سترتمي على أحد المقاعد تحت الشمس لتستجمع قواها ثم تذهب إلى حيث لم تقرر بعد على الأرجح. بعدها أقلعتُ بسيارتي صوب المهاجرين، إلى الساحة المطّلة على دمشق حيث أنا الآن كما يفعل أبناء مدينتي حين يضيق صدرهم وتتلاطم المشاعر في قاعهم مثلي أمواج بحار من الحيرة والذكريات والألم والصمت.. والصمت. فنحن فُطرنا على الصمت حتى

لحظة الانفجار. كدتُ أنفجر وألحق بها إلى جنينة السبكي وأقول لها إنني وضعتُ علمي كله في خدمة إجهاضك دونما أذى لتنجبي ثانية، وأن شجاعتك أسرتني أنا اليتيم الجبان الذي تعرَّض للأذى في طفولته ولم يجرؤ على الشكوى لأبيه). حسناً أعترف: يا لنضارة شبابها وأنا أودع شبابي، وجمالها الذي لا تعيه، وسذاجتها وتوهمها أن بوسع إسوارة من الماس شرائي، ذلك كله أسرني.

يروح د. رهيف جيئةً وذهاباً على رصيف ساحة المهاجرين في سفح قاسيون الخاوي من المباني وتحتها البساتين تنبسط أمام عينيه[1]. **(لقد أيقظتْ تلك البنت التي لعلها زين أحزاني وحسناً فعلت حين تجرأت وأجهضت طفلاً كان سيصير مثلي في طفولتي يقضي عمره بين بيتين ممزقين بين الكراهية والإهانة وحتى التعذيب الجسدي. كانت خالتي، زوجة أبي، تفرح بمناسبة مرضي، فذلك يعطيها فرصة لتعذيبي بذريعة الحرص على صحتي. علاجها الأوحد: الحقنة الشرجية. ولم يكن أبي ليعترض على وصفتها بل يشكرها لرعايتها لي ويمضي إلى عمله مطمئناً. كانت ترفع إناء الماء والصابون ليتدفق المزيج إلى أحشائي وأشعر أن بطني يكاد ينفجر وأكاد أوشك على البكاء، لكنني لا أبكي، فترفعه أكثر قليلاً لكي أصرخ ألماً، وأتوسل إليها.. تتمزّق أحشائي. لكنني كنت أنظر إليها بتحدٍ ولا أبكي. حين أتألم كثيراً أكفُّ عن المكابرة وأصرخ ألماً، لكنني أحرمها من نظرة التوسّل التي تنتظرها مني وأمنحها نظرة الحقد ككل الأيتام أمثالي الذين تعلموا ألا ينتظروا الرحمة ممن يعذّبهم، ويعرفون بحدسهم الطفولي الغامض أن معذّبهم سيزداد رغبة في المزيد من إيلامهم إذا ما توسلوا إليه. إنه لا يريد قتلهم كي يستطيع الإستزادة من متعة تعذيبهم.**

لا شك عندي في أن زين تعرّضت لأمر مشابه، هذا إذا كانت زين الخيال كما أظن، ولعلها تعرَّضت لتعذيب مشابه، فقد كان التعذيب بالحقنة الشرجية شائعاً تلك الأيام بذريعة شفاء الطفل. يكفي رفع أداة التعذيب هذه سنتيمتراً واحداً لإطلاق كهارب الألم البليغ على حافة ثَقْب الأمعاء الغضَّة.

يدور د. المناهلي على الرصيف المطلّ على دمشق من علٍ جيئةً وذهاباً ويتمنى

---

(١) هكذا كانت ساحة المهاجرين في الزمن الذي تدور فيه أحداث الرواية.

لو كانت زين معه ليصطحبها إلى المقهى البدائي في قاسيون لجهة قبة السيّار[1]. . لن يكون بوسعها اليوم صعود الدرجات المحفورة في التراب إلى قمة المقهى، لكن بوسعها شرب فنجانٍ من القهوة على الطاولة الأقرب للمدخل. لا. لن يدعها الآن تشرب حتى فنجان قهوة بل بعض الزهورات والأعشاب كالبابونج والنعناع و. . . ونسيت أن أقول لها ذلك. لكنني لم أنسَ إعطاءها وصفة طبية. ماذا يحدث لي؟ هل بدأت أقع في غرامها تلك الصبية وأنا في سن والدها؟ أم أنني مغرم بشجاعتها على الإقدام بمفردها على الإجهاض بالرغم من صغر سنها وهو ما كنتُ أتمنى لو قامت به أمي؟ ألم أتزوج من الفرنسية الممرضة لأنني وجدتها عاقر؟ حسناً ليست عاقراً تماماً فهي بحاجة إلى عملية جراحية في أنابيب المبيضين لتنجب. لم أقل لها ذلك بسبب أنانيتي فأنا بشر ولست قديساً.

ألست جباناً أمام إنجاب الأولاد لكي لا يمروا بما مررت به؟ ألهذا أرضى بممارسة عمليات الإجهاض مجاناً في أغلب المرات كما حدث اليوم مع زين أو مزين (لا أدري) سواء أقسر الزوج عليها زوجته أم جاءت بملء إرادتها، وأنا معنيّ فقط بألا يعيش طفل في أسرة ممزقة كما حدث لي ويستعمله الجميع أداة حرب عائلية للنكايات ولقهر الشريك الآخر وللتنكيل به اجتماعياً. ما لم أقله لزين هو إني أعدت الإسوارة الماسية إلى يدها وهي ممدة لتصحو من البنج وخلسة عن زوجتي. كم أعجبني أن هذه البنت لم تقل كلمة عن شريكها حتى وهي تهذي، كأنها بكل جوارحها تحمل مسؤولية الغلطة التي أقدمتْ عليها).

شرب د. رهيف فنجان قهوة مُرَّة[2] ثم هبط إلى ساحة المهاجرين من جديد. ترك سيارته مقفلة في تلك الساحة الخاوية من المباني وانحدر في شارع القصر الجمهوري على "خط الترين"[3] وإلى يمينه ڤيلا القصر وبعده ڤيلا آل الإدلبي.

---

(١) مكان أثري يقع على إحدى قمم جبل قاسيون.

(٢) قهوة مُرّة: بدون سكر.

(٣) خط الترين: سكة الترام. وكانت تمتد في زمن الرواية من ساحة المرجة لتمر بطريق الصالحية فالجسر الأبيض والشيخ محيي الدين ومدخل نوري باشا حتى ساحة المهاجرين. . وكان ترين المرجة يتوقف يوم شنق "المجرمين" في الساحة إذ يأتي الناس بكثافة للفرجة. في زمن الرواية، كانت السكة ما تزال آثارها بادية للعيان، لكن "الترين" انقرض كما "العربانة" وهي عربة يجرها حصان.

مشى حتى حي الشيخ محيي الدين فالجسر الأبيض فعرنوس والشعلان فحديقة السبكي (**أعترف. إنني قلق عليها. أبحث عنها. أريد الاطمئنان عليها. ترى أين ذهبت بعد ذلك؟ إلى بيتها الزوجي؟ أين هو؟ إلى بيت أبيها؟**) قرر أن يزور والدها في اليوم التالي بذريعة ما في بيته ليطمئن عليها. ولكن هل هي زين الخيّال التي دُعيت إلى عرسها؟ (**لا.. لستُ عاشقاً لها، ولكنها البنت التي كنت أتمنى أن يرزقني الله بها وسأدعمها وبالأحرى هي البنت التي لا أحب أن أُرزق بها لكنها تعجبني!**

أحبّها؟ نعم أحبّها كما لو كانت إبنتي التي لحسن حظي لم أُرزق بها. إنها شجاعة ومتحدّية وتتخذ القرارات بمفردها وتنفّذها رغم أخطائها الكثيرة وعلى رأسها عجزها عن مقاومة الكذب وعدم محاولتها "الشطارة" في ذلك الحقل العسير. أحبّها كابنتي؟ أظن أنني كذّاب كبير أنا أيضاً لكنني ماهر في فن الكذب بعدما تمرستُ فيه طويلاً.. ولن تدري مزين كما قد تكون ادعت أو زين ولن يدري أحد أنني على الأرجح أحبّها.. أحبّها؟ ها هو الفنان في قاعي يثرثر.. كيف أقدر على حب مخلوقة لستُ واثقاً حتى من اسمها؟ يا لي من مجنون كبير عليه كبح جماح ريشة قلبه!! كيف أُحبّ صبية صغيرة كان يمكن لها أن تكون إبنتي؟ لا، ذلك لا يُعقل.. ولكن من قال إن الحب هو المعقول؟ إنه اللامعقول بامتياز كما يبدو لي هذه اللحظة.. ثم إن مشاعري نحوها شديدة الالتباس. ثم إن زين أو مزين (لا فرق!) أيقظت أحزان قلبي كلها وشريط العمر يركض أمام قلبي كأنها أجضهت نسياني).

حين وصل في طريق عودته إلى سيارته ماشياً، حين وصل إلى منطقة عرنوس خاف أن تلمحه زوجته وهي تغادر البيت إلى المركز الثقافي الفرنسي فمدارس الأطفال حيث تعمل كمتطوعة لتعليم الفرنسية للصغار. مع ذلك فقد حام حول حديقة السبكي ليرى ما الذي فعلته مزين.. أو زين بنفسها. لا يريد أن يجرح شعور زوجته الطيبة التي رضيت بمرافقته إلى بلد تجهله وتحاول في كل لحظة التكيف معه وهي لا تدري شيئاً عن عذاباته التي تطارده (**أبي الموظف الذي يقهره مرؤوسه كما علمت فيما بعد كان يضربني ككبش فداء ويفرُّغ حقده على جسدي الهش، وهو يقول لي وسوطه يلسع ظهري: لماذا لم تمت؟ لقد بذلتْ أمك كل ما بوسعها لإجهاضك. لماذا ظللت حياً؟ إنك تزعج المسكينة، خالتك "مرت أبوك".. كنت مصّراً على أن أحيا رغم خيبتي كلما هربتُ إلى أمي ووجدتها تنظر إليّ بعدوانية**

واستنكار هي أيضاً وتدلل طفلها من زوجها الجديد كأنها تقول لي: لماذا ظللت حياً؟ لن أنسى إنني عملت أجيراً في دكان البقال ثم الحداد (المجلخاتي) وكنت أتأمله وهو يسنّ السكاكين للناس وأنا أسنّ سكاكين قلبي وأدرس ليلاً سراً لأتابع دراسة الشهادة المتوسطة، ثم عملتُ مدَّرساً للأطفال وصار بوسعي أن أجد مكاناً أُعدّ فيه نفسي لنيل شهادة البكالوريا العلمية الحرة.. ووالدي الذي لا يحاورني حتى حين صُرتُ مراهقاً ولا ينظر إلى وجهي حين أكلمه بل وينتظر سماع صوت زر كهرباء الحمام حين أدخل إليه ليمضي صوب المطبخ ويتحاشى الالتقاء بي؛ أبي هذا كان يسخر من إقبالي على القراءة ولا يدري أنني أقوم بالدراسة.. وحين كان يزجرني لأنه ينفق الكثير على الكهرباء التي أستهلكها ليلاً في القراءة ويسألني ماذا أقرأ؟ كنتُ أقول: القرآن، كتاب الله.. وأحتمي بذلك إذ من يجرؤ على زجر ولده لأنه يقرأ القرآن ليلاً؟

وحين صرتُ طالباً في "كلية الطب" وعلم أبي بذلك غضب وطلب مني أن أترك هراء الدراسة وأعينه مادياً في مهنة أعتاش منها. قلت له إن له مهنة أحترمها لكنني أريد أن أصير طبيباً. صرخ: حيوان مثلك يصير طبيباً! قلت ولم يفهم: أجل.. فأنا كأي حيوان أدافع عن بقائي.. وأضفت بهدوء بارد: آسف يا أبي.. لا أستطيع ممارسة مهنتك. قال: أنت تعيش في البيت ولا تدفع إيجاراً. وفي اليوم التالي استأجرتُ غرفة في بيت أرمل عجوز بلا أولاد شاء لي حسن طالعي أن يدلني عليه زميل جامعي.. لم أقل شيئاً. فقد اختفيت من حياتهم كما كان عليَّ أن أفعل لتحقيق أمنياتهم. والمفجع أنني بعد تخرجي وجدت أبي يبحث عني عاتباً وخالتي زوجته تمنّني بأنها تعبت في تربيتي(!) بل وتخترع الحكايا عن عنايتها بصحتي المعتلة في طفولتي وكانت هي المرض.

هل غفرت لهما؟ لا أدري. الغفران كلمة زئبقية.. رجراجة.. ظلالية، تصفو تارة تقوم فيها برتق جراح الألم ثم تأتي ظلال النقمة تارة أخرى لتفك قطب الجراح. لكنني رحلت بمنحة جامعية لمتابعة تخصصي في الطب النسائي في فرنسا وكان هاجسي دائماً إجهاض ية امرأة ستأتي إلى العالم بطفل لا يريده أحد وسيذوق الهوان والآلام ريثما يكبر فلا ينسى ولا يغفر حقاً.

حين التقيت بالممرضة الفرنسية التي صارت زوجتي في باريس لم أقل لها شيئاً عن ذلك كله. نظرة الإعجاب في عينيها ألهبت فرحتي، أنا المُذَّل.. المُهان..

المقهور. . الكادح. ثمة من تنظر إلى أصابعي وهي تحمل المشرط بإعجاب وتقدير. . انهرتُ أمام إعجابها لكنني عُدتُ إلى دمشق حين تخرجتُ ورافقتني كزوجة. . ليس بوسع أحد ذاق ماء "نبع الفيجة" أن يمتلك مناعة ضد الحنين. . . ذكريات التسكع بين باب الجابية وباب توما والصالحية والجسر الأبيض والشيخ محيي الدين والقصّاع والجامع الأموي وسوق الحميدية والمرجة وشارع بغداد والقنوات والشاغور ومأذنة الشحم وقبر عاتكة و. . و. . و. . . كلها لقاح ضد النسيان. . عُدتُ إلى دمشق لا للانتقام ممّن أذلوني وصاروا اليوم بحاجة إليَّ، بل عُدتُ لأن حبي لدمشق يذلّني. . تبدلت دمشق كثيراً خلال غيبتي كما تبدل كل من عرفت، لكنني كُنتُ أعرف أن ذلك يحدث باستمرار والمدن فيما يبدو مرآة لأرواح ساكنيها. . كلهم توهم أنني نسيتُ القهر الذي تعرّضتُ له في طفولتي ومراهقتي بل وصاروا حين يزورونني في العيادة طلباً للعلاج يخترعون الحكايا الطريفة التي يفترض أنني عشتها وإياهم حين كنت طفلاً، ولا أذكر حقاً عنهم من طفولتي غير القهر والإذلال. . حتى التعذيب الجسدي. لا أدري من أين أستمدّ القدرة على الصمت بابتسامة غبيّة، بل وأكثر غباءً من ابتسامة الموناليزا في "متحف اللوفر" الباريسي. ولعلي أستمد لامبالاتي الهادئة المقهورة المسننة من رسمي للوحة الطفل الذي قُمتُ بإجهاضه. . أتخيله انطلاقاً من ملامح والديه، والسيمياء النفسية في وجوه الروح لديهما، والعذاب الذي كان يمكن أن ينتظره، وأرسمه، وصار لديّ ما يكفي ويزيد من رسوم الأطفال التي سيظن الناس إنها للّذين قمت بتوليدهم، ولن يعرفوا أنهم مَنْ قُمتُ بقتلهم قتل الرحمة. . يتوهمون أنني أفعل ذلك إكراماً للمال، وأنا لا أبوح بالحقيقة لأحد!

الليلة، سأعود إلى بيتي وأقبل جبين زوجتي التي لا تعرف حقاً شيئاً عن أعماقي، ثم إلى عيادتي التي أحولها ليلاً إلى مرسمي، حيث سأرسم طفل زين الذي قتلتهُ قتل الرأفة. . سيكون جميلاً وحزيناً كوجه مزين أو زين لا فرق!! تلك الصبيّة لا تدري كم حرّكتْ في قلبي من الأحزان، وسحرني أنها المرّة الأولى التي تأتني فيها "طفلة" لتُجهض بمفردها دونما سند. . لقد هزّتني وحرّكت المياه الراكدة المستنقعية في بحيرات روحي الداكنة! كم هي فاشلة في فن الكذب! أدخل إلى حديقة السبكي بحثاً عنها ولا أجدها. ترى أين هي الآن؟).

* * *

أنزل الدكتور رهيف المناهلي زين الخيّال أمام باب المبنى الذي حدّدته وهو المبنى الذي كانت تقيم فيه صديقتها نائلة التي تمرّ بها كل يوم لتمشيا معاً في الدرب إلى المدرسة في الجسر الأبيض، وكانتا في الصف الثانوي الثاني. صديقتها نائلة لم تعد هنا وتبدّل البيت وسكانه وصار برسم البيع لكن زين ارتمت على السلم أمام البيت العتيق لترتاح قليلاً ريثما يغيب الطبيب بسيارته ويصير بوسع قلبها طيَّ صفحة الجانب العملي من الإجهاض. غمرت عُنقها بقطرات من عطر الياسيمن من زجاجة كريستال باريسية كانت ورثتها من أمها. فالياسيمن يقوّيها كأنه رائحة أرواح أجدادها! **(إنها فقط البداية. عليَّ الآن مواجهة الأدهى، أن أقول لزوجي الليلة.. ليلة عيد ميلادي التي يستعدّ للاحتفال بها كما تقضي الأصول والتقاليد في أسرته البورجوازية... عليّ أن أقول له: إن كل ما بيننا انتهى)**. خافت أن يخرج أحد أصحاب المبنى ويجدها جالسة على السلم ويسألها ماذا تريد. إنها منهكة وعاجزة عن اختراع سيناريو قصصي لتبرير ذلك.

تغادر المبنى ويزداد شعورها بالإنهاك وتقرر أن ترتاح قليلاً على المقعد القريب من باب مدخل "جنينة السبكي". للمرة الأولى تجد نفسها عاجزة عن المشي، ثم أنها تريد أن تجلس قليلاً ريثما تقرر الخطوة التالية: كيف ستستطيع الوصول إلى بيتها؟ وإلى أي بيت ستذهب وهي بلا بيت؟ بيت لزوجها وآخر لوالدها! وهل ستقوى على أن تقول لزوجها ما اعتزمتْ عليه، أم أنها ستقوم بتأجيل ذلك إلى صباح الغد؟ أهذه سيارة الدكتور المناهلي المتوقفة في آخر الشارع أم أنها واهمة والسيارات تتشابه؟ وصلت إلى المقعد الأخضر.. ارتمت عليه وندمت لأنها لم تحمل شالها لتلفه حول عنقها. الشمس الخريفية الدمشقية دافئة، بل وحارة، ولكنها ترتجف. شعرتْ ببعض الذعر: قد تُصاب بالنزيف وبالزكام معاً.

أكدت لنفسها أنها صخرة في قاسيون لا امرأة، فقررت الانتقال إلى مقعد آخر غير مقعد المدخل فقد تمرّ إحدى عماتها وتراها. المقاعد كلها نصف مشغولة. هذا مشرد متمدد على مقعد في غفوة نصف بائسة.. هذا مقعد شاغر ترتمي عليه.. هذا رجل معمّم على المقعد مقابلها وفي يده سبحة وقد ازدادت أصابعه سرعة على حبات السبحة حين شاهدها تجلس مقابله كأنها شرّ مستطير. ارتمت على المقعد وأغمضت زين عينيها وراحت في ما يُشبه الغيبوبة.

أيقظها صراخ أطفال.. هذه سيّدة مع ثلاثة أولاد يزعقون بالدور. عاجزة عن تبديل المقعد ومنهكة للغاية وتخطط للمرور بصيدلية كدورة لشراء الأدوية التي زوّدها الدكتور بـ"الروشيته" الخاصّة بها. شرح لها الطبيب شيئاً ولم تستوعب كلامه. فقررتْ أن تقرأ الوصفة الطبية فيما بعد بهدوء وتستفسر من الصيدلي ما غفلت عنه..

كانت منهكة وغارقة في هذا النمط من أفكار قلقة.. متوجعة وعلى حافة اليأس حين سمعت صوتاً تسيل منه رجولة حيّة يسألها: هل تسمحين لي بالجلوس على الطرف الآخر من المقعد؟ بقية المقاعد كلها مشغولة كما ترين.

قالت زين باختزال من دون النظر إلى وجهه: تفضّل وأزاحت حقيبة يدها وانزوت في أحد طرفَيْ المقعد وهي تتساءل من جديد كيف ستعود إلى بيتها وهي شبه عاجزة عن المشي. وهل ستذهب إلى ما يُدعى "بيتها" الزوجي في حيّ الرئيس أم إلى ما يُدعى أيضاً "بيتها" السابق عند والدها في ساحة المدفع؟ أدركت من جديد أنها بلا بيت يخصّها وحدها، بيت تقول عنه إنه بيتها حقاً وعاجزة عن اتخاذ قرار كالذهاب إلى فندق. ضايقها أن لا يكون لها وكر (**كهفٌ في تلك الغابة لي وحدي. أستطيع الشجار فيه مع نفسي والصراخ على نفسي وعلى المرأة التي تقطنني والتي بدأت تكتب عبر أصابعي وتُملي إرادتها عليّ**).

تشعر زين برغبة جارفة في الذهاب الآن إلى البيت العتيق في زقاق الياسمين حيث تقول لهم حقيقة ما فعلت ويحنّون عليها. أدركت أنها ماهرة جداً في حقل الأوهام. قال لها غريب المقعد: أنا غزوان العائد. وأنتِ؟

نظرت إليه للمرة الأولى، إلى عينين تسيلان عسلاً وذقن لها غمّازة لعلّ أمه كانت تربط فوقها حبة حمص في طفولته لتصير جميلة على هذا النحو كما كانت جدّتها تحكي عن أصل الغمازة في الذقن. نسيت زين أوجاعها ونهارها الشرس للحظات وهي تحدّق في وجه غزوان المكلل بشعر كثّ. لفّت حولها قميصها كمن يحمي نفسه من غزو ما.. نهض الغريب بقامة معتدلة تميل إلى النحول وخلع "جاكيت" بزّته ومن دون أن يستشيرها وضعه على كتفيها ولفّه حول عنقها بكثير من الودّ قائلاً ببساطة: كم أنت جميلة وشاحبة ومتعبة.. وترتجفين برداً في الدفء! لم تجب. ولم ترفض. كانت قد بدأت حقاً ترتجف برداً، رغم الدفء في الجو، وتشعر بأنها تنزلق إلى كهف الإغماء.. قال بصوت خُيل إليها أنها ألفته منذ ألف

عام: أنا غزوان العائد. أكرر إسمي ولن أسمح بأن تنجحي يوماً في نسيانه. أريد فقط أن أقول لك إنني أجدك باهرة الجمال بوجهك الخالي من المساحيق، المتعب، المنهك. هل أنتِ مثلي لاجئة فلسطينية؟ أجابت بهدوء وأدهشها صوتها الثابت كأنما أستمد قوة من حضوره: أنا لاجئة محلية من اللامكان واللازمان. عرفتُ أنك فلسطيني من لهجتك، فابن عمتي فلسطيني ولاجئ أيضاً. أهلاً بك.

قال بخفة ظل: لا تقلقي. لن أقيم عندكم أو عند جيرانكم. لأسرتي بيت هنا وأنا أعمل في الكويت أستاذاً لكنني في إجازة لأنني أيضاً طالب في جامعة دمشق..

ابتسمتْ. للمرة الأولى في يومها التعس المتوتر هذا تبتسم. حاولتْ أن تقول له إنها أيضاً طالبة جامعية وربما كانا في صف واحد، لكنها لم تجد صوتها. كانت مشعثة الأعصاب، تطفو وتغرق.

قال لها: لستِ ثرثارة. عيناك تتكلّمان عنك. أسمعهما. إن لهما موسيقى وتلونان السماء بقوس قزح ضوئي. صمت وظلّت صامتة.

تأملا أوراق الخريف الملونة وهي تتساقط عن الشجرة. تذكرت زين أنها ربما كانت تعرف شيئاً عن غزوان من قبل فقد قرأت لهذا الاسم في الصحف عدة قصص قصيرة.. تعرفه كأنهما عاشا حياة سابقة معاً.. **(لا.. لن أدع نفسي أغرق في التفسيرات الغرائبية. لقد شاهدتُ صورته في مجلة "الناقد". لا ليس هو. بلى إنه هو. عيناه. غمازته. وجهه الوسيم المحبب تقول لها كاتبة عاقلة تقطنها: ما زلتِ تهذين وآثار البنج لما تغادرك بعد. هدوءاً أيتها المرأة)**..

سألها غزوان فجأة وبجدّية بعدما حدّق في وجهها طويلاً: هل ترضين بالزواج مني؟ هل ترضين بعقد قراننا اليوم إذا كُنتِ بلغت الثامنة عشرة من عمرك؟

لم تتمالك زين نفسها. انفجرت نصف ضاحكة رغم تعبها وأجابت: لكنك لمّ تسألني بعد عن إسمي.. وما إذا كنتُ متزوجة أم لا.. حاملاً أم لا مثلاً.. همست لنفسها: «أفي كل يوم هوى أول؟»، وكاد حضوره ينسيها أوجاعها وشبكتها العنكبوتية التي تتخبط فيها.

قال لها: أيتها الصبيّة التي لا أعرف إسمها.. أحبك...

هكذا دفقة جنون فلسطينية.. مجنون جميل.. عرفت أنها لن تنسها يوماً.. شاب وسيم يسألها بصدق هل تريد الزواج منه بعد النظرة الأولى. لا. لن تدع

الرومانسيات تجرفها ولا الحب من النظرة الأولى. لا. لقد جربت ذلك وتعاني اليوم من آثارها.

كادت تطير لولا ضربة في بطنها بسكين المغص. عادت موجة الألم والتعب تغمرها وتجرها إلى الغرق. لا تدري حقاً هل شاهدت صورة ذلك الوجه في مجلة "الناقد" أم لا؟ وهل سمعت بهذا الاسم من قبل أم لا؟. لا شيء صلباً في أفكارها.. إنها زئبقية.. هلامية.. رجراجة. إنها متعبة ولا تريد غير إغلاق عينيها والنوم.. وعليها الذهاب للتمدد في سرير ما غير معدني وبلا طبيب في ثوبه الأبيض إلى جانبها.

قالت لغزوان: أنا مضطرة للذهاب..

- إلى أين تذهبين بدوني؟ هل تتوهمين أن بوسعك الهرب مني أو نسياني يوماً؟ لقد قضي الأمر: إنني أحبك.

سحرها غزوان، لكن جسدها ينسحب من رغباتها. إنها فقط منهكة مستنزفة ممزّقة. أجابت بالصوت المرتجف الذي تكره أن تسمعه حين تتحدث به: إني ذاهبة إلى الصيدلية لشراء دواء، وتابعت بلا صوت: فإلى البيت للنوم فهو الأقرب إلى الصيدلية. لم يقل شيئاً، لكنها قالت لنفسها إن الذهاب إلى بيت والدي يتطلب الشرح والتفسير وأنا الآن عاجزة جسدياً عن ذلك. ليلة أخرى أخيرة في سرير الزوجية وغداً صباحاً أقول لزوجي: وداعاً. تقول الكاتبة التي تقطنها ويزداد صوتها ارتفاعاً يوماً بعد آخر إنها ليلتك الأخيرة في بيت زوجك. أنتِ بحاجة إلى الراحة قبل القفزة الأخيرة.

سألها غزوان بخفة ظلّ جادة: الآن وقد أعلنتُ عن رغبتي بالزواج منك، هل تسمحين لي بمعرفة إسمك أيتها الصبية الغامضة؟

أجابت زين: إنني مصابة بـ"الجريب" وعليَّ أن أذهب...

قال جادّاً: سأوصلك إلى حيث تشائين. معي سيارة صديقي حتى العاشرة ليلاً.

قالت: إلى صيدلية كدورة.. أريد شراء علبة "أسبرو" ثم الذهاب إلى البيت.

قال لها: حسناً يا "فتاة حديقة السبكي".

قالت: دعنا نمضي. تحمّس غزوان لذلك. يريد أن يعرف أين تقيم. لا يريد أن تضيع منه. ثمة شيء يجهله شدَّه إليها.

أعادت إليه معطفه وكاد يطلب منها الاحتفاظ به ولكنه خاف أن تفعل وهو لا يملك غيره!...

لا يريدها أن تمضي وهي تتأهب للوقوف. يحب عادةً المرأة المعجبة به التي قرأت له وتعرف من هو كأديب (**هذه البنت تبدو لامبالية كأنها تعيش في كوكب آخر ولكنها تبدو حقاً مريضة ومصابة بالجريب أو بما هو أدهى**). أرادت زين أن تقول له إنها متزوجة وأجهضت قبل ساعات ومنهكة حتى العياء.. فلم تجد صوتها. انطلق بها بالسيارة، وتمنّى أن تظل هكذا إلى جانبه حتى موته في سيارة لا تتوقف ولا تتعطل ولا تنفجر. لكنهما وصلا إلى حيث توجه.

توقف أمام باب الصيدلية.. هبطت زين ببطء شديد لا يتناسب مع صباها. قدّر أنها مريضة حقاً. مدت له يدها مصافحةً. فتلقاها بيده وهو يقول: سأنتظرك.

ضمَّ يدها وأدرك كيف يمكن للمصافحة أن تكون عناقاً حاراً ولم يفلتها. لا يدري أي جنون انتابه وجعله يشعر برغبة جارفة في البقاء معها من دون أن يفترق عنها لحظة واحدة حتى الموت.

سحبت زين يدها منه باسمة وقالت كاذبة: سأعود بعد شراء "الأسبرو".

لا يدري لماذا لم يصدّقها وشعر بأنها تكذب بلا مهارة تذكّر. ولكنه توهم أنه سيراها حين تغادر الصيدلية. ما لم يكن غزوان يعرفه هو أن للصيدلية باباً آخر خلفياً ينفتح على الزقاق فالشارع حيث تقيم. وأنها بعد شراء الدواء غادرت الصيدلية من الباب الخلفي وصارت في بيتها وهو ما برح جالساً في السيارة المتوقفة في الزحام أمام باب الصيدلية وشرطي السير ينأكده.

ارتمت زين على السرير منهكة بعد يوم طويل.. طويل. فرحت حين لم تجد زوجها في البيت. وفي ظلمة الغرفة التي أرخت ستائرها شاهدتْ طفلاً وليداً عارياً يعوم في فضاء الغرفة، وشعرتْ بحزن ملايين التعساء في كوكب الأرض كله لسبب أو لآخر. (**تتطاير في فضاء الغرفة المقصّات المعدنية والمشارط والمسابر الدقيقة والإبر المرعبة.. تتطاير أمام وجهي وداخل رأسي، داخل عينيّ، ويعوم بينها جسد وليد لطفلة أو لطفل، وأمسك رأسي بيديّ وأنا أهمس: إنني أختنق!! تمنيت أن**

أصرخ، لكنني خفت أن يكون زوجي قد وصل وأن يدخل عليّ مستطلعاً. ما أكاد أتذكره حتى يختفي كل شيء وأنا أخرج إلى الشرفة وأحاول أن أتنفّس.. الدرب بين حنجرتي ورئتي صارت مقطوعة تنهار فيها الأحجار والأتربة كما لو في زلزال.. للمرة الأولى في حياتي كدت ألجأ إلى الجزيرة الصغيرة البيضاء: القرص المنوِّم الذي زوّدني به الطبيب قبل أن أغادر سيارته قائلاً: قد تجدين نفسك ليلاً بحاجة إلى ذلك. يا له من إنسان رقيق لا صلة له بالشائعات التي تُروَّج عنه).

جاءها وجه غزوان المنعش وهو يقول لها في الطريق إلى الصيدلية وقد استشف "مرضها" وحزنها: الحياة أمامك.. الأيام لك.. لا تتقوقعي داخل صدفتك.. أثقبيها وحلّقي كفراشة.. طيري معي.. إنني أحبك.. أحبك..

ابتلعت زين القرص السحري، ثم غرقت في نوم عميق يُشبه الغيبوبة. أيقظها صوت زوجها قائلاً: هيا انهضي أيتها الكسول.. سنحتفل بعيد ميلادك الليلة.. هل نسيت؟ ولماذا هربتِ في الصباح المبكر وأنا نائم وقبل أن أراك؟ لم تجب. **(كأنني في قاع بحر والأصوات تأتي وتروح كالأمواج على الشاطئ المقفر).**

تابع وصوته يأتي ويغيب: كيف تنامين الآن؟ لقد حجزتُ طاولتك المفضّلة للعشاء في شرفة الطابق الثاني من مطعم "كاندلز". سنحتفل بعيد ميلادك الثامن عشر بأُبهة، وهذه هديتك: "مطيف من الألماظ"[1].

همستْ: أنا مريضة بالإنفلونزا وتناولتُ الدواء وهذا الدواء منوِّم.

سألها بحدّة: أين كُنت طوال النهار؟ لم أجدك في الجامعة ولا في مقرّ عملك في المكتبة..

قالت بصوت محتضر: كُنتُ عند الطبيب لأنني مُصابة بالإنفلونزا المعدية فلا تقترب مني. سنتحدث غداً صباحاً فالدواء خدّرني الآن.. إذهبْ واسهرْ مع الأصحاب أو الأهل، فأنا غرقى في قاع البئر.

حاولتْ ألا تنام تلك الليلة في غرفة "الزوجية". قررت أن تزعم أنها لا تريد إصابتهُ بعدوى الإنفلوانزا وستنام في غرفة المكتبة. تشعر بالأنس فيها حيث كانت تستمع إلى موسيقى "طائر النار" لسترافنسكي وترقص وحدها على ألحانها

---

(١) قلادة ماسية ثمينة. وقد سبقت الإشارة إلى مصدر تسميتها هذه.

المجنونة التي تحاكي اشتعالها وتدرس بقية الوقت، لكنها عجزت عن الحركة للتنفيذ.

نام أخيراً وتسمع صوت شخيره إلى جانبها بعدما يئس من محاولة استجلابها **(ها أنا أخيراً حيّة بعد نهار طويل شاق.. أحاول عبثاً إيقاف شريط يومي الصعب الذي يركض على شاشة داخل رأسي كفيلم سينمائي رديء وأنا أغيب وأحضر، لكنني سعيدة لأنني استطعت العودة للنوم في سرير بدلاً من كفن.**

تخترقني صورة غزوان في "جنينة"[1] السبكي.. حلمت دائماً بالسفر إلى جنينة "هايدبارك" في لندن و"سنترال بارك" بنيويورك وحديقة "ساعة الأزهار" في جنيف و.. و.. ولم يخطر ببالي يوماً أن "جنينة السبكي" ستظل مدموغة كوشم من نار على قلبي لأنني التقيتُ بغزوان وأنا مهيضة الأعصاب، بومة مكسورة الجانح.، ولو شاهدتني أمي الأديبة السرّية التي لم أعرفها، لحنّت وحدها على جناحي وجرحي وحزني الكهل.. وأنا كما تزعم جدتي حياة: بنت صغيرة.. "نص نصيص"[2].

هل أنا هكذا؟ لا أغادر حباً إلا وأصير قابلة للتورط في حب آخر، مثل هائم في الغابات لا يترك حبلاً يتأرجح فيه فوق مستنقع التماسيح والثعابين المائية إلا ليمسك بحبل آخر مشابه... "..أفي كل يوم هوى أول"؟ وكيف يخطر لي التساؤل: هل حب غزوان خطر؟ الخطر هو على صحتي العقلية إذ كيف يتسلل غزوان إلى مرئيات نهاري المشحون بالأوجاع والجنون والمشاعر والنزف ودمّي الذي كان يلطخ ملاءة السرير المعدني وأنا أغادره مستندة على كتف بريجيت، زوجة الطبيب الفرنسية الطيبة، التي لا تدري في أي كهف دمشقي حلّت من المشاعر العدوانية نحوها ويُلقى عليها باللوم في كل خطأ يُرتكب. فهي ليست امرأة فقط، بل وأجنبية.. والناس يتهمونها بأنها السبب في ما يجد الدكتور رهيف نفسه فيه. أفكّر فيها لأنني سألقى مصيرها، وغداً سيرمي الكثيرون على عاتقي بالأحمال لمجرد أنني امرأة "ناشز" لن ترضى يوماً بالعودة إلى بيت الطاعة... وأنا واثقة من أن زوجي سيشهر هذا السلاح

---

(١) **الجنينة**: تسمية الحديقة بالعامية بما فيها الحدائق العامة.

(٢) **نصّ نصيص**: "عقلة الإصبع" باللّهجة الشامية.

لقهري وترويضي واغتصابي كفعل جسدي لعجزه عن اقتحام عقلي وروحي.. أنا صخرة في قاسيون.. إنني أتلاشى في قارة النوم.. أتلاشى).

* * *

حين صحت زين صباح اليوم التالي من نومها تحسّست جسدها عضواً بعد آخر كمن يقرأ أسماء تلاميذه في الصف، فوجئت بأنها لا تشعر بأي ألم بل بالعكس تشعر بالنشاط وقد توقف النزيف تماماً. شكرت في سرها الدكتور رهيف المناهلي الذي يبدو أنه اعتنى بها كما ينبغي. وحين نهضت لغسل وجهها، اكتشفت أن إسوارتها الماسية عادت إلى معصمها وهي التي تعرف أنها أعطتها إلى زوجة الطبيب، فلماذا أعادتها/ أعادها إليها؟ وكيف لم تشعر بذلك طوال ذلك الوقت إلاّ الآن؟ فتساءلت: هل كُنتُ مخدّرة إلى ذلك الحدّ؟

كانت وأكثر من أي لحظة مضت مصمّمة: انتهى كل شيء بينهما وعليها أن تضع نقطة وتقلب الصفحة وتبدأ من أول السطر. تقرر: ذلك مرعب بعض الشيء ففيه الكثير من مواجهة المجهول. تغادر سرير الزوجية للمرة الأخيرة وزوجها ما زال نائماً. شربت قهوتها خلسةً وفي حقيبة صغيرة وضعت دفاترها السرّية التي تكتب فيها قصصها وأشعارها، وفي أخرى حرصت على حمل كتبها المدرسية.

(منذ بدأ زوجي يحدّثني بلطف مصطنع عما سنفعله في عيد ميلادي الثامن عشر، وكان ذلك منذ عشرة أيام، شعرتُ برغبة جارفة في أن أقول له وبالذات بمناسبة عيد ميلادي الثامن عشر إنني لم أعد راغبة في الحياة معه وكل شيء انتهى ولا أريد التكلّم عن ذلك ولا تبريره له أو لنفسي ولا تفسيره. لا عتاب جارحاً ولا مفاوضات. انتهى كل شيء هكذا.. نقطة أول السطر.. دونما حساب للربح والخسارة، فقد كان عليَّ أن أقتل كل ثرثرة داخلية أو زوجية تقليدية إنقاذاً لحياتي.. كان عليَّ أن أمضي.. والتفاصيل الأليمة أكثر من أن تحصى أو تكون موضوعاً لساعات من المشاحنات الرعدية.

ولكنني لم أقل له شيئاً، كما لم أقل له منذ أكثر من أسبوعين إنني حامل.. وعيت فجأة أنني لا أستطيع أن أقول لأحد شيئاً، لا لأبي الحبيب ولا لجدتي الحنون ولا لرفيقاتي. كان عليَّ هذه المرة أن أتخذ قراراً بمفردي أدفع ثمنه وحدي بلا دعم

غير اكتشافي لما كان يدعوه أبي بـ"المحرك الثاني". عليّ أن أكبر وقد فعلتْ).

إن كتبها وأوراقها هي كل ما ستحمله معها من السفينة الغارقة. أما ثيابها ومجوهراتها ذلك كله ستخلفه وراءها. لا تريد شيئاً غير أوراقها. حملت أيضاً كتبها الجامعية التي تدرس فيها والغالية حقاً على قلبها... وفي كل كتاب لحظة حيرة ما، لحظات عشقها لإبداع كتّابها، فهي كتبت بخط يدها انطباعاتها عن الكتاب والمعنى العربي لكلمة خفيت عليها بعد بحث عن ذلك في المعجم.. عِشْرَةٌ حقيقية.. ارتدتْ ثيابها وعلى غير عادتها لم تعتنِ بزينتها ولم تحمل معها "علبة الغندرة"[1]. إنها حائرة، هل توقظه لتقول له إنها لن تعود بعد اليوم أم تنتظر حتى يستيقظ؟ هل تمضي من دون أن تقول شيئاً وليذهب إلى الجحيم التهذيب الشامي الذي تربت عليه؟ تذكرت أنها نسيت دفتراً سرّياً أخفته في المكان التقليدي، تحت الجانب الذي تنام فيه من السرير، فتسلّلت لإحضاره وقرّرت أن تمضي بسرعة ولا تقول الآن شيئاً لزوجها. تعرف أنه قد يلحق بها إلى مكان عملها أو يحاول الاتصال بها هاتفياً للتجسس وستقول له من هناك باختزال إن كل شيء انتهى بينهما دونما عتاب أو حسرات أو شجارات عاطفية. فحين ينتهي حقاً كل شيء من الأفضل أن يهيمن الصمت. كادت زين تحمل معها "مقبرة" أقلامها فقلبها لا يطاوعها على أن ترمي بقلم بعد أن تتعطل ريشته ويفرغ حبره.. إنها "مقبرة" أحبّ الأصدقاء إليها. تتسلل بهدوء "بومة" متحفّزة إلى غرفة النوم لاستخراج الدفتر. تجد الفراش أثقل من المعتاد **(أم أنني ما زلتُ متعبة إثر ما جرى لي البارحة؟ الوقت الآن لا يسمح لي بالتفكير بالبارحة. عليَّ أن أواجه هذا النهار الذي قد يصير عاصفاً أيضاً حين سأقول له ما عزمتُ عليه: الفراق، وبالأحرى الاعتراف بفراقٍ بدأت شقوقه تتضح منذ الأيام الأولى للزواج).**

ما كادت زين تسحب دفترها من تحت الفراش حتى نهض زوجها وضغط على زر النور وحدّق فيها بعينين نصف نائمتين متثائباً سائلاً: كم الساعة؟ إلى أين أنت ذاهبة بمرضك؟

قالت بهدوء بارد أدهشها أنه صوتها حقاً وقد اتحد بصوت الكاتبة التي تقطنها

---

(١) علبة الغندرة: علبة مساحيق التبرُّج والزينة باللّهجة الشامية.

وتوسوس لها أن تكتب وتكتب وتتمرد: أنا ذاهبة إلى عملي لكنني لن أعود مساءً إلى هنا. لقد انتهى ما كان بيننا وأريد الطلاق...

هربت من الغرفة قبل أن تسمع صراخه وشتائمه. وحملت حقيبتها وهي تكرر لنفسها (**أنا صخرة في قاسيون. لستُ خائفة. لا لستُ خائفة. أعلن مشيئتي: لن يخيفيني أحد بعد الآن. أنا صخرة في قاسيون.. صخرة.. لا ترتجف لا تدمع**) لكنه لحق بها إلى الباب وصرخ بها: حسناً. لا تريدين العودة فليكن. عليك بالانتظار ريثما أرتدي ثيابي وأذهب لأسلمك إلى والدك وأقفل الباب بالمفتاح من الداخل ولم تحاول فتحه بمفتاحها كي لا ينقض عليها بعنف، فهو أكثر قوة منها بجثته الضخمة.

جلست صامتة في الغرفة المجاورة لكي تتظاهر بأنها لا تسمع صوته وهو يرغي ويزيد ريثما ارتدى ثيابه وهو يرتجف جيئةً وذهاباً حيث جلست في المدخل بانتظاره. لم تجب على شيء مما قاله في السيارة وهو يقودها كالمجنون كأنه راغب في دهس كل عابر.

لم تجب وهما يصعدان إلى مكتب والدها المحامي الكبير. ثم سمعت صوته بوضوح وهو يقول لوالدها: جئتُ لأسلمك إبنتك. انفجرت كلمة "أسلمك" من جديد داخل رأسها! (**يُسلمني كما لو أني بضاعة كاسدة يردها للبائع!**).

أجابه أمجد الخيّال: تعيدها إليَّ "ليمونة معصورة"!.. وأيضاً انفجرت الكلمة داخل رأس زين كقنبلة. (**ليمونة معصورة؟ نعم. فقدتُ الكثير من وزني وأجهضتُ بالأمس لكنني إنسانة ولست ليمونة تُعصر مرة واحدة. أحدهما يريد تسليمي للآخر كبضاعة والآخر يجد أن البضاعة لم تعد صالحة للاستعمال**)..

شعرتْ بالذل وبالغضب حتى الصمت، وكما صار يحدث لها دائماً حين يحتلّها الجنون ويتعالى صوت المرأة الأخرى في قاعها لبثت صامتة، مجروحة مهانة مُذَلّة. وقال الصوت في أعماقها الذي تعرف أنه صوتها (**لا. لن يدوم ذلك. لن تقبلي بدوامه. ستتمردين عليه. لا تدمعي. تذكري أنك صخرة في قاسيون**).

ظلّت زين صامتة ولم تعترض. جلست على مقعد ملاصق لباب الخروج (**أكره الشجار. أكره العنف المبطّن بلغة تقليدية. ولذا يدهش من أرفضهم لأنني أقوم بذلك فجأة بهدوء بارد كحدّ شفرة، وأقتلهم في قلبي بكل أناقة صامتة وبلا سفك دمّ.. ولكن بإتقان. وقد مات ذلك الزوج في حياتي وانتهى الأمر وبقي تسطير اسمه في**

عمود الوفيات على صفحة قلبي. لم نتشاجر مرة واحدة، فقد اكتشفت أن الحوار معه متعذر.. و"فالج لا تعالج"[1]. حاولت قبل ذلك استدراجه إلى حوار وفشلت. نعم فشلت. انكسر شيء في أعماقي، ولكنني نهضت وأنا أقنع نفسي ككل خائب مثلي إنها كانت تجربة تعلمت منها وبقية تلك الثرثرة المألوفة لتعزية الذات المقهورة الباكية. أنا مهزومة وأتماسك، مُذَلَهْ مهانة.. إذا كان هذا هو الحب أقسم ألا أدع الحب يذلّني بعد اليوم.. لن أرضى يوماً بإذلالي.. أرفض ذلك).

تركت زين والدها وزوجها يتشاحنان حول "الليمونة المعصورة" أي عنها هي وغادرت الغرفة. ذهبت إلى بيت والدها في ساحة المدفع، إلى جدتها الحاجة حياة، الحضن الدافئ الوحيد الذي عرفته.

جدتها حدست حين نظرت إليها وحقيبتها في يدها بأن أمراً جللاً حدث لها.

قالت زين: لقد هجرته. انتهى الأمر. أريد الطلاق. وسأعود إلى هذا البيت.

قالت جدتها: البيت بيت "أبوكي" وبيتك. ثم إن أحداً لم يحب وسيم في أي يوم. لم يناسب أحدكما الآخر. والدك كان واثقاً من ذلك ولكن حبه لك جعله يرضى بما ارتضيته لنفسك.

ردّت: أنتهى ذلك يا جدّتي.. سأروي لك ما حدث لي...

قالت لها جدتها: لا تقولي لي شيئاً. فقد أضعف وأثرثر حول ذلك. وأشارت إلى موضع القلب قائلة: «هون حفرنا وهون طمرنا»[2] لا تقولي لأي مخلوق سرّك، حتى لي. حذار من الشكوى لأحد.. «الشكوى لله وحده».. «خلّيه بالقلب يجرح وما يطلع لبره ويفضح».

ارتاحت زين لذلك وشعرت أنها تحررتْ من واجب ثقيل. لقد ألفتْ منذ طفولتها مواجهة أحزانها وكوارثها بمفردها.. منذ طفولتها تعلّمتْ السكوت على آلامها، بسبب الكبرياء غالباً ونكاية بمن يحاول قمعها من العمّات والخالات ربما لتتوسل وتبكي وتنوح وبالتالي تضعف أمامهن **(هل حدث ذلك حقاً؟ أم أنها ذاكرة وهمية)**. لا تدري غير أن موت أمها وهي طفلة جَرَحَها، ولكنها ما زالت تشك

---

(١) أمر ميئوس منه.

(٢) «هون حفرنا وهو طمرنا»: تعبير شامي يمجّد الكتمان، ومعناه الحرفي حفرنا وطمرنا السّر.

بصدق رغبتها في الشفاء من ذلك. الظلال كثيرة في زوايا ذكرياتها. إنها تُفضّل التركيز على المستقبل بدلاً من النواح على ما مضى. تتذكّر في ومضات برقٍ انقضاض صواعق الغضب عليها لترويضها وتدجينها.. وروحها تزداد تمرداً على قمع عائلي يرتدي قناع المحبة والحرص على الآخر!!

ذلك الدهر كله من ذكريات الألم لم يستغرق سوى عُشر الثانية في خاطرها، بينما أضافت جدتها الحاجة حياة: سيسألك الكثيرون عن أسباب هجرك لوسيم. البعض يريد الشماتة والبعض الآخر يريد الثرثرة في "الاستقبال"[1]، أو يريد تخويف بناته من سلوك كسلوكك. أياً كان من يسألك لماذا هذا الطلاق بعد ذلك الحب كله، قولي لهم ببساطة: «ما صار نصيب». فالكل يؤمن بالمكتوب والنصيب. وجدت زين جدتها على حقّ في ما قالته **(لا تتعبي نفسك بالدخول في متاهات التفسير لهم ولا حتى لنفسك. ولد الحب. مات الحب. هذا كل شيء، واشفقي على نفسك من الإمعان في رصيد التفاصيل الأليمة وشرحها لمن لا يبالي حقاً بي وبدخيلة قلبي بل بالجانب الفضائحي منه. لقد كان ما كان، ولكنك نجوت وما زلت حيّة ولم يستطع دفعك إلى الانتحار.. فلا تساعديه ضدك)**.

قالت زين لجدتها بصوت حازم: «ما صار نصيب» ولذا أنا هنا. والآن، هل أستطيع الذهاب إلى غرفتي العتيقة لأنام أم تمّ تحويلها إلى شيء آخر؟

أجابتها الحاجة حياة: لم يتبدل شيء. إننا ننظفها باستمرار. فأنا كُنتُ أتوقع عودتك. تعرفين أن الجميع في البيت كان يكرهه.. وأنا أيضاً. تعرف زين أن جدتها كأية شامية عتيقة عريقة هي بنت الكتمان. وفهمت أن جدتها لا تعرف كيف تقول لها: تعلّمي ألا تبوحي إلاّ بالمقدار الذي يُسَّهِل مستقبلك وليس للانتقام من ماضيك.. لزمت زين الصمت، وحين دخلت الغرفة الجارة فتنة وقد اشتمت رائحة "أحداث" من حضور زين في غير موعدها مع حقيبة كبيرة، بادرت بسؤالها بلطف شامي: «ولك شو عم تعملي هون بس يا أهلا وسهلا فيكي»[2]. أجابت زين ببساطة: تركت زوجي وسأطلب الطلاق وها أنا عائدة إلى بيت أبي.

---

(١) لقاء "حريمي" يعقد شهرياً في بيت قريبة أو جارة وهو مثلاً أول خميس في الشهر أو ثاني أربعاء قبل آخره وهكذا.

(٢) ما الذي تفعلينه هنا ولكن أهلاً بك.

بشراهة سألت الجارة فتنة: «ليش يا بعدي»[١].

أجابت زين وهي تنظر إلى عيني جدتها: «ما صار نصيب» وارتاحت لأنها لم تقل للجارة فتنة أو حتى لابنة عمها حين اتصلت بها هاتفياً شيئاً آخر!! أدهشها ذلك الاتصال الهاتفي من إبنة عمها لتزورها في مقر عملها وهي لم تسمع صوتها مرة تطلبها على الهاتف؟ ترى ما الحكاية؟ **(تُرى هل طارت الأخبار بسرعة كهذه حتى وصلت إليّ إبنة عمي وبالتالي إلى الأسرة كلها أم أنها مجرد مصادفة؟ لذا سألتُها: كيف عرفت أني هنا؟ قالت: اتصلتُ بعمي طلباً لرقمك في المكتب فقال إنك اليوم في البيت. سألته: هل هي مريضة؟)**.

رافقتها جدتها إلى الغرفة، ولم تستطع كتم فضولها على الرغم من نصيحتها لها بالصمت المطبق قائلة: ماذا حدث؟ ألن تحنّي إليه؟ تأكدي من قرارك.

قالت زين وقد بدأت تجد في الأمثال الشامية ملاذاً مختزلاً: لا. لن أحنّ. «شو بدي أتذكر منك يا سفرجلة. كل عضة بغصّة»[٢].

* * *

يتنهد وسيم براحة في طريقه للغداء في بيت أهله **(كم أنا سعيد. في حقيقة الأمر، أشعر بمزيج من الراحة والغضب لأنني تخلصت من زوجتي اللعينة، زين الخيّال، وبرغبة منها هي وذلك أرخص مادياً.. هذه المرأة، زين التي اقترفتُ حماقة الزواج منها؛ وأشعر بالغضب فقط لأنها هي التي طلبت الطلاق وتمردت عليّ، وبالراحة لأنني سأنجو دونما خسائر مادية تُذكر. فوالدها المحامي اللعين اختار أن يكون "المتأخر"[٣] الخاص بها مبلغاً "تعجيزياً" يُعادل حوالى ثمن مبنى من ثلاثة طوابق. لم يخطر بباله أنني سأطلبها أولاً إلى بيت العصمة، لـ"تُبريني من حقّها ومستحقها"[٤] لأرضى بالطلاق!**

لا أعتقد أن رجلاً في العالم يرضى بزوجة كهذه. زين مخلوقة لا تُطاق لها وجه

---

(١) لماذا يا من أتمنى لها حياة أطول من عمري.

(٢) تُقال عندما يتذكر المرء شيئاً بألم ومرارة.

(٣) أو "مؤخر الصداق" في الشريعة الإسلامية على مذهب أهل السُنَّة يسدد الزوج حين يطلق زوجته مبلغاً من المال يتفقون عليه وقت عقد القران. والحد الأدنى يكون ٤ دراهم فضة.

(٤) أي تتخلى عن حقوقها المالية التي تمّ اشتراطها وسواها كالنفقة بموجب عقد القران.

رقيق أنثوي عاشق لكنها في حقيقتها صلبة كرجل، بل وتقلّد حياته إذ تنهض في الصباح الباكر وتذهب إلى عملها في المكتبة وإلى الجامعة بدلاً من إعداد الطعام لي ولمن يخطر ببالي استضافته، والذهاب إلى صالونات الحلاقة والاعتناء بنفسها لتبدو في أبهى حلة حين أعود مساءً من عملي في أملاك أبي ومعامله، أو من صحبتي للرفاق هنا وهناك أو من لقائي مع عشيقاتي، وليس من شأنها أن تعرف أين كُنتُ ومع أي رجل أو امرأة، فعليها بالطاعة والقناعة. أمي المسكينة تحب زين رغم أنني شكوت لها من عيوبها وهي التي تعدّ الطعام لنا كل يوم وترسله إليّ أو أحمله بنفسي حين أمرّ بها. زين لا يخطر ببالها أن أول مهماتها أن تقيم في المطبخ وتتعلّم أصول الطبخ من أمي، وتعدّ الولائم لأصحابي إذا شئتُ.. لا.. تتوهم نفسها رجلاً آخر في البيت "يُعادلني". تذهب إلى عملها وتعود متعبة. تغرق في كتبها ولا تبالي ما إذا ذهبت للسهر أم لا.

كم أنا سعيد بإمكانية الطلاق منها ولكن يغيظني أنها تبدو أكثر لهفةً على ذلك وأكثر سعادة مني... ثم إنها قد تأتي بمفردها إلى المحكمة للطلاق ولن تشعر بالرهبة أمام الشيخ القاضي، ولن ترفّ أهدابها حين أقف بالقرب منها كأنني لم أعد موجوداً.. تلك الكتب اللعينة التي تدرسها هي السبب الحقيقي لفراقنا.. تلك الكتب خرَّبت عقلها...

كانت زين تكرر لي وأنا أستمع إليها وأتثاءب وأغفو أحياناً ولا أفهم غالباً ثرثرة تلك المجنونة.. تقول: الكل حولي يسخر من استمتاعي بالاستغراق في القراءة والكتابة باستثناء أبي. في تلك الكتب التي أدرسها كطالبة جامعية في الأدب الغربي إلى جانب ما يغمرني به أبي من كتب تراثية أجد نفسي إلى حد بعيد. بدأت أفهم معنى الإنسانية، والحرية والمساواة والحضارة.. وقبل كل شيء أبعاد وأسرار النفس البشرية.. أجل. في تلك الكتب أجد نفسي وأعيش أكثر الساعات سبراً لروحي وأجد حياتي الحقيقية.. إنها تذكّرني بقيمة الكتابة دونما هلع.. أحبّ ما أفعله من قراءة وكتابة، وكل من يعادي سباحتي في محبرتي هو شخص ينبغي أن ألغيه من حياتي. وكنت أضجر من كلامها الذي لا أفهم معظمه. هراء. وكل ما تقوله مجرد "فصحنة"[1]. وهكذا فأنا زوجها مُلغى من حياتها والقبل المسروقة في البساتين

(١) تفلسف وفذلكة.

المجاورة لبيت أبيها في ساحة المدفع كانت مقبلات جانبية. كانت تثرثر عن الكتب، وأنا أتثاءب. كانت كل ما تريده هو أن تستقل في بيت تنثر فيه كتبها وأوراقها وتتفرغ للدراسة وغيابي وحضوري سيّان عندها. لطالما عُدت مخموراً عند الفجر بعد سهرة حافلة في المقاصف والحانات من دون أن تقول شيئاً، بل تتابع ارتداء ثيابها للذهاب إلى عملها. في البداية، سكنني الشك. لعلّ لها عاشقاً صغيراً مثلها. فطلبت من سائقي وكاتم أسراري التجسس عليها، وبعد شهر قال لي إنها حقاً تذهب إلى عملها وإلى الجامعة وتقضي ساعات مساءً في مكتبة الجامعة حتى إغلاقها. وازددتُ غضباً.. لا. لا يحقّ لامرأة أن تتوهم أنها مساوية لي وأن ذهابها إلى عملها أكثر أهمية من ذهابي إلى لهوي. لا. لستُ سعيداً بطلبها الطلاق لأنني كنتُ أريد أن يتمّ على نحو آخر. كُنتُ أريد أن أذلّها. لا يحقّ لامرأة أن تتصرف كطالب جامعي ذكر، ويقهرني أيضاً أنها لا تبالي بالمال ولا بالتهديد ولا بأي شيء. تريد فقط الخلاص مني. يقهرني أنني فكرت بالتوسل لجدّتها حياة كي تقنعها بالعودة معي إلى البيت. زين لم تعد تبالي، كأنها لا تسمع صوتي. جدتها ستقول لي: ظلّت تصرخ: «بقص بقص»[1] لم تحاول مجرد سؤالها لماذا بعدما "أقامت القيامة"[2] للزواج منك تقيم الآن القيامة للخلاص منك؟ لا. لن يدعها تنغّص عليه فرصته بالتعارف مع الملازم ناهي أبو بصلة، صاحب المنصب الحسّاس الذي سيسّهل إحضار البضاعة الرخيصة من بيروت وبيعها في دمشق بسعر مضاعف).

منذ أسبوع قال له شريكه بديع، وهو "من أهل ذلك"[3]، إنه التقى بالملازم ناهي وتحدثا بعد سهرة صاخبة عن المال ورجال الأعمال الذين يخشون من الاشتراكية ولم ينسوا بعد مرارتهم من قوانين التأميم في الحقبة الناصرية أيام الوحدة. فطمأنه إلى أن الأعمال ستزدهر بفضله وأمثاله، وسيربحون الكثير من الإتجار بكل شيء، ولمّح إلى حصته الكبيرة من كل صفقة.

* * *

(١) تعبير شامي عتيق معناه التهديد بقطع العلاقة نهائياً.
(٢) أي عملت ما لم يُعمل لبلوغ غايتها.
(٣) المثليون جنسياً.

فوجئت زين في مقرّ عملها في مكتبة الجامعة السورية[1] بحضور إبنة عمها فضيلة. إنها المرة الأولى التي ترى فيها مخلوقاً من أسرتها هنا، معترفاً بعملها وساعياً إليها.

قلقت زين لوجه فضيلة المسكون بالاضطراب وسألتها بلا مواربة وبلا لطف شامي معسول، فقد كانت ما تزال تتألم جسدياً ونفسياً إثر إجهاضها: ما الذي جاء بك إلى هنا؟

قالت فضيلة: أريد أن أحدثك على انفراد عن نجم الرابعي، حبي الأول والأخير.. أريد تشجيعك..

تقلّص وجه زين. فضيلة لاحظت حركة النفور هذه وانزعجت لمدلول الحركة وأساءت تفسيرها إذ ظنت أن اعتراض زين هو على فقر نجم وقرويته، فإذا بها تضيف: نجم.. نجم الرابعي ليس فقيراً. لعلك قرأت في الصحف منذ أيام أنه حظي بثروة طائلة تركها له عمه المهاجر في الغابون.. ربما نكايةً بالجميع.

قالت زين وهي تزن كلماتها بميزان الذهب كي لا تجرح شعور إبنة عمها التي لجأت إليها وإلى دعمها: حتى لو صح ذلك ـ وأشكّ في الأمر ـ القضية ليست في المال، بل في الحب.. ثمة ما يتبدل حقاً بعد الزواج.

ـ أنا أحب نجم وأريد دعمك فأنت "مشاغبة زقاق الياسمين" كما صار اسمك لدى الجارات، و"متمردة زقاق الياسمين" لدى نجم المتعلم..

انفجرتا ضاحكتين وقالت زين: معذرة. هذا هو الدكتور جان، وعليَّ تلبية مطالبه لاستعارة الكتب.. وسأعود إليك.. انتظريني هنا.

ما كادت تخطو نحوه حتى سبقتها إليه زميلتها الموظّفة إكرام بلهفة عاشقة تعرف زين أن إكرام تعشق د. جان وأنها مصممة على الزواج منه (**الحبّ.. الحبّ يغلي حولها في وجوه الصديقات والقريبات والغريبات. الحب.. تلك الجرثومة الملونة المحفوفة بموسيقى بيتهوفن إلى إليز، وبدموع شوپان على البيانو وهو يعزف للقاسية جورج صاند دم قلبه، ويزعم أنه لها وتصدّقه.. ويصدّق النقّاد ذلك. أما أنا فلا**

---

(١) "الجامعة السورية" كان إسم ما يُدعى اليوم "جامعة دمشق". إذ لم يكن ثمة سواها في سوريا في الزمن التي تدور فيه أحداث الرواية، كما أن إسم سورية كان يُكتب يومئذٍ على النحو المكتوب في الرواية: سوريا.

أصدّقه. الإخلاص؟ ليس من طبع الإبداع الإخلاص إلا للفن لا للمعشوق وأعرف ذلك من تجربتي الجديدة الغضّة مع الكلمة).

تعود زين إلى إبنة عمها التي تضيف: إنني أقتدي بك بإعلان حبي لنجم ورفضي للزواج من مطاع. وأُريدك أن تشدّي من إزري عائلياً وروحياً، فقد سبقتني إلى فرض حبك على الجميع والزواج من حبيبك.

كادت زين تضعف أمام حرارة قلب إبنة عمها وغرامها بنجم وحماسها وخجلها من عجزها عن لعب دور نموذج العاشقة المتفانية كما في السينما والروايات الرومانسية. لكن البومة جاءت من النافذة ووقفت على كتفها ونطقت بالصدق بصوتها: إسمعي يا حبيبتي فضيلة. أنا هجرت وسيم منذ يومين وسأطلب الطلاق منه. لقد خاب حبّي وفشل زواجي وارتكبتُ غلطة فادحة. لكن ذلك لا يعني أن الحب الأول فاشل دائماً بل حبي أنا هو الفاشل.

صرخت فضيلة: يا إلهي! أنتِ ستطلّقين؟ معقول؟!.

ـ لا. الحياة الحقيقية هي اللامعقول. فشلي كعاشقة خائبة لا يعني فشل كل عاشقة مثلي ولا فشلك. أنت بنت أخرى مع رجلٍ آخر لها حكاية أخرى. خاب أملي بحبي وليس بالحب. أَقْدِمي ولا تخافي ولكن تذّكري: لا توجد شركة في العالم ترضى بـ"التأمين على الحب"!!.

فضيلة قالت غاضبة فيما يشبه النقمة الشخصية العدوانية: ولماذا تريدين الطلاق منه؟ لماذا هذا الفراق؟

أجابت زين وبصوت محايد وهي تتذكر نصيحة جدتها: «ما صار نصيب»!! وأضافت: «كله قسمة ونصيب».

جاء طالب يريد استعارة كتاب. اعتذرت زين من إبنة عمها ورافقت الطالب إلى الرفوف المرتبة وفق ترقيم "ديوي"، وحين عادت وجدت إبنة عمها قد مضت من دون وداع!!.

اختلتْ زين بنفسها حين عادت إلى البيت في غرفة نومها العتيقة التي طالما أقسمتْ باسم وسيم فيها وأشعلت له قناديل الحب وكادت تبكي. لكن البومة الصديقة التي ترسلها لها أمها وقفت على سريرها مؤنسة، وسمعت صوت أمها

هامساً كلحظة احتضارها: لا تخافي منهم جميعاً. لا تتراجعي. لا تتخلي عن حياتك لمن لا يستحقها...

كانت تعرف أن أمها تُرسل لها البومة التي تحب لدعمها. همست زين وهي تتمدد في السرير منهكة بعد عملية الإجهاض التي خضعت لها قبل أيام قليلة: لقد أخطأتُ. وها أنا أصحّح غلطتي الآن. أدفع الثمن.. وأريد الطلاق بأي ثمن دفاعاً عن حياتي، وليكن ما يكون. سأتمرد على حبّهم لي وذلك صعب. كما سأتمرد على رفضهم لي وذلك مريح! فأنا صخرة في قاسيون.

الفصل الثالث (محاولة ثامنة)

مدينة "الهُص الهُص.. العيب العيب"[1]

(١) مثل شامي يعني: السكوت خوفاً من الفضيحة، والثرثرة عن الفضائح بصوت هامس.

غيمة غضب انطلقت من زقاق الياسمين حيث نشأتُ في البيت الكبير للأسرة.. غيمة غضب من الكبار يوم إصراري على الزواج من وسيم.. واليوم تنطلق غيمة غضب ثانية من الصغار لإصراري على الطلاق منه. يُسمع رنين الهاتف. تقول لي جدتي: إبنة عمك حميدة تريد أن تكلمك.

بصوت مرتعش تقول لي حميدة غاضبة: كيف تعلنين رغبتك في الطلاق وتقيمين القيامة لذلك بعدما أقمت القيامة للزواج منه؟ كيف تفعلين ذلك بي؟ بدهشة أسألها: وما علاقتك أنتِ بالأمر؟

فجعني أن تقول: اقتديتُ بك وأعلنتُ حبي وإصرار على الزواج من سهيل كما فعلتِ مع حبيبك، وها هم اليوم يرفضون تمردي لأن تمردك فشل وتريدين الطلاق. هل هذا الخبر الذي نقلته أمي شامتة بي شخصياً(!) صحيح؟ أقول لحميدة: هذا الخبر صحيح. أحببته وأعلنتُ عليهم حبي وتزوجنا. وفشل الزواج وأعلنت رغبتي في الطلاق..

تقولي لي حميدة بفجيعة كأن زواجها من سهيل وطلاقها منه قد حدثا: كيف يمكن لك أن تفعلي ذلك بي؟ أقول لها بصوت صادق: هذا ما يحدث لي، لكنه لن يحدث بالضرورة لك. سهيل ليس زوجي. هو أفضل أو أسوأ، لكنه رجل آخر. كل رجلٍ بصمةُ إصبع مختلفة، وكل علاقة لا تتكرر. فشلي ليس بالضرورة قاعدة عامة. إنه فشلي الشخصي وأعترف به وأحاول أن أحمل مسؤولياته، ولا علاقة لك أو لسهيل بالأمر.

تقول لي حميدة بحزن بالغ: لقد استمدّيت شجاعتي منك وها أنتِ تتراجعين وتخذلينني!..

ـ لم أخذلك. على العكس من ذلك. بالشجاعة نفسها أعترف بالخطأ وأتراجع عنه كي لا أدمّر حياتي. صورتي عندك ليست أهمّ من حياتي الحقيقية. فشلي لا يعني بالضرورة فشلك أو فشل الحبّ. الحياة شبه مغامرة ما دام الطرف الآخر في المعادلة مجهولاً. فليس بيننا من يستطيع أن يزعم حقاً أنه يعرف مخلوقاً آخر لمجرد

أن الآخر قال له: أحبك!..

تنقل لي حميدة خبراً لم يدهشني: الكلّ في زقاق الياسمين شمتوا بك. وفهمت منها أن عمتك بوران قالت عن الجارة أنها أحسنت صنعاً حين وضعت الجمرة على لسان إبنتها لأنها قالت إنها تحب، وإنه كان على والدك أن يفعل الشيء ذاته مرتين، مرة حين قُلتِ: أحب، وأخرى حين قلتِ: أريد الطلاق!.. وأضافت حميدة: لعلك تعرفين أنه ليس في أسرتنا حتى طلاق واحد..

أقول لها: أجل. نتستّر على القيح في الجرح المتعفن خوفاً من كلام الناس. كلامهم لا يعني لي شيئاً بل صوت عقلي وقلبي وضميري. تختم حميدة الاتصال الهاتفي وأنا لا أدري هل صارت أكثر شجاعة أم أشدّ يأساً؟

تُردد زين لنفسها بعد تلك المخابرة الهاتفية: ليس ثمة من يدعمني. ليس ثمة من يحب ما أقترفه بالكتابة. لكنني مُصمّمة على أن أستمر. لا أحد منهم يستحق طعني بخنجره. سأقوم بطعن الخناجر كلها بصدري العاري، وأخترع خنجري الخاص.

* * *

قالت بوران التي صارت أعلى صوتاً في زقاق الياسمين منذ انتقال شقيقها أمجد إلى البيت الجديد العصري مع الوالدة حياة وزين واستقرارهم في ساحة المدفع ومنذ المرض النفسي لعبد الفتاح الذي قال الأطباء إنه شفي منه وهي تظنه ازداد مرضاً لأنه لم يعد يُمارس سطوته على بنات البيت الكبير في زقاق الياسمين بل صار رفيقاً ورحيماً بنساء الأسرة بل وفخوراً بهن... قالت الأم لابنتها الكبيرة فضيلة: جاءت والدة مطاع الرباطي البارحة وفاتحتني في أمر التعجيل بزواجك من إبنها ووافقتُ مبدئياً وقد تحمّس والده للفكرة وسيأتي والده وعمّه لقراءة الفاتحة مع والدك. صعقتْ فضيلة برجل لا تعرفه تريد أمها تزويجها له لمجرد أن "خطيبها" شخص ثري ومحترم في المجتمع الشامي. أنفجرت فضيلة غاضبة وقالت لأمها: لن أتزوج من رجل لا أعرفه ولا أحبه أو أرتاح إليه. أنا لستُ دمية قطنية تُباع وتُشرى. أنا بشر ولي عواطفي.. أُريد التعارف معه أولاً ومعاشرته اجتماعياً فيما بعد قبل الزواج.

قالت أمها مرتاعة: سنكتب الكتاب أولاً.

أجابت فضيلة بتصميم غير مألوف وبنبرة قاطعة: حسناً. سنكتب الكتاب شرط أن تكون "العصمة" بيدي وأُطلِّقه حين أشاء أنا أيضاً لا هو وحده الذي يحقّ له تطليقي أو طلبي إلى بيت الطاعة وإذلالي. انتهى ذلك كله يا أمي.

كمن صعقها تيار كهربائي انتفضت والدتها وصرخت بفضيلة: من حدّثك عن حق العصمة بيد الزوجة؟

أجابت فضيلة ببساطة: زين التي صرتُ أزورها باستمرار في مقرّ عملها.. قالت إنها لم تكن تعرف شيئاً عن هذا الحقّ الذي وهبها الإسلام إياه.. وأن عمّي أمجد أخبرها بذلك حين قالت له إن الإسلام ظَلَمَ المرأة.. وشرح لها أن الإسلام حرر المرأة من جاهلية وأدها في رمال الصحراء ومَنَحها حقوقاً بدت متقدمة وطليعية في ذلك الزمان.. منها الحقّ في أن تكون العصمة في يدها، وحقّ تملّك مالها الخاص.. وأضافت فضيلة إن زين قالتْ لها إن روح الإسلام تعني تحرير المرأة واحترامها وليس قهرها كما كان يحدث في الجاهلية ويريد البعض فرضه اليوم. نعم قالت لي زين إن تنوير المرأة على حقوقها واجبٌ، وحملت إلينا نسخاً عن مقالها "الفتيات المتحرِّرات"... لنا ولبنات المدرسة والجيران.

شقيق فضيلة كان يتنصّت كعادته من خلف الباب ولم يعد قادراً على تحمّل سماع ذلك كله أو الصمت. حين ذبح البومة ووضعها في فراش زين يوم قرأ مقالها الأول في "بريد القرّاء" مع صورتها (يا للعار!)، توقع أن تخاف وترتدع لكنها في نظره ٱزدادتْ غيّاً. وحين "ٱصطادها" بالبندقية توقع أن تخرس إلى الأبد، أو تموت، وذلك أفضل في نظره. دخل الغرفة متظاهراً بأنه لم يسمع من الحوار غير الجملة الأخيرة حول "النسخ" من المقال، وبأنه لم يكن يسترق السمع كعادته من خلف الأبواب.. وسأل أخته: حملتْ نسخاً؟ هل ٱشترتْ عدة أعداد من الجريدة ووزّعتها عليكن؟

أجابت فضيلة التي كانت قد ٱستلمت إدارة العمل في "مخزن البروكار" الشامي والأغباني مع شقيقتها منذ مرض والدها: لا. لقد شرحتْ لي أن عملها في المكتبة يتضمن الضرب على الآلة الكاتبة، وعلى ورقة يدعونها "ورقة الحرير" تتم طباعة نسخ عنها على "الستناسل"، وبتلك الطريقة يتمّ توزيع الأسئلة على الطلاب كلهم

مطبوعة في الامتحانات. هنا قالت بوران لنفسها: يا إلهي كم تبدّل الزمان!!.

وفي الليل حين تمددت بوران في فراشها وتذكرت كيف كانت تستمع بصبر إلى شخير المبجَّل زوجها ولا تجرؤ على الانسلال للنوم في غرفة أخرى، فوجئتْ بضوء القمر ينسكب على وجهها فضّة مصهورة سحرية، وتساءلت للمرة الأولى في حياتها: لو كان لي الحقّ في اختيار رجلي، هل كُنتُ سأختاره زوجاً لي؟ ولقد تجرأت مرّة واحدة على التفكير ـ مجرد التفكير ـ بالطلاق منه، هل كُنتُ سأبقى معه ذلك العمر كله؟ ألم أكن أستحق أنا أيضاً أن أحيا؟ تحسّستْ جسدها في ضوء القمر، الغابات المهجورة التي عشّش العنكبوت فيها، والاستدارات التي ترهلت من دون أن تقبّلها شفاه زوجها حتى ليلة العرس لتنعشها. ونهضتْ بهدوء نحو المرآة لتتأمل وجهها في ضوء القمر ربما للمرة الأولى منذ ليلة عرسها..

* * *

عادت نوال جارة آل الخيّال في زقاق الياسمين من بيت عمها في حلب وهي أكثر شوقاً إلى حبيبها وليد وأشد تصميماً على إعلان حبها.

بصوت شامت صرختْ أم نوال في وجه ابنتها: ألا تعرفين أن زين التي تضربينها مثلاً لك في الحب والزواج ممّن اختارت عادت إلى بيت أبيها وتطلب الطلاق؟ نزل الخبر على الجارة نوال كصاعقة في زقاق الياسمين، وهي التي كانت تدعم روحها بزين، وشجاعتها في الوقوف بوجههم والإعلان بصراحة: أنا أحب.. وسأتزوج ممّن أُحب.. كما تنوي نوال أن تفعل.

غمرتها رعدة برد كهلع منبثق من شراييها كلها. ركض الثلج داخل تلك الشرايين الحارّة وساد الصقيع ووجدت نفسها تتساءل بهلعٍ: هل يمكن أن يحدث ذلك لي مع وليد؟

أدارت القرص على أرقام بيت زين. لا جواب.

اتصلت ببيت أبيها. ردّت الجدة حياة. ودونما تهذيب تقليدي، طلبتْ محادثة زين. جاءها صوت زين. صرخت بها بنبرة عدوانية: هل هذا الخبر صحيح؟ هل طلبتِ الطلاق من حبيبك الذي أقمت القيامة للزواج منه؟

قالت لها زين بهدوء: دعينا نلتقي ونتحدث في الأمر. ردّتْ نوال بنقمةٍ لأن زين

لم تنفِ الخبر كما كانت ترجو: لا داعي لذلك. لقد فهمت. وقطعتْ المخابرة!

* * *

تتنهد فضيلة بأسى فقد شاهدت إحدى الجارات مطاع يحاول تقبيل فضيلة في "الديار"[1] وقامت القيامة على رأسها هي **(أدهشتني ردّة فعل أهل البيت حين علموا بالخبر. كلهم ضدي. لولا علة ما في سلوكي لما حدث لي ما حدث. وجودي خارج البيت في مكان العمل فعلُ غواية.. حجابي المقتضب فعلُ غواية.. وأنا المسؤولة عمّا حدث وهو الشهم لأنه ما زال يريد الزواج بي ولأنني لم أصفعه حين حاول تقبيلي بل ابتعدتْ بتهذيب.. لم أعد أفهم شيئاً مما يدور لي وحولي، وأتمنى الهرب من ذلك كله إلى الكويت حيث وجد نجم عملاً.. أتمنى الرحيل معه هرباً من هذا الجحيم الذي توَّجته زين بطلاقها)**.

* * *

(هل أنا ذاهبة حقاً مع جدتي لزيارة شقيقتها الكبرى المحتضرة التي عاشت حتى الآن قرناً أم أنني ذاهبة شوقاً إلى حي "الميدان" حيث تقيم وثمة صوت خافت في قلبي يهمس بأنني قد أغادر دمشقي الحبيبة التي بدأت تصير عدوانية نحوي؟).

الغرفة خالية من الزوار، و"الكنة" أنتهزت فرصة حضور الحاجة حياة وزين لترك المحتضرة لبعض الوقت والهرب من الحضور الثقيل للسيد "الموت".

نظرتْ إليها شقيقة الجدة كأنها لا تعرفها وراحت تصرخ بصوت واهن: «ليكو.. ليكو.. وْلْك ليكو.. دخلكم ليكو...»[2] شاهدتُ إصبعها يتحرك باتجاه النافذة ولم أدرِ هل كانت تقصد الضوء أم الشجرة الشتائية العارية خلفها.. ظننتها تتحدث عن سارق مرعب. ثم وعيت أنها تتحدث عن السيد الموت. أقتربتُ منها وأمسكت بيدها لأسألها عما يخيفها. نظرت إليَّ بنظرة كلها ذعر وصرخت بصوت واهن في جدتي حياة: لماذا أحضرتِ معك هذه "النص نصيص"[3]، هذه البومة والموت معها؟ قَتَلتْ أمها والآن تريدون قتلي؟ ليكو، إنه "يذبح بطيخة"[4] على

---

(١) الفناء غير المسقوف الذي تتوسطه البركة (البحرة) في البيوت الدمشقية القديمة.

(٢) انظروا.. انظروا.. رجاءً انظروا إليه.

(٣) الهزيلة، قصيرة القامة.

(٤) يذبح بطيخة: تعبير شامي يُقصد به تقشير البطيخة.

البحرة وهو قادم نحوي.. ليكو.. قالت الجدة حياة وقد عادت طفلة "مذنبة": وحياتك[1] تركتها في "الديار" مع الأولاد، ولا أدري كيف سلحبت ورائي[2].

عادت والدة جدتي تصرخ: ليكو.. ليكو.. وهي تشير بإصبعها صوبي **(خفتُ كثيراً)**.

قالت لها جدتي: أغمضي عينيك كي لا ترينه...

همست المحتضرة بصوت واهن وقد أغمضت عينيها: أراه الآن بوضوح وأنا أغمض عينيّ.. لا أريد إغماض عينيّ.. لا.. إنه.. إنه...

قاطعتها الجدّة حياة: قولي له: قُلْ هو الله أحد.. قومي بالتلاوة.. سيجعله ذلك أكثر رفقاً بك.

(كنتُ أنصت إليهما وأنا أتذكر أمي التي نامت في تابوت ونمت معها لأوقظها معي. كُنتُ أريد فقط الالتقاء بالموت لأطلب منه أن يعيد إليّ أمي).. خفت صوت المرأة المحتضرة وهي تردد: ليكو.. ليكو.. شحّو[3].. دخلكم[4] شحّو.. ولم تقل شيئاً من الكلمات المأثورة للمحتضرين عن الموت التي أطالعها في الأدب!

* * *

تُرتب والدة وسيم "غرفة الضيوف" بوضع اللّمسات النهائية عليها. **(اليوم موعد "الاستقبال"[5] الشهري في بيتي، وأتوقع حضور القريبات والجارات والمعارف كلهن لأنه "الاستقبال" الأول عندي بعد إعلان نبأ طلب زين الطلاق من إبني وسيم)**.

تعرف جيداً أن الزائرات سوف يتبارين في وصف مساوئ زين واهمات أن ذلك سيُسعدها. لن يخطر ببالهن أنها تحب تلك البنت الشُجاعة **(فهي أقدمت على ما لم أجرؤ يوماً على القيام به وكُنتُ أشتهيه. كُنتُ أشتهي متابعة الدراسة ولكن تمّ تزويجي من إبن عمي واقتلاعي من المدرسة وأنا في الخامسة عشرة من العمر، ولم**

---

(١) أقسم بحياتك.

(٢) سلحبت: انسلّت.

(٣) شحّو: ها هو.

(٤) تعبير طلباً للغوث.

(٥) لقاء يجمع نساء الأقارب والجيران والمعارف مرّة كل شهر في بيت إحداهن.

أكن أدري هل أحبّه أم لا، بل لم أكن عرف معنى الحب في تلك السنّ، وأنجبت الكثير من الأولاد والبنات ولم يسألني أحدٌ في حياتي كلها عن شعوري.. كُنتُ خشبة في ناعورة تدور بي وهذا كل شيء. حين جاءت زين المشتعلة غراماً بابني، تذكرتُ مشاعر كُدت أنساها ودفنتها نحو إبن الجيران، وحين كَرَهَتْهُ خفتُ إذ ذكرتني ببعض مشاعري نحو من هم حولي أو من كانوا يومها حولي، ووعيت أنني لستُ قديسة، لستُ فقط "الماما"، بل أنا مخلوقة متحسّرة لأنهم لم يسمحوا لها بمتابعة دراستها.. وهكذا لم أكن أرسل الطعام اليومي إلى بيت إبني إكراماً له وحده بل ومن أجل زين كي تتابع علمها. فلمس كتب أولادي الصبيان ما زال يكهربني لأن ذلك لم يُتَح لي. كما أكره صهري المسكين لمجرد أنه تزوج من إبنتي البيضاء "الملظلظة"[1] واشترى شقة فخمة جداً في شارع "أبو رمانة"[2] وحجبها عن الناس والدراسة فتفرغت للإنجاب والولائم. أحببتُ زين، كنَّتي، لأنها كانت تشبهني قبل أن يتم ترويضي، ولا أكرهها لأنها تريد الطلاق من إبني وهو ما لم أجرؤ أنا يوماً عليه).

* * *

عادت زين من الجامعة واتجهت مباشرة صوب المطبخ حيث تجد جدّتها عادة. هذا المساء كانت الجدّة تغني بصوتها الجميل وهي تقوم بتحوير بعض كلمات الأغنية الأصلية كما هي عادتها مع القصص التي تقصّها على زين والأغاني التي تنشدها: «بلدي يا بلدي بدي روح عا بلدي... يا حبيب عيني بدي روح عا بلدي... بلدي بست بلاد وإلي فيها ست أولاد.. يا ربي تردّ الغياب وتردّ لي ولدي». ثم قالت بصوت حاد بلا غناء: صار كل واحد بديرة... ضحكت زين بحب، فالغربة عند جدتها تعني مغادرة زقاق الياسمين إلى حيّ آخر!!..

التفت الجدة حياة صوب زين وشاهدتها تحتضن قطة صغيرة وقالت ببهجة: إذاً أحضرتِ لي قطة.. تعرفين كم أحب القطط التي خاوت[3] في بيت زقاق الياسمين

---

(١) المائلة إلى الامتلاء الجذّاب.

(٢) حي كان أرستقراطياً جداً أواسط ستينات القرن الماضي في دمشق.

(٣) خاوت: صادقتها صداقة أخوية.

الحيّة الألفية[1]. لكن حين تأمّلت الجدة حياة القطّة التي أحضرتها زين، قالت باستنكار: ما هذه القطة العليلة البشعة "الجربانة". أنزلت زين القطة على الأرض فمشت صوب الجدة حياة وهي تعرج لعطبٍ في قائمتها الأمامية أو لجرحٍ فيها. بدتْ القطة بائسة منهكة، كأنما دارت فوقها دواليب سيارات دمشق كلها وأحرقت وبرها الصواعق واخترقتها البروق. لكنها تمشي.. تحاول أن تمشي على نحو عادي.. تتجه نحو الجدّة حياة، وربما نحو قلبها، إذ قالت الجدة: حسناً. سأتبنّاها على الرغم من أنها قبيحة ومريضة ومتعبة وليست مثل "فلّة" قطة عمتك.. ولكن أين وجدتِها يا زين؟

ـ كانت ضالّة في الشارع.. ودّرها[2] بالتأكيد أهلها ـ أعني أصحابها ـ ولا نستطيع التخلي عن قطة "معترة"[3]، فنحن نحب القطط. قالت الجدة حياة ضاحكة: قطة؟ نعم.. بومة؟ لا. لا تحضري لي بومة..

قالت زين ضاحكة وهي تعانق جدتها: البومة عندك في البيت. وأحاطت عينيها بأصابعها لتبدو كالبومة وهي تردد صوت البومة: «آو.. آو.. آوو..» فضمتها جدّتها إلى صدرها.. ووجدت زين المرفأ الاحتياطي الذي تحتاجه.

* * *

عادت زين من عملها منهكة وكادتْ تصطدم بالعاملة المنزلية التي تحمل القهوة لضيف ما في الفناجين الفخمة المخصّصة لذلك، وقالت لها جدتها: عند والدك ضيف يريد أن يراك.

أشتعل فضولها. الضيف كان الدكتور رهيف المناهلي. فتولاها ذعرٌ: تراه قال لوالدها حكاية إجهاضها؟ نظرت إلى وجه الوالد فشاهدت شعاعاً من شمس البهجة ينبثق من عينيه وقال لها: لعلّك لا تذكرين دكتور المناهلي، فقد كنتِ طفلة حين كنا نلتقي به. كان حاضراً في عرسك لكنك بالتأكيد لم تلاحظي المدعويين ليلتها.. وأضاف بنبرة فخرٍ: جاء لتهنئتي عمّا تكتبينه.. فقاطعه د. رهيف قائلاً: أنت كاتبة

---

(١) الألفية: كان لكل بيت عتيق في دمشق القديمة أفعى لا تؤذي أحداً بل ويطعمها أهل البيت (يتركون لها الأكل في المطبخ) ويقال إنها تصد الشرور عن أفراد الأسرة.

(٢) درّها: لفظها أو تخلى عنها.

(٣) معترة: بائسة عاثرة الحظ.

جيدة يا زين.. صرتُ أشتري الصحف لكي أقرأ لك.. ثم أضاف بلهجة ذات معنى: أنا سعيد بأن أراك هكذا مزدهرة وبأحلى عافية. جلست معهما بسعادة ولم يقل أحد كلمة حول طلاقها الآتي.

* * *

تدور فضيلة حول "البحرة".. في "ديار" البيت الكبير بزقاق الياسمين **(أبي مصمّم على ذلك الزواج البائس، زواجي من مطاع. فهو رجل ثري و"ابن عيلة"[1] ومحترم. شاهدني مطاع حين عملتُ وشقيقاتي في مخزننا للبروكار يوم مرض أبي. كان جاء لشراء هدايا لبعض الزبائن لشركاته العديدة التي تعمل في الاستيراد والتصدير، ولم أفهم بالضبط ما يعنيه ذلك. لكنه طلب الحديث مع أحد إخوتي أو أبي أو أي "رجّال"[2] في الأسرة!.. كأنني لا أصلح لفهم شؤون العمل، كوني "خادمة" في دكان أبي وليس بوسعي اتّخاذ أي قرار!.. وكلّمني كما لو كنت قاصرة، ناقصة العقل، لا يمكن أن تفهم مشروعه لإطلاق البروكار الشامي في العالم حتى أنني شعرت بالشك في أنه يريد حقاً شراء الهدايا إنما يريد أن يجد مدخلاً للحوار، وربما لوضع يده على حانوت أبي بعدما شاع وذاع أن "بناته" يقمن بإدارته.**

وهكذا نفرتُ منه. أما اليوم فأشعر بالكراهية نحوه.. وأشعر أن تلك المصاهرة تخفي خلفها رغبة بالزواج من الحانوت العريق لأسرتنا، ومن البروكار الشامي الذي ولدتْ خيوطه من حكاية حبٍ بين الشمس والقمر.. بين خيوط الفضّة في النسيج، وخيوط القمر الذهبية، وخيوط زرقة البحر، وكُحل الليل في قاسيون نصف الداكن، وتورد أزهار ربيع الغوطة.. وهذا الوصف هو لزين إبنة عمي قالته لوفد "المغتربين" الذين حضروا لزيارة مسقط الرأس السوري عامةً، والشامي خاصةً، وبينهم من ولد في المهجر.. قالت زين ذلك بالعربية وبلغات أخرى وشعرتُ بأنها تعبّر عن شعوري الذي لا أجد له الكلمات المناسبة. وقد حفظت قولها وغبطتها لأن عمي أمجد الخيّال كان حريصاً على تعليمها لا كأبي الذي يريد دفننا منذ ولادتنا في "حذاء" عريس. وها هو الخطيب قد حضر.

---

(١) سليل عائلة معروفة ومرموقة.

(٢) وليّ أمر من الذكور.

أنفر من مطاع كرجل أعمال يريد الزواج من بروكارنا الشامي الذي غزلناه بدمع العين واهتراء الأصابع، بل ويريد اقتحامي لأنني منذ اللحظة الأولى نفرتُ منه. نفرتُ من محاولته تقبيلي.. كما نفرتْ يدي من يده حين تظاهر بلمسها مصادفةً فوق بروكار كنتُ أعرضه عليه. وقد بدأتُ أعي أنه لا يريد شراءه كهدية لزبائنه بل يريد شراء حانوتنا بأكمله هديةً لنفسه ولنجاحه!!.

اليوم "تلبيس الخواتم"[1]. وحين أدخل الخاتم في إصبعي تذكرتُ حبيبي متوسط الحال، أستاذ المدرسة نجم، وأغمضت عيني وتخيّلته هو الذي يفعل ذلك.. وإذا ما قبّلني خطيبي مطاع أو اجتاح جسدي ذات يوم فسأتخيَّل أن نجم هو من يقوم بذلك كي لا أُصاب بالجنون.. ولكن ملمس يد مطاع على أصابعي قارس كلوح من الثلج.. أرتعش. يصفق الأهل واهمين أنني أرتعش ابتهاجاً لا نفوراً. ليتني زين التي قالت: أحب هذا الرَّجل وسأتزوج منه. واستطاعت أن تفرض ذلك على عمي أمجد وعلى الجميع بصلابة مشتعلة بغرام لا يقلّ غرامي بنجم عنه بأي حال.. ولكني لا أجرؤ على "الشغب" مثلها. زين خذلتني ولم يعد بوسعي القول أريد الزواج من حبيبي كما فعلت.. منذ اليوم الذي كانت زين تقيم فيه معنا هنا في زقاق الياسمين، كانت مشاغبة لأن روح أمها هند تقمّصتها (يا لطيف!) كما كانت تكرّر أمي..

قيل كل ما يُمكن قوله من كلام لزج لطيف من أهلي وأهله، وتقرّر "كتب الكتاب"[2] بعد أسبوع وبيت العريس جاهز كما قالت حماتي المقبلة ولن نقيم معها، وتلك في نظر أمي هدية زواج استثنائية، ثم إن البيت في شارع أبو رمانة.. فما الذي أطلبه أكثر من ذلك؟ قال لي مطاع وهو يغادر البيت بسماجة: اطلبي وتمنّي.. وكدتُ أقول له: أطلبُ أن تختفي من حياة أهلي ومن حياتي بلسانك "الحلس الملس النجس"[3]. ببساطة لا أرتاح لك ولا أحبك. لكنني أحب معلّم المدرسة نجم وأرغب في الحياة معه سواء كان ورث من عمه المهاجر ثروة أم لم يرث. أتمنى أن أجد في نفسي الشجاعة لأفعل ما فعلته زين ثم تراجعت عنه للأسف

---

(١) إيذاناً بإعلان الخطبة.

(٢) عقد الزواج الشرعي.

(٣) مثل شامي عن ادعاء اللطف لأغراض وسخة.

بطلب الطلاق. قيل لها إنه "بالوعة العيلة"[١]. وقالوا عنه أشياء سيئة كثيرة. لم تبالِ. يومها فرضته على الجميع وتزوجته في عرس "مطنطن"[٢] وأخرج لها والدها جهازاً "ملوكياً" من أفخم الملابس، مطرزات من شغل الراهبات وثياب عصرية جاهزة من مخزن "الحايك" الجديد المطل على نهر بردى في مبنى مكتب جريدة "أخبار اليوم" في دمشق كما أخبرتني زين..

وقضت ليلة العرس مع رجل تحبّه، وقالت لي إنها ليلة العمر.. ولكنني وجدت في نفسي الشجاعة بعد حفلة الخطبة المقيتة مع مطاع التي سعد فيها الجميع باستثنائي بأن أقول لأمي وهي تساعدني في فك أزرار المشّد الذي يجعلني أبدو بخصرٍ ناحل كخصر النحلة: ماما.. لا أُحب مطاع.. أريد الزواج من نجم معلّم المدرسة.

بدت أمي كمن ضربتها صاعقة.. ثم قالت لي بشماتة: ألم تسمعي بالخبر؟ زين تريد الطلاق من زوجها، حبيب قلبها، وقد عادت الآن إلى بيت أبيها.. هذا ما أخبرتني به ستك[٣] حياة.

لم أقل لها إنني زرتُ زين وأعرف كل شيء.. لبثتُ صامتة، مكسورة الخاطر، حائرة.. كيف عساي أتخلّص من هذا الرجل قبل "كتب الكتاب"؟).

---

(١) تعبير دمشقي عن شخص رديء في أسرة جيدة.

(٢) عرس على نطاق كبير حافل بكل مظاهر البذخ والترف.

(٣) جدتك.

الفصل الرابع (محاولة تاسعة)

فَشِلَ زواجي ونَجَحَ طلاقي

(غداً صباحاً جلسة الطلاق في المحكمة في قصر العدل. هذا كل ما أعرفه. لم أجرؤ على سؤال والدي عن تفاصيل ذلك. أعرف أنه لم يكن راضياً عن هذا الزواج وثمة جزء صغير سري منه سعيد بطلاقي اليوم، ولكنني أيضاً أعرف أنني أحرجته أمام المجتمع وأصدقائه الحميمين في الشركات الوطنية التي يقومون بتأسيسها بفخر بعدما ناضلوا وتخلّصوا من الانتداب.. وتربطه بهم لا صلات مودة فحسب، بل ومصالح شركات وليدة متحالفة مع "الشركة الرباعية" التي تمتلك معظمها أسرة الرجل الذي أقمت القيامة حتى تزوجت منه وكان الجميع ـ أهله وأهلي ـ يرون أن هذا الزواج سيفشل في المدى البعيد حين تموت جذوة الغرام المراهق ويهبط بنا بساط الريح إلى الأرض ونجد أنفسنا على بساط الحقيقة اليومية كائنين مختلفين بهواجس غير متجانسة.

بحزنٍ أكتشفُ أن المجتمع ليس غبياً في أحكامه كلها. يوم أحببته كنتُ واثقة من أن العالم كله على خطأ ووحدي أعرف الحقيقة والحب.. واليوم أعرف أنني لا أعرف شيئاً غير أنني أريد أن أتحرّر من "رسن" الزواج هذا ولا يضيرني الاعتراف بأنني اقترفت غلطة وأريد تصحيحها.. وأريد أن أطوي بمعاني الكلمة كلها تلك الصفحة المخزية لكبريائي).

تدور زين جيئةً وذهاباً على شرفة البيت. (لماذا تأخر المحامي نجاتي هكذا؟ وعدني بالمرور للقائي لنتحدث عن الغد الموعود الذي لطالما حلمت به لكنني أيضاً أشعر الآن بارتجاف في ركبتي قلبي).

تتصل هاتفياً ببيت المحامي نجاتي للاستفسار منه لماذا تأخر. الهاتف لا يرد. تعرف أن والدها يمقت الحوار حول الأمر، ولذا كلّف محامياً ولم تلمه. (أعرف أنه الطلاق الأول في بيت آل الخيّال ولم يسبق لامرأة في أسرتنا أن تجرأت على الإصرار على الزواج من رجل لأنها تحبّه وعلى الطلاق منه بعد أشهر لأنها لم تعد تطيقه. لم تجرؤ إمرأة في زقاق الياسمين خلف الجامع الأموي على أن تقول: أنا أحب. ويوم تجرأت بنت الجيران على ذلك وضعتْ لها أمها جمرة مشتعلة على لسانها لأنها

نطقت بالكلمة المحرمة: أحب. أنا لفظتُ الكلمة/ التفاحة واقترفت خطيئة الحب، والآن اقترف الخطيئة الأخرى: الطلاق. فضيلة المسكينة أذعنتْ لعدوان مطاع عليها بخاتم الخطبة).

تعيد الاتصال بالمحامي نجاتي فهي بحاجة إلى دعم معنوي، وإلى معرفة ما ينتظرها نهار الغد من تفاصيل. ترد عليها زوجته وتقول لها إنه ذهب إلى "نادي الشرق" تلبية لدعوة كاتب شهير يحتفل بصدور كتابه الجديد، وأضافت: ستكون صفوة المجتمع الثقافي هناك، والأديبات والأدباء كلهم، ألن تذهبي؟.. كادت زين تقول لها إن ذلك الآديب لا يبالي بحضور المحامي نجاتي أو غيابه، فهو محاط بعشرات المعجبين، أما هي المسكينة المتوحدة المرمية في قاع بئر القلق والمخاوف فهي بحاجة ماسّة إلى المحامي نجاتي.

أغلقت سماعة الهاتف على حزنها وقرّرت وهي تروح على شرفة البيت جيئةً وذهاباً أن عليها مواجهة الغد بلا أسلحة، عزلاء ووحيدة من الداخل..

اقترب منها والدها وسألها: هل تريدين أن أرافقك غداً؟ لم تكن زين تتمنى شيئاً آخر، لكن صوتاً في قاعها قال لها: دعيه وشأنه. يكفيه ما تحمّله منك حتى الآن.

قالت زين: لا يا أبي.. لا أريد أن ترافقني. شريكك المحامي نجاتي يكفي ويزيد!!.

شعرت أن والدها تنهّد بارتياح، وقال لها: سأذهب إلى النوم باكراً فلديّ غداً مرافعات في غير محكمة.

لم تقل له: أعرف أنك تخشى أن أبدّل رأيي وأرجوك مرافقتي وستهرب مني إلى براري النوم ولعلّك لن تنام. فقط ستطفئ مصباح غرفتك للاحتماء من تبعات نزواتي.

في تلك اللحظة اشتعلت نار سرّية في قلب زين وهي تقرر: سألقي القبض على حياتي دونما معونة من أحد وبالمقابل لن أسمح لأحد بعد اليوم بالتدخل في قراراتي حتى بإبداء الرأي.. إذا لم أطلب أنا ذلك منه.

* * *

نامت. لم تنم. حلمت. لم تحلم. عالجت نفسها بكتابة مذكراتها قبل النوم. تلك المرأة القوية التي تقطنها تولّت هي كتابة سطور نارية تفرح بها لأن والدها لن يرافقها إلى المحكمة.. وتقرر بهدوء أنها لو كانت تعرف التفاصيل الرسمية لإنجاز معاملات الطلاق لرفضت حضور حتى المحامي نجاتي. وكتبت عدة مرات في الصفحة ذاتها: أريد إلقاء القبض على حياتي.. أريد امتلاك مصيري.. لا أريد الإتكال على أحد غير ذاتي.. أريد أن يكون لي حق الخطأ كأي رجل في زقاق الياسمين وحق تصحيحه أيضاً من دون أن يهتاج الجميع.. نامت وبومتها تغرّد لها.

إنه صباح اليوم الموعود **(لم أنم جيداً بين كابوس وآخر.. وأرق وآخر. لكنني منتعشة ومستثارة كعبد سيعتقونه ذلك النهار)**.

من النافذة تهب روائح الربيع الدافئ بعد شتاء قارس القلب جرَّح دمشق بثلوجه.. **(كنتُ أعمل حتى وقت متأخر في مكتبة الجامعة استعداداً لامتحانات آخر السنة، والريح الشتائية مجنونة مطلقة السراح تنوح بين العواء والصراخ البشري. المقعد الوحيد الفارغ على الطاولة الكبيرة تصادف أنه قرب النافذة. جلستُ عليه. توقفت سيارة خلف النافذة في حرم الجامعة والمذياع يصدح بصوت بديع آسر: «سنرجع يوماً إلى حيّنا ونغرق في دافئات المنى. سنرجع مهما يمر الزمان وتنأى المسافات ما بيننا.. سنرجع خبِّرني العندليب غداة التقينا على منحنى...»، وفجأة.. أطل وجه وسيم خلف النافذة. عدوانياً يتجسّس عليَّ على الرغم من أنني كنتُ قد أعلنت هجري له واحتفظت بسرّي: إجهاضي لطفله.**

أشار لي بيده كي أخرج. كدتُ أدير مقعدي وظهري إليه وأتابع عملي ثم اكتشفت أنني لا أريد أن أتحداه ولا أن أستفزّه، وكل ما أريده هو أن أُطلّقه ولا أراه ثانية في عمري كله. وهكذا نهضتُ وغادرتُ المكتبة خوفاً من دخوله إليها وتصرّفه على نحو فضائحي عنيف كما فعل يوم جاء إلى بيت أبي صارخاً: الآن يجب أن تعود معي إلى البيت وإلا سأطلبها إلى بيت الطاعة وأتزوج عليها.

كان ينتظرني أمام مدخل الجامعة وفي يده حزمة من الصواعق وأصوات الرعد. ارتحتُ لذلك لأن الصخب وضوضاء الأصوات لا تخيفني، بل أصوات الصمت هي التي تخيفني، وكان يجهل تلك اللّغة لحُسن حظي. فتح لي باب سيارة فاخرة جديدة وقال بلهجة عدوانية: إصعدي. وشعرت أنني أصعد إلى تابوتي. لم أقل كلمة. وهو

أيضاً لم يقل كلمة بل انطلق بي وهو يقود السيارة كالمجنون. وغادرنا دمشق إلى إحدى ضواحيها.. إلى مكان مظلم.. إلى سور مقبرة. قال لي: إنزلي. هبطتُ من السيارة وسألته بهدوء: ما الذي نفعله هنا؟ وشهر مسدساً وصوّبه نحوي ثم دفعني للوقوف أمام سور المقبرة كما لو كانت منصة إعدام وقال لي: هذه مقبرة حُسني الزعيم. وستكون مقبرتك إذا رفضتِ العودة إليَّ.

من أي جنون جاء صوتي الذي انفجر ضاحكاً وأنا أقول له: لا تستطيع أن تعيد إلى الحياة الحبَ الميت. ما كان قد كان.. وانتهى الأمر. أطلق الرصاص صوبي(؟) لا أدري ما إذا كان فشل في إصابتي أم أنه تعمّد تخويفي فقط، وهو ما أرجّحه. وفي الحالتين فشلتْ خطته. وحين انطلقتُ راكضة لم يحاول اللحاق بي، وحين استوقفت سيّارة عابرة وقف مذهولاً وتخيّلته يُحدّق مرتبكاً نصف مذعور من امرأة قرّرت التخلص منه ولا تخشى الموت حقاً بل تخشى الموت بالإذلال الزوجي.

توقفت السيارة. نظر السائق إليَّ وسألني: ما الحكاية؟ قُلتُ؛ آسفة: تعطلت سيارتي. هل تستطيع أن تقلّني إلى قصر الضيافة أو إلى أبو رمانة، أو شارع البرلمان، أو شارع بغداد؟ قال: إصعدي. المرأة التي ترافقه تبدو لي أنها زوجته، نظرتْ إليّ بارتياب شديد وقالت: «شو جابك لهون؟». قُلتُ لها: «إللّي جابك أنت!!». ضحك الزوج، و"زورتني"[1] المرأة، ظللتُ صامتة بقية الطريق، أما السائق فحاول استدراجي للكلام عمّا يدور. فتذكرتُ الشاب الذي أوصلني إلى عيادة الطبيب يوم أطلق النار عليّ إبن عمتي متظاهراً بأنه كان يصطاد عصفوراً واهتزتْ يده وكُنا يومها في قرية الريحانية.. هذا بعدما كان قد ذبح بومتي وتركها لي على سريري كبرقية إنذار. وكان ذلك كله عقاباً لي على نشر كلمة لي في بريد القرّاء إلى جانب صورتي (يا للفضيحة!!).

خفتُ في إحدى اللحظات من اختطافهما لي. لماذا لا أقول لهما ما الذي كنتُ أفعله أمام سور مقبرة موحشة؟ ولم لا؟ إنهم يختطفون الناس من أجل المال أو السلطة، لكن لن يدهشني أن يخطفني أحدٌ بدافع الفضول.. فقط لأروي له قصة

---

(١) عبست في وجهي.

حياتي وهي حكاية طويلة جداً. . فأنا عجوز وصار بوسعي بحكم القانون أن أطلب شهادة خاصة بحقي في قيادة السيارة. . وما يهمّني حقاً هو أن أقود سيارة حياتي. . وسأبدأ بذلك من قصر العدل في جلسة الطلاق بعدما عانيت الكثير من تعنّت زوجي للوصول إلى تلك اللّحظة المباركة: الطلاق. وحين استيقظت صباحاً، لم أقرع باب أبي لكنه هو من قرع بابي وهو لا يجهل أنني عاجزة عن النوم).

حين أنجزت زين استعدادها للذهاب إلى المحكمة في قصر العدل قال لها والدها بصوت مخَّضب بالحنان: سأرافقك إلى جلسة الطلاق في المحكمة. قالت له بصدق: قلت لك لا أريد ذلك. أريد الاعتماد على نفسي وتصحيح أخطائي بنفسي ثم إن المحامي نجاتي سيكون الآن بانتظاري أمام الباب. (ها أنا واقفة أمام القاضي في قاعة المحكمة وقد وقف زوجي قرب باب الخروج. اقتربتُ أنا من القاضي دونما وجل، فقد كانت أجنحتي التي اكتشفتها للمرة الأولى تخفق وعلى وشك أن تطير بي. نظر القاضي إليَّ بعدوانية ظاهرة.

كيتيمة أمٍّ منذ الطفولة لديَّ حاسّة أعرف بها من يحبّني ومن يكرهني ويريد إيذائي إذا ٱستطاع. نظر إليّ هذا القاضي ـ الذي فُوجئت بأنه شيخ معمّم أم أنهم جميعاً كذلك في المحكمة الشرعية؟ ـ كما لو كُنتُ بعوضة على جبّته، وتذكرتُ أن المحامي نجاتي دُهش قليلاً حين شاهدني أهبط من البيت إلى سيارته دونما غطاء للرأس ـ فذلك لم يخطر لي ببال ـ وبثوبٍ أبيضٍ أنيقٍ كأنه تصغير لثوب عرس. وتذكرتُ أنه كان مسروراً بذلك ـ من دون أن يقولَ شيئاً ـ ربما لأنه كما وصفته عمتي "شايوعي"[1] يا لطيف!!. .

سألني القاضي: أين وليّ أمرك؟ على الرغم من أن المحامي نجاتي كان قد أوصاني بعدم الردّ وإغلاق فمي الكبير وتركه هو يجيب، لكن السؤال استفزّني وسارعتُ للإجابة: أنا وليّة أمري وأُريد الطلاق. بهدوء بارد كمبضع جرّاح قال لي القاضي: لم أسمعك جيداً. هنا تدخل المحامي وقال: يا سيدي لديّ وكالة من والدها، وليّ أمرها. .

فطلب القاضي منه أن يقول لي ـ كأن مخاطبتي مباشرة تدنّس لسانه ـ إن عليَّ أن

---

(١) شيوعي.

أبريه (أي زوجي) من حقّي ومستحقّي إذا وافق هو على تطليقي. والتفتُ إلى الخلف وأنا أُطلق الصواعق من نظرتي التهديدية إليه: وإذا لم توافق سأذيع أسراراً لا تسّرك أبداً.. فقال زوجي باقتضاب وتهذيب "إبن عيلة": أوافق. أحنى القاضي رأسه لكلام زوجي وأنجز الأمر بسرعة أذهلتني.

إلا أنني لم أتشاجر مع القاضي حين طلب من المحامي نجاتي التوقيع على الوثيقة قبل توقيعي. غادرنا القاعة ولم ألتفت إلى الخلف بل كان هاجسي مغادرة مبنى "قصر العدل" الذي طالما مررتُ أمامه برفقة أبي ونحن في طريقنا من زقاق الياسمين فالجامع الأموي فسوق الحميدية لزيارة عمّتي في حيّ الحلبوني خلف "محطة الحجاز".

أمام الباب قال لي المحامي نجاتي بمودّة: مبروك طلاقك. فقد سَعيتِ إليه بكل قواك. هل تريدين أن أعيدك إلى البيت؟ قلت له: لا. شكراً لك أريد أن أمشي.. أن أمشي للمرة الأولى في حياتي بلا عكّاز.. أن أمشي كما يحلو لي من دون أن يرافقني أحد.. وشكراً لك ثانيةً. واقتربت منه لتقبيله على جبينه كما كُنتُ أفعل وأنا بنت صغيرة، لكنه ابتعد محرجاً وهو يتلفت حوله وقال: الله معك.

وركب سيارته وانطلق بها كمن يهرب من امرأة ذاهبة إلى هلاكها. قطعتُ الشارع إلى الرصيف الثاني حين لمحت مُطَلِّقي أو بالأحرى مُطَلَّقي يقترب مني. لقد انتهى الأمر. في قلبي غصّة. سأفتقد خاله الشاعر الرائع ووالدته ووالده وأخوته وخالاته وأولادهن.. لكن ذلك كله يجب أن أضع خلفه نقطة النهاية على سطر حياتي. مشيت بحذائي الأبيض ذي الكعب العالي المدبب الذي كنت أغرسه في كل خطوة في الإسفلت والرصيف كإعلان عن رسوخ قدمي. مشيت ولم ألتفت إليه. انتهى الأمر. مشيت مارةً بـ"محطة الحجاز" وساعتها ما زالت معطلة منذ أعوام كزمن مدينتي!

انعطفتُ هبوطاً.. وقد تمّهلتُ على الجسر وأنا أقبّل نهر بردى بروحي وتابعت المشي حتى دكان عمو أبو عمر للسكاكر والحلوى والشوكولاته.. وكان كل واحد من معارفه يدعوه باسم واحد من أولاده الصبيان. كان يحملني في صغري كلما زرناه أنا وأبي ويحشو فمي بالسكاكر. هذه المرة شاهدني وأشاح عني بوجهه. تراه لم يعرفني لأنني كبرت، أم أنه غاضب عليَّ لأنني جرؤت على الزواج برغم اعتراض أبي؟

أمرّ بمقهى "البرازيل" على الرصيف الثاني وأتابع المشي حتى مقهى "الهافانا" وتفوح من طاولة على الرصيف رائحة القهوة. أريد فنجان قهوة وأملك ثمنه. بهدوء جلست على مقعد أمام طاولة شاغرة. لاحظتُ أن الرجل الجالس إلى طاولة مجاورة يحمل في يده إبرة يتدلى منها خيط أسود وهو يخيط فمه باتقان ليغلقه تماماً. على الجدار المجاور لطاولتها نبتت آذان كبيرة حمراء تشبه كثيراً الأزهار آكلة اللحوم وتفوح منها رائحة كريهة نتنة مثلها.

لاحظت زين أيضاً أن لا امرأة سواها في المقهى. جاء النادل وعلى وجهه أمارات الدهشة، وقد سرى هدوء في المكان إذ توقف بعض لاعبي النرد عن اللعب وحبست زين أنفاسها: لعلّهم يحدّقون بي متسائلين من هي؟ كيف تجرؤ بنتٌ على الجلوس في هذا المقهى؟!).

وفوجئتْ بغزوان الذي تصادف أنه كان في ذلك اليوم في المقهى مع رفاقه **(ها هو يتجه نحوي وهو يحدّق في وجهي)**. قال لها غزوان بلهفة: يا إلهي. أنت فتاة "جنينة السبكي"!.. كم أنا سعيد لأنني وجدتك. يبدو أنني لم ألاحظك حين غادرت صيدلية كدورة أم تراك هربتِ مني؟

سَعدتْ زين بإشراقة وجهه واقفاً أمام طاولتها بغمازة ذقنه الجميلة. لا تدري لماذا تمنت أن تروي له ما حدث لها منذ لقائهما الأخير. لكن في أعماقها بدأت تتعلم لغة الصمت. شعرتْ أن بوسعها أن تغرق في غمازته وبركة ذقنه تلك.. ابتسمتْ بسعادة حقيقية وهي تراه. سألها بتهذيب عرفته منه وهو يجذب مقعداً: هل تسمحين؟ أجابت: تفضّل.

سألها: من أنتِ؟ ما اسمك؟ إنك تشبهين الكاتبة الناشئة زين الخيّال التي أرى صورها.. هل هي أنت؟ أجابته من دون أن تكذب: وما الفرق؟ أنا مخلوقة تريد إلقاء القبض على حياتها واكتشاف أجنحتها.. وهذه جملٌ لم أسرقها من كُتُبي المدرسية ولا من قصة لك طالعتها في مجلة "الناقد".

نظر إليها بكثير من الحب المسرف وقررت ألا تصدّقه وألاّ تصدّق ذلك كله وهي تتذكر أنه لم يمضِ على طلاقها ساعة واحدة.

أدهشها أنها تلتقي به على مفارق حياتها.. إثر إجهاضها.. إثر طلاقها.. ما هذا الرجل الذي يُشبه القدر (**لا. لن أحبه. لن أسعى إلى حتفي بنظراتي المشغوفة بهذا الوجه العسلي الوسيم، وبعينين مغارتين في قمر الأسرار.. لا.. سأعود إلى وكر أوراقي وأقلامي حيث أجد الأمان**).

سألها: هل تريدين فنجان قهوة آخر؟ وعلى الرغم منها سمعت صوتها يجيب: نعم. أريد!.. أدهشها ذلك. إنها لا ترتاح لهذا العصيان الجديد في حواسّها وستقمعه بنجاح مستعينة برمح قلمها المخدر كإبرة أفيونية هديةً من الشاعر كولريدج[1]. (**لا.. لن أدع حباً يخلخلني من الداخل بعد اليوم. أقسم ألا يذلّني الحب ثانية**).

نهضتْ فجأة لحظة وصول فنجان القهوة الذي دعاها إليه، وقالت: وداعاً. ولم تنتظر جواباً. لحق بها وجلوس مقهى "الهاڤانا" يجذبهم ذلك المشهد الاستثنائي. قال لها غزوان: ما رأيك بأن نبدأ من جديد وأدعوك إلى فنجان قهوة في المقهى المقابل، في "البرازيليا"؟ أرادت أن تقول: نعم، ولكنها قالت: لا بقواها كلها. تأملته. هذا رجلٌ قد تحبّه وعليها الهرب منه. ولماذا تحبّه وهي لا تعرف عنه شيئاً غير أنه فلسطيني وسيم وقرأت له سطوراً رائعة في الجريدة؟ إنه مرهف ومجنون وكهاربه الروحية تلتقي مع كهارب روحها (**أيتها المجنونة. لقد توهمت ذلك من قبل وها أنتِ تحتفلين اليوم سراً بطلاقك. هل تبحثين عن فجائع جديدة؟ هل نسيت كم تألمتِ؟**).

قالت له ثانية: لا. شكراً. عليَّ أن أذهب الآن. جاء ذلك الصوت الذي تكلمت به من قاعها كأنه ليس صوتها بل صوت امرأة عاقلة جالسة تكتب وتتأملها بنظرة محايدة كما تتأمل كل ما حولها بعدالة غير منحازة لمنطق الدموع وثرثرة القلب (**إذا افترضتُ أنه الرجل الصحّ، فهو الرجل الصحّ في التوقيت الخاطئ**).

أذهل زين أنها تحبّها وتطيعها وتلتحم بها تلك الكاتبة القوية العقلانية في قاعها. شعرت بصداع وبالحاجة لقرص "أسبرو" كجزيرة أمان ولذا قالت لغزوان بهدوء: أريد الذهاب إلى صيدلية كدورة.

---

(١) من المعروف أن الشاعر الكبير كولريدج كان يتعاطى الأفيون وكتب عن ذلك قصيدة «آكلي اللوتس».

قال لها بذكاء ساحر: حسناً. سأوصلك ثانيةً إلى هناك وأنا أعرف أنك ستختفين! ولكن سأكرر طلبي منك، قولي لي: هل ترضين بالزواج مني أيتها الصغيرة التي لا أعرف إسمها؟ **(لا يطلب الزواج مني إلا إثر إجهاضي أو طلاقي. إنه حقاً رجل التوقيت الغلط)**.

انفجرت زين ضاحكة وتركته يسدّد الحساب للنادل وهربت منتهزة فرصة انشغالهما بإحصاء النقود، وارتمت في تاكسي تصادف مروره لحظتذاك وأنقذها.

حين وصلت إلى البيت لم تجد والدها. لم تجد أحداً لكأنهم هربوا من "المواجهة". أفرحها ذلك لأنها كانت بحاجة ماسّة إلى معانقة حبّها الأوحد الكبير، الورقة البيضاء التي تسطّر عليها إشارات سرية مثل الكتابات في المغاور..

في غرفة المكتبة الفستقية العائدة لوالدها حيث جاءت بحبيبها ذات يوم والكلّ نائم في البيت والتحمت به بشغفٍ، وطلّقته بعد ذلك هذا الصباح متنصّلة من كل ما كان، بل طلّقته بشغف صباح هذا النهار الربيعي.. في تلك الغرفة بالذات، التحمت زين من جديد بالورقة البيضاء. جلست ولكن خلف طاولة والدها.. جلستْ مع حبيب لم يخنها: القلم.

تُتابع زين كتابة خواطر لا صلة لها بتفاصيل الأحداث الشخصية ليومها، بل وثيقة الصلة بتمرّدها على كل ما كان. لم تكتب فجيعتها بزوجها "السابق"، بل بنفسها وبضعفها البشري وبأخطائها كأنها تكتب نفسها.. وهمستْ للورق: الآخر هو أنا أيضاً.. وفي تلك اللحظة فاجأها والدها في غرفة مكتبته قائلاً: بحثتُ عنك في كل مكان.. في قصر العدل والطريق إلى البيت، بل ونادیتك حين وصلت.

قالت بحرارة: آسفة يا أبي لم أكن هنا.. كُنتُ في مكان آخر.. في "بيت الأبجدية".

قال أمجد: أخبرني المحامي نجاتي عن تحدّيك للشيخ القاضي.

قالت بصدق: لم أتعمد ذلك وهذا هو الماضي. سأحاول أن أكتب الآن على صفحة جديدة. ثمة صفحة من عمري انطوت إلى الأبد ولا أريد التحدث عنها. هنا أطلق والدها تنهيدة راحة كأنه هو أيضاً لا يريد نكء الجراح إياها.

حين ذهبت زين إلى فراشها لفتح نافذة في وسادتها تهرب منها إلى عالمها

السّري الصغير بذريعة النوم، طلع عليها وجه غزوان الذي أقلّ ما فيه هو وسامته، فمن عينيه تشعّ خيوط من العزم والحزن والحبّ.. وتذكرت أنه كاد يوصلها ثانيةً إلى صيدلية كدورة كأنما ليمتحنها: هل ستهرب منه مرّة أخرى؟. وفعلت ذلك بأسرع ممّا توقع!

* * *

(لولا مرضي لما سمحت لبناتي بمغادرة البيت إلى حانوتي لبيع البروكار الشامي الأصلي. قيل إنني جننت، وربما كان ذلك صحيحاً لأنني لا أذكر شيئاً من تلك السنوات التي عاقبني الله فيها على ما فعلته بهند).

لم يكن عبد الفتاح يستسيغ عمل بناته في حانوته الكبير لبيع البروكار. ضايقه تبدّل في شخصيتَيْ فضيلة وحميدة. لم تعودا "داجنتين" كما يحب أن تكون المرأة. صار فيهما ما يذّكره بهند زوجة أخيه التي ماتت وخلّفت في نظره شيطاناً إسمه زين.

لكنه بالمقابل صار يرتاح للبقاء في البيت متهماً الأدوية التي يتعاطاها بأمر الطبيب، معلناً أنها السبب. يحب أن يقضي نهاره في البيت الكبير في زقاق الياسمين متربعاً على البساط الممدود فوق أريكة حجرية مغطاة بتلك القبة التي تكسوها النقوش والمقرنصات وتحوطها المساند الملصقة بالجدار الخلفي وراءه. يحب الإنصات إلى تنهّد الماء على جدار السلسبيل وفي الفسقية المرتفعة المطّعمة بالفسيفساء الرخامية، محاطاً بعطور "الديار" التي تهبّ من أحواض الياسمين الأبيض و"العراتيلى" والفلّ والريحان وفي يده سبحته. منذ موت هند، والدة زين، وقد اتُّهم شخصياً بالتسبّب فيه، تبدّل حاله وصار تعيساً. كل ما فعله أنه رفض إحضار طبيب ذكر "يكشف" على الحريم، فأمعنت نزيفاً بين يدي الداية.. **(إني نادم. لا لستُ نادماً. نعم. لا. نعم. لا...)**.

يكره رنين الهاتف. فضيلة لا تجيب، فهي تستعد ليوم جديد من العمل. ترد فلك. تسمعها ترّحب على نحو استثنائي بالمتكلّم وتعرف أن مُطاع يزداد لجاجة. يطول الحوار أكثر من المعتاد. باقتضاب تنادي الأم فضيلة وتغلق فتحة السماعة بيدها وتقول لها بصوت مبتهج: "كتب الكتاب" يوم الجمعة بإذن الله والعرس بعدها بأسبوع في فندق "الأوريانت بالاس" ودقّي يا مزيكة.. عرس مطنطن وهو هدية منهم مع أن المفروض أن العرس علينا نحن.. كلّميه.. أمه تريد أن تراك في بيتها

لأنها مريضة. تريد أن تحدّثك كما ذكر مطاع.

رمت الأم بسماعة الهاتف في يد فضيلة فشعرت أن ثمة من وضع أفعى في يدها على وشك أن تلسعها. جاءها صوته الكريه (في نظرها) الذي تبتهج به الأسرة قائلاً: الماما مريضة ولا تستطيع زيارتك لكنها تريد أن تحدّثك وتبارك زواجنا. سأمر بك "على الشغل" بعد الظهر ليوصلنا السائق إلى البيت، فلدى أمي أمر هام تريد أن تطلعك عليه يخصّني طبعاً وأظنه حول عاداتي وما أحبه أو أكرهه من الطعام.. وأمور كهذه. لن ترفضي طبعاً الاستماع إلى أم مريضة سعيدة بتزويج ابنها. وقبل أن تعترض فضيلة على تعبير "تزويج ابنها" بصفتها الكائن الحيّ الذي لديه مشاريعه المستقلّة وقد لا تتزوج منه...

وقبل أن تقول له ما سبق أن كررته على مسامعه كلما انتظرها وقت خروجها من عملها، وهو ببساطة: أنها لن تتزوج منه لأنها لا تحبّه وتحبّ رجلاً آخر.. قالتها بصدق يوم "تلبيس الخواتم" وقراءة الفاتحة (عن روحها كما شعرت!). وحين قالت له أنها تحب رجلاً آخر في السهرة ذاتها، شعرتْ بأن حبَّه لها اشتعل كما لم يكن أبداً. وحين روت ذلك لزين قالت لها إن الذي اشتعل ليس حباً بل رغبة في الامتلاك.. وإن الرجال يخلطون دائماً بين الحب وحُب الامتلاك، والنساء قلّما يُميّزن بين الأمرين ويدفعن الثمن باهظاً.

يومها سألها مطاع بسخرية مشوبة بالخشية: ومن هو الباشا الذي اختاره قلبك؟

أجابته ببساطة: إنه معلم مدرسة فقير، وشاعر وأحبّه.

قال لها ساخراً: فليتفضّل وليسدد فواتير الكهرباء والماء وإيجار البيت بالقصائد.. وأضاف وهو ينظر إلى الخاتم الماسي الذي أهداها إياه: وليقم بإهدائك خاتماً من جواهر الشعر ودرره.. يومها لم تجبْ. كان حزنها أكبر منها هي الواقعة بين مطرقة الأهل وسندان العريس المثالي المفترض.

ما كادت تصل إلى دكان البروكار حتى أمطرها مطاع بالاتصالات الهاتفية عن حاجة أمه للقائها والتحادث معها، فقد يقعدها المرض حتى عن حضور "كتب الكتاب". لم تقلْ له إن ذلك لن يحدث على أية حال وقرَّرت الذهاب إكراماً لخاطر مُسِّنة مريضة تريد تزويج ابنها.

جاء بسيارته الفخمة ونزل السائق لفتح الباب لكن مطاع سبقه إلى ذلك "زيادة"

في تكريمها. وصعدت فضيلة كمن يصعد بنفسه إلى تابوته. تتأرجح بين الفضول والنفور. في عيني السائق المسّن الذي يفتح لها بابها نظرةً لم تدرِ كيف تفسّرها، فيها بعض التحذير المتحفّظ والخشية والإشفاق. إنها المرة الأولى التي تدخل فيها إلى بيت مطاع الفخم في "شارع القصور"، بيته الذي يختلف بطراز أثاثه الغربي كثيراً عن البيت الجماعي الكبير في زقاق الياسمين: المصعد الكهربائي، فالأثاث الأوروبي الفاخر، فالثريات الكريستالية المتلألئة التي تعكس ضوءاً قمرياً باهراً. تناول منها معطفها. أحكمت ربط حجابها حول وجهها وعنقها. وبنبرة دليل سياحي قال لها: هذه الثريا من مدينة البندقية، واللوحة على الجدار من "الأوبوسون" الفرنسي، والمصابيح المرشوشة من "السيڤر" و"الجاليه"[1].. وكلها من "المارشيه أوبوس"[2] الباريسي، وإناء الأزهار مسروق من قصر "شون برون" من ڤيينا، لكن والدي لم يستطع مقاومة جماله فاشتراه. المقاعد من طراز "لوي كاتورز" من الشارع الباريسي "فوبور دي سانت أونوريه"، واللّوحات اشتراها أبي من مزاد وهي...

قاطعته فضيلة بطفولة مناكدة وقد تعبت من تبجّحه: ولكن جدران البيت من الباطون وجدران بيتنا من جذور الجامع الأموي وكنيسة القديس بولص فم الذهب وليس في بيتكم أسماك ملّونة في البحرة في الديار ولا عرائش ياسمين.. وليس عندكم في غرفة الإيوان سلسبيل...

قاطعها وقد انفجر ضاحكاً: ستتعلمين حب ما عندي وحبي..

قالت بتحدٍ: قد أفعل ذلك لكنني سأظل أيضاً أُحبُّ ما أحبّه. وأضافت باقتضاب: هلاّ قدتني إلى الوالدة المريضة التي تريد أن تحدثني؟

- بل سأحملك إليها.

تقدم منها فجأة. تسمعه يلهث وتتسع فتحتا منخريه وتتسارع أنفاسه الصاخبة وهو يحملها ليطرحها أرضاً. ذهول ينتابها وهي لا تدري ما يحدث فجأة. فقد تحوّل إلى وحيد قرن هائج، ينطح فستانها الأحمر فيمزّق الأزرار والملابس الداخلية

---

(١) السيڤر - الجالي: إبداع فرنسي سيراميكي باهظ الثمن وجميل.

(٢) «سوق البرغوت» حيث تباع الأنتيكات في باريس.

ويدس بقرنه بين ثدييها وبأسنانه يعضّها.. ينطحها هنا وهناك، يضربها ويؤلمها، وبقرنه الذي طال ينطحها في موضع أنوثتها في ضربة موجعة سريعة. تصرخ ألماً. يغرس قرنه كأنه آنتشى بصراخها وهو يغلق فمها بأظلافه.. تحاول أن تقاوم "وحيد القرن" الذي يجثم بثقله الهائل فوقها وتعجز عن الحركة، وهو يغرس قرنه جيئةً وذهاباً كمن يطعن بسكينه جسداً مرات عدّة في الموضع ذاته.. كان ذلك تعذّياً أليماً... تصرخ وما من صوت يندّ عنها وهي تحت حوافره وقائمته الأمامية تسدّ فمها وتكاد تحرمها من القدرة على التنفس.. وعت أنها عارية إلا من حجابها وأن "وحيد القرن" يحب ذلك إذ أمعن طعناً...

تسمع الحيوان منتشياً يُطلق صوتاً يؤلمها: آه.. آه..، وهي تريد أن تصرخ ألماً: آه.. آه.. بعد ثوانٍ أو دقائق سمعت صوت مطاع آمراً: لقد أغمي عليك أيتها الحمقاء بدلاً من الاستمتاع بجسدي. الآن تأكدتُ من أنك عذراء ولم تعودي كذلك. لا تقلقي. سنعقد القران بعد غد ولن أتخلى عنك ولكنك تدفعين ثمن الوقاحة برفضك الزواج مني، فقد صرتُ سيدك وآمرك ومالكك وما من أحد سواي سيرضى بالزواج من "ثيب" مثلك. لقد قضيتِ الشهور الأخيرة "متبغددة»[1] في رفضك الزواج مني وإهانة رجولتي.. والآن جاء دورك لتقبيل حذائي كي أستر عليك، ولأرضى بالزواج من امرأة ليست عذراء وسأقول إنني لا أدري من انتهكها، ولعلّ عشيقها التافه الشاعر معلّم المدرسة نجم من غرَّر بها. سألته وهي ترتجف: وأين أمك التي تريد أن تراني؟ قال ساخراً: أمي في بلودان تعدّ البيت.. هل صدّقت حقاً إنها تريد محاورتك؟

حفرت كلماته هذه عميقاً في لحمها لكنها لم تفهم أبعادها. كان هاجسها الوحيد أن تقول لنجم ما حدث وأن تعود إلى البيت وتستحم طويلاً.. طويلاً.

مهيضة الجناح نزلتْ إلى السيارة من دون أن يشيِّعها مطاع حتى بالتهذيب المعتاد كفتح الباب. لم تبدُ على وجه السائق الدهشة، كأنه ألف هذا النمط من المشاهد والنساء عاثرات الحظ وربما الباكيات.. لم تبكِ. قررت أن عليها أن تقف على قدميها كما نصحتها زين مباهية بطلاقها. لم يرافقها مطاع في طريق عودتها إلى

---

(١) تختال وتتدلل.

مصيرها. بصوت مرتجف قالت فضيلة للسائق: أرجو أن تتوقف أمام حانوت ما لإجراء اتصال هاتفي ضروري أريد القيام به. قال بإشفاق: حاضر يا آنسة. وشعرت بنبرة سخرية في عبارته: يا آنسة.

في "الدكان" طلب منها صاحبه دفع ثمن المخابرة مقدماً وسيقوم بإدارة القرص بنفسه لكي لا يكون الاتصال خارجياً.

يرن الهاتف في بيت نجم. يُردّد قلبها: أرجوك أن ترد. أرجوك أن تفعل.

حدثت المعجزة في نظرها. جاءها صوته عبر السماعة: ألو.. كأن تلك الكلمة هي الحبل الخاص الذي ستتسلقه إلى أرض الضوء والنجاة.. حبل النجاة..

تقول باقتضاب كمن يلفظ آخر أنفاسه: أريد أن أراك أمام "دندرمة بكداش"[1] بعد عشر دقائق. ممكن؟

يجيب: حاضر.

تطلب فضيلة من سائق مطاع أن يذهب بها إلى مدخل سوق الحميدية.

لا تستطيع السيارة اختراق ذلك الشارع المزدحم المغطّى بالسقف المراوغ مع المطر وستمشي قليلاً حتى محل "دندرمة بكداش". يدهشها ألمها البالغ حين تمشي ويخيفها شعورها بسائل حار يسيل منها على فخذيها لعله دمها! تصل أمام "بكداش" وتسمع قرع المدقّات الخشبية العملاقة في أجران البوظة. صوت أليف تسيل دموعها له (أم لأمر آخر كما تقول لنفسها؟). ها هو نجم واقفٌ ينتظرها. ودونما أية مقدمات تقول له ودموعها تكاد تغطي وجهها: لقد اغتصبني مطاع كي لا أقول "لا" يوم "كتب الكتاب"، لقد اغتصبني وقال إنني سأقبّل حذاءه كي يرضى الآن بالزواج مني.

تكاد تضع رأسها على كتف نجم، لكنها مثله تعي عيون المتطفلين المحيطة بهما، فيهدئ من روعها وهو يسندها واقفة ويقول لها باختزال: أنا سأتزوج منك. أحبك.. أجل أحبك.. أنت في نظري نقيّة وهو العاهر القذر.. الثور. يدهشها أنه قال "الثور".. فقد كان قرناً حيوانياً جهنمياً بالفعل!

---

(١) بائع بوظة شهير في سوق الحميدية. والدندرمة: البوظة باللهجة الشامية في الزمن الذي تدور فيه الرواية.

تتمنّى لو تعانق نجم بشدة لكنهما في "سوق الحميدية" وفي عزّ الزحام. فتعانقه بنظراتها حتى الثمالة وهو يؤكّد لها: جسدُك ليس وحده حبّنا. روحك وإرادتك وشجاعتك هي المحك..

ولا تدري لماذا شعرتْ بلذعة من سوط الحذر.. تذكرتْ أنه ينتمي إلى أحد الأحزاب، فهل سيصنع منها شهيدة إيديولوجية نكاية بالآخر أم أنه يحبّها حقاً؟ للمرّة الأولى تتأكد فضيلة من أن كلمة "النهاية السعيدة" في السينما ليست كذلك في الحياة وأنها تقفز من فخ إلى آخر..

حين وقفت تحت رذاذ الماء في الحمام العتيق الذي مدّوا له قسطلاً بشعاً فوق الجدار، قالت لنفسها إن "نجم" قد يكون ثوراً آخر على نحوٍ ما.. لكنها شعرت بأنه ليس من حقّها أن تظلمه.. **(عليّ أن أكون حذرة من كل شيء وأكون كائناً مستقلاً لا يريد البكاء من أذى أحدٍ على كتف شخص آخر قد يكون أكثر إيذاءً لي. عليّ أن أستقلّ بنفسي أنا البنت نصف الجميلة نصف الناجحة).**

* * *

تستعد زين للذهاب إلى عملها. رن جرس الهاتف. أجابت "التيتي"[1] أنها إحدى خالاتي من اللاّذقية. سألتني بلهفة: هل من الصحيح أنه طلّقكِ؟

أجابت زين بحدّة: بل أنا طلّقته! سألتها الخالة: لماذا؟ لماذا وكُنتِ تعشقينه؟ ماذا حدث؟ أجابت زين نصف متلعثمة وهي لا تدري من أين تبدأ الحكاية الطويلة للفراق: لقد حدث الطلاق لأنه..

وهنا انقضّت جدتها على سماعة الهاتف وأغلقت بيدها ثقوب إيصال الكلام وقالت لزين بلهجة آمرة لم تعهدها في جدتها: قولي فقط: «ما صار نصيب».

زين التي تعشق جدتها قالت كالببغاء: ما صار نصيب يا خالتي.. ما صار نصيب... وانتهت المكالمة.. وهنا سألت زين جدتها: لماذا عليّ قول ذلك حتى بعد الطلاق؟ لماذا لا أقول الحقيقة وذلك يريحني؟

قالت جدتها التي عُمرها من عُمر سور دمشق في نظر زين: يا ابنتي.. لا أحد يهمه سماع الحقيقة أو ما حدث لك.. ولا ما إذا كنتِ على حق أم لا. المطلوب قصة

---

(١) تيتي: الجدّة باللهجة الشامية.

مسلية ليوم "الاستقبال" . . وإذا أحببت أن يذاع سرك، قومي بتوصية خالتك أو عمتك أو صديقاتك بالاحتفاظ بكلامك سرّاً . . يا ابنتي أنتِ لا تعرفين البشر . . فلا تستنكري قولي. تذّكري كم أحببتِ زوجك واكتشفتِ بعدها أنه لم يكن هو "هو" . . .

لم تستطع زين التمرّد على ما قالته جدتها وفكّرت به طويلاً وقرّرت: لن يعرف أحد لماذا طلّقته حتى بعد طلاقنا . . حتى ولا جدتي!! . .

من جديد يعول رنين الهاتف. تردّ الجدّة حياة وتلتصق بها زين لتعرف بسمعها المرهف مَنْ المتكلّم. إنه خالها من اللاّذقية يطلب محادثتها. قالت له الجدة حياة: ليست هنا. ذهبت إلى الجامعة . . لديها امتحان.

دهشتْ زين من قدرة جدتها الحاجة الورعة على الكذب. ولم تعترض. صرخ الخال: قولي لزين أن أمها هند وردة خلّفت شوكة . . وأغلق سماعة الهاتف. كما دهشتْ زين لأن خالها سمّى أمها "وردة"، وكان ـ كما أخبرها والدها ـ غاضباً عليها يوم تركت مزرعة جد زين الأرستقراطي في اللاّذقية إلى "كاراج اللاّذقاني" لتستقلّ منه "البوسطة" إلى دمشق ولتعمل أستاذة للّغة الفرنسية في "المدرسة الوطنية" وتنام في القسم الداخلي للمدرسة. والدها أكّد لها أن أمها غادرت المزرعة على حصان أبيض وهي ترى لونه في أحلامها أصهب، كما ترى البومة ترافق رحيل أمها بحنان كما ترافقها اليوم . .

قالت زين لجدتها: نسيت أن أخبرك. ستأتي جهينة اليوم مساءً لزيارتنا بعد عودتي من العمل (**جهينة العسيري! البنت الصغيرة التي أحضرتها كنتي هند معها من اللاّذقية لتساعدها في الأعباء المنزلية عند زواجها وكبرت مع زين وشملتها برعايتي . . أجل أحبها ولكن . .**).

لم تكن الحاجة حياة تحب جيرانها آل العسيري حين كانت تعيش في زقاق الياسمين فبيتهم العريق أكثر فخامة من بيت آل الخيّال، بل ويجده البعض أكثر فخامة حتى من "قصر العظم". لكن الحاجة حياة تجد البيوت كلها المحيطة بالجامع الأموي في زقاق الياسمين بالذات أماكن وضيعة قياساً على بركة الجامع وتستغفر ربّها، وهي لا تنكر كراهيتها لآل العسيري لأن جارهم تزوج بنت الباشا التركي (ويا أرض اشتدّي وما حدا قدّي)[1]، فتكبّرت على جاراتها كلهن في الحيّ . . إحدى

(١) لسان حال الغرور باللهجة الشامية.

الجارات قالت إن الله عاقبهم على "شوفة الحال" والتكبّر يوم "طبس"[1] عيدو العسيري، الإبن الوحيد لبنت الباشا، بخادمة آل الخيّال جهينة واعتبرت نساء الحي ذلك كله عقاباً من الخالق لآل العسيري على صلفهم وتكبرهم... وهكذا حين حاولت جهينة لتُخبر الحاجة حياة. "ست الكل" ـ كما تدعوها ـ بأن عمّها، والد زوجها، سوف "يكتب" البيت لها ولابنها ويوّرثها إياه كانت الحاجة تعرف ذلك ولكنها أحبت التأكّد منه، لذا نبّهتها بالقول لها: إنه لا يستطيع أن "يكتب" لك أكثر من ثلثه فهو مسلم سُنِّي، ثم إن لديه صبياً وريثاً هو عيدو زوجك الذي تزوّج عليك.

قالت جهينة: نعم. ولكنه وهبني وابني البيت الآن في حياته وأضافت في الحال: أرجوك. هذا سرٌّ. لا أريد أن تعرف الجارات بذلك. ضحكت زين وقالت لها: لا سرَّ منيعاً في زقاق الياسمين لقد ذاع النبأ وشاع. وكم أسعد زين أن يقال بحسد بالغ: جهينة "صانعة"[2] بيت الخيّال، الآتية "من وراء البقر" ـ كما تصفها حماتها ـ صارت صاحبة البيت الكبير العريق!! وتكاثرت تفسيرات ذلك. البعض قال إن والد زوجها عشقها لكن شلله الجسدي ومرضه الخطير لم يتح لهذا التفسير الانتشار، والبعض الآخر قرّر أن جهينة ساحرة وبنت سحرة، وقد "كتبت" لأبو عيدو عمها، والد زوجها، حجاباً قويُّ السطوة ودسّته داخل وسادته فتحوَّل من كارهٍ لها إلى دميةٍ في يدها ووهبها البيت.

أما جهينة التي "باعها" والدها لأم زين، وهي بعد طفلة في التاسعة. فقد كبرت ببنية قوية وجمال فتّان، وكان شبّان الحيّ الذين يحومون حولها يقولون إنها نسخة عن الممثلة الجديدة الشابة صوفيا لورين[3] لكنها الأجمل...

أتقنت جهينة الدروس الدينية والأخلاقية التي أنشأتها الحاجة حياة عليها بعد موت كنتها هند أم زين، وأولها: «هون حفرنا وهون طمرنا»[4]. ولكن "الحفر والطمر" لا يجديان نفعاً في زقاق الياسمين!

---

(١) "طبس": تعبير دمشقي معناه: عشق، وقع في الحب.

(٢) صانعة: خادمة.

(٣) نجمة سينمائية إيطالية كانت شهيرة جداً بجمالها في ذلك الزمان (الخمسينات والستينات من القرن الماضي).

(٤) مثل شامي عن دفن السر وعدم البوح بمكنون القلب.

وأي سرّ بعدما ذهبت جُهينة للرقص في عرس زوجها و"جرّسته"[1] تلك الليلة. ليلة عرس زوجها مع ضرّتها، وجدتْ جهينة "عمها"، والد عيدو العسيري، مَرمياً على الأرض، على رخام "الديار"، عاجزاً عن الحركة، مُحاطاً بالثلج الشتائي نادر الهطول الذي غطّى الديار يومها. ذُهلتْ.

ها هو والد عيدو، الذي أذلّها هو وحماتها زوجته، إبنة الباشا، مرمياً أمامها على الأرض، وحيداً في البيت.. ها هو الرجل الذي عاملها كخادمة، لا كزوجة لابنه ووالدة لحفيده، تحت رحمتها. إن عيدو يُزّف الليلة إلى زوجته الثانية، إبنة التاجر الكبير، وأمه بنت الباشا ذهبت لحضور العرس نكاية بها. كانت في طريقها إلى العرس للرقص فيه انتقاماً.. سترقص بأفضل من تحية كاريوكا وسامية جمال كما تشهد نساء الحي لها.. إنها مع طفلها في طريقها لبهدلة العرس.. فإذا بالرجل الذي طالما أذّلها وقهرها مرمي على أرض "الديار" يتخبط كصرصار عجوز مقلوب على ظهره.. كان يكفي أن تتظاهر بأنها لم تره وتتركه يموت حيث هو وتمضي إلى العرس. لمعت تلك الفكرة في خاطرها، وفي خاطره إذ تجلى الذّعر في وجهه، ولكنها لم تستطع تركه يموت برداً وصقيعاً، ولا تدري لماذا حملته ونقلته إلى فراشه وأنقذت حياته وهي لا تنتظر منه إلاّ المزيد من الشتائم صباح اليوم التالي!

ودّعت زين جهينة بحرارة. ثمة رابط لا ينفصم يشدّهما معاً هو معاناتهما كطفلتين بعد موت هند. **(أنا فخورة لأنني علمتها القراءة والكتابة دونما سابق تصميم وتصور. فقد كنتُ أعود من المدرسة وأعلّمها ما تعلمته!)**.

قالت الجدة بعد ذهاب جهينة: «الضرّة مُرّة ولو كانت أذن جرّة».

أجابت زين جدتها كمن يكلم نفسه: منذ الليلة التي اقتحمت فيها جهينة عرس زوجها ورقصت فيه رقصتها المجنونة شبه عارية من دون أن تطالها قوانين المجتمع الشامي، فالحاضرات كما تعرفين نساء والرجل الذي تتعرّى أمامه بخلاعة وترقص هو زوجها وهاجرها.. منذ تلك الليلة، تمردت نساء الحي على كل من يجرؤ على إحضار ضرّة لزوجته. هل لاحظتِ ذلك يا جدتي؟.. قالت الحاجة حياة: الحق معك.. لقد ارتدعوا. أضافت زين: لقد استطاعت جهينة أن تبدّل شيئاً كثيراً في حياة زقاق الياسمين..

---

(١) جرّسته: فضحته.

تسللت الهرة الصغيرة إلى حضن الحاجة، وبدت أفضل حالاً بكثير ممّا كانت عليه يوم أحضرتها زين من الشارع.. تكاد تصير جميلة، وتمشي على نحو أفضل.. راحت الحاجة تداعبها بحنان والقطة تبدو سعيدة بالدلال الذي افتقدته منذ صغرها. قالت الحاجة لزين ضاحكة: هذا قط وليس قطة، وقد أسميته "هارون"[1].

* * *

بعد طلاق زين من وسيم، لم يعد "زعيق" الهاتف يتوقف معظم أوقات النهار. ثمة ما يشبه النشوة أمام فضيحة ما، كمن قذف بحجر أو بماسة في مستنقع خامل. رنين الهاتف من جديد. قفزت زين بسرعة لتجيب على المكالمة **(لن أستعمل جدتي درعاً!)**وحين سمعت صوت الدكتور رهيف المناهلي مهنئاً إياها على قصة قصيرة طالعها للتو في إحدى الصحف اللبنانية واسعة الانتشار، أسعدها أن ذلك الرجل الذي أجهضها يعي أنها وُلدتْ يومئذٍ ولادتها الثانية على يديه.. وصار لديهما سرّ مشترك. ثم أنه الوحيد الذي لم يقل كلمة عن طلاقها.

دعاها لشرب فنجان قهوة معه في المقهى الترابي في سفح قاسيون قائلاً: إنه يقع إلى يمين الساحة حيث تطلين على البساتين. سألته زين: وهل كلمت أبي ليأتي؟ قال لها: والدك يكره الجلوس في المقاهي حتى ذات الجمال الباذخ كما في دُمر والهامة والعين الخضرا، ولطالما رفض مرافقة الرفاق إليها.

قالت زين: حسناً. سأكون هناك بعد انتهاء عملي في الخامسة...

طوال الوقت كان القط الصغير هارون يتمسح بقدمَيْ زين وحملته الحاجة وقبّلته **(يا إلهي كم تعافى هذا القط بسرعة! صار يمشي كأي قط آخر وانكشف جمال وجهه بثراء فرائه النظيف، وله طباع خاصة به وطقوس للغنج والدعابة والتحرّش بأهل البيت.. لكنه شرس، إذ حينما حاولت الجارة فتنة ملاطفته، وقد جاءت للثرثرة عن طلاق زين، نفر القط منها بل وخمشها نافخاً في وجهها كأفعى)** وكان ذلك بالضبط شعور زين: لم تعد تريد سماع كلمة واحدة عن طلاقها.

* * *

(١) هارون: إسم شائع للقطط الذكور في دمشق ذلك الزمان.

صباح اليوم التالي استحمّت فضيلة ثانيةً وكادت تسلخ جلدها بضراوة محاولة مسح بصمات حوافره عن بشرة ذاكرتها... وثمة غليان في أعماقها ضد ذلك الوغد. تريد أن تفضحه وتعلن وضاعته على الملأ **(سأخبر أسرتي بما فعله بي الوغد مطاع ليعرفوا أي "عريس" يضمرونه لي ويحاولون إجباري على الزواج منه. سيغضب أبي ويطرده من البيت، ويكفّ عن القول له كلما زارنا: أهلاً وسهلاً بالصهر "الذي يشدّ الظهر"، والتأكيد له: «لو تعرف الأرض من زارها لفرحت واستبشرت وباست موضع القدم»[1]. وستكف أمي عن ترداد: «يا مِيتْ أهلين وسهلين ومرحبتين بهالقامة وبهالعين»[2]. سيحتقرونه ويطردونه.. وبالتأكيد سيكفون عن إزعاجي بحكاية هذا الزواج من رجل لا أحبه وتأكدتُ من أنني كُنتُ على حق حين واجهتْ وحيد القرن المتوحش هذا.. ثم إنه صفعني مرات على وجهي بقائمته الأمامية، تلك الصفعات آلمتني أكثر من اختراق قرنه لأحشائي وتفنّنه في طعني به وأنا أصرخ ألماً وأتلوى رفضاً وعجزاً عن مقاومة قوته الحيوانية. تلك الصفعات أرى أنها تركت علامات ظاهرة على خدي ستتلّون ـ كالكدمات كلها ـ ولكن بألوان الحقد كلها عندي وظلاله... أستطيع إخفاء كدمات جسدي لا كدمات وجهي.. وروحي!**

نعم سأقول ذلك لأسرتي وسأكون قد دفعت ثمناً باهظاً جداً للتخلص منه ومن لجاجة أسرتي المتمسكة به. سيحتقرونه وسيطردونه).

باختزال بالغ أخبرتْ فضيلة والديها بالأمر في مجلسهما وهما يشربان قهوة الصباح بماء الزهر وحبّات الهال: مطاع اغتصبني بعدما استدرجني إلى بيته وكذب زاعماً أن أمه المريضة تريد أن تتحدثْ إليَّ ورضيتُ بمرافقته إلى بيته.

توقعتْ أن يغضب والدها ويهتاج ويلعن "سنسفيل أجداده"[3]، لكن فُوجئت مفاجأة حقيقية أليمة كصفعة أخرى على خدها من القائمة الأمامية لأبيها إذ قال لها: أحمدي ربك لأنه كلّمني قبل قليل في اتصال هاتفي قائلاً إنه يريد "كتب الكتاب"

---

(١) باستْ: قبّلتْ.

(٢) تعبير دمشقي للترحاب بضيف مرغوب فيه.

(٣) أجداده كلهم.. منذ أقدم الأزمان.

غداً والزواج منك شرعاً.. ومن الأفضل لك أن "تسدي بوزك"[1] ولا "تتبغددي"[2] عليه بعد الآن.. واحمدي ربك لأنه سيستر عليك ويتزوجك.. ترى من سواه يرضى بالزواج منك؟..

حاولت فضيلة أن تكمل عبارتها البسيطة: هو المجرم وأنا الضحية، لكن والدها كان على وشك أن يقول شيئاً راح يشتمها..

وللمرة الأولى تقاطعه بدورها قائلة: نجم مستعد للزواج بي وأنا أحبّه.. أخبرتُهُ بالأمر فقال لي أن أستحم جيداً حمّام العرس له وأَنظّف عني وساخة مطاع. إنه يحبّني حقّاً.. وأنا أحبه...

ثار الوالد: الحب الحب.. ما هذا الهراء.. منذ زواج زين على الرغم من إرادة والدها الذي ستر عليها بجهاز فخم ولا حديث لَكُنَّ في زقاق الياسمين إلا عن هذا الهراء، "الموضة الجديدة". وها هي زين اليوم مطلّقة و"مذبولة"[3] مثل الكلبة وصورها في الجرايد والمجلات مثل "الأرتيستات"[4]، يا عيب الشوم!

ـ يا أبي.. الحب ليس موضة جديدة.. وليس العيب العيب! ولماذا الهص الهص؟ الحب لم يخترعه شكسبير في مسرحية "روميو وجولييت" التي أعطتني زين ترجمتها العربية..

صرخ: هذه هرطقات دخيلة على حياتنا.. لا أريدك أن تلتقي بعد اليوم بابنة عمك العوجاء زين.

ـ يا أبي.. قيس وليلى.. كُثَيّر وعزة.. كانوا من العرب..

قاطعها: كفّار.. كلهم كفّار.. انستري واحمدي ربك لأنه يريد الزواج منك وتقديم موعد "كتب الكتاب".. أغربي عن وجهي.. لا أريد أن أراك إلا ليلة "كتب الكتاب".. أنت بنت "مفضوحة" وغير متزوجة.. أخرجي من هذه الغرفة يا عاطلة.. يا وسخة!!

ـ أنا لم أفعل شيئاً.. هو الذي اغتصبني.

---

(١) إغلقي فمك.

(٢) تتدللي.

(٣) مُحتَقَرة.

(٤) فنّانات الملاهي وتُستخدم العبارة سُبَّة للنساء.

ـ أنت وسخة وعاطلة . . .

غادرته وهي تدرك أن لا حوار ممكناً مع والدها ولن يدعمها في أي يوم لأنها أنثى وهو الذي رمى بالقطط الإناث يوم ولدتها أمها على سور دمشق وقتلها، وترك الذكور أحياء بعدما فحص القطط لحظة ولادتها . . لحقت بها أمها وبدت مستفزة . . توقعتْ زين منها أن تدافع عنها وتتعاطف معها على الأقل . . وقبل أن تلفظ فضيلة كلمة واحدة قالت لها أمها:

أنت المسؤولة عما حدث . . ثم تعالى صوتها: أنتِ التي تصرّين على ٱرتداء ملابس ضيِّقة وحجاب مختزل، وترفضين "برالين"[1] جدتك أو وضع منديل من ثلاث طبقات مثلي.

أنتِ التي تسببت في ٱغتصابه لك فقد "هيّجته"، وعلى البنات مثلك حفظ الحدود لكي لا "يتهيج" الرجل ويفعل ما يفعله . .

أنت المسؤولة . . وأكرّر كلام والدك: إحمدي ربك لأنه سيستر عليك وما زال راغباً في الزواج منك، وكفّي عن هذا الهراء . . عن رغبتك بالزواج من رجل تحبّينه إسمه نجم، فقير و"معتر ومنتوف"[2] . . شوهالحكي الطالع النازل على الحب يا بعد إسمي . . خلصنا بقا . . انضبي وسدي بوزك . . عمل اللّي عمله فيكي مطاع لكنه رجل شريف ومستعد لكتب الكتاب غداً . . ومن حسن حظك أنه سيستر على فضيحتك . .

ـ لا أحبه . . ولا أريد الزواج منه لأنه حقير ولا أحبه . . أريد الزواج من نجم الذي أحبّه كما فعلت زين بزواجها ممن تحب على الرغم منكم جميعاً . . لم يعد بوسعك أو بوسع أي أمّ حتى في حيّنا زقاق الياسمين أن تضع جمرة على لسان ابنتها . انتهى ذلك الزمان . .

رفعت فضيلة رأسها فشاهدت الجارات على السطوح المجاورة في زقاق الياسمين واقفات كهوائيات التلفزيون، الوافد الجديد في مدينتها، وأدركت أن

---

(١) برالين: حجاب على الطريقة الشامية العتيقة، لكنه ليس عباءة. فغطاء الرأس هذا محزوم عند العنق لكن بقيته تتدلى حتى الخصر فقط.

(٢) بائس وشديد الفقر.

"الاستقبال" في بيت إحدى الجارات لن يدور عن حكاية طلاق زين بل عن حكاية "تسبيق"[1] مطاع لموعد ليلة الدخلة بيوم وليلة.. ذلك يُمكن نسيانه وتجاوزه ما دام راضياً بالزواج منها. تقول فضيلة لنفسها: هذا الزواج أرفضه ولن يتمّ، وسأفعل ما فعلته زين حين قاومت الجمرة على اللّسان. وإذا أُرغمتُ على ذلك سأنتحر كما فعلتْ بنت القبان ليلة عرسها..

«من يطيق النساء المتمردات؟ لا بد من إحراقهن كالساحرات. لن يسمح أحد بانزياح امرأة عن الخط الذي رسمه الذكور لها منذ أقدم العصور». تعيد فضيلة قراءة هذه السطور من مقالة لزين أعطتها إياها. تقرر أن تسعى للقائها وتروي لها ما حدث. لا. لا تريد نصحاً. تريد فقط من ينصت إلى بلواها بتعاطف!

في ذلك الصباح المشحون بالكهارب والغيوم قالت حميدة لأمها: سأتأخر مساءً في العودة إلى البيت. لقد انتسبتُ إلى "حزب البعث" ولدي اجتماع سياسي حزبي مع الرفاق. لم تجرؤ فلك على قول كلمة واحدة لابنتها، فهي تعرف أنه الحزب الحاكم ولا تريد جرّ المصائب على أهالي زقاق الياسمين. لحقت بها فضيلة وسألتها: هل تعنين ما تقولين أم أنها حجّة للتأخر ليلاً؟ أجابت حميدة بصدق: لا أدري. كُل ما أعرفه أنني أنا أيضاً أريد أن أكون حُرّة مثل أخي ورفاقه.. نعم أنا بعثية وليجرؤ أخي على ضربي بعد اليوم! وقد أبدل الحزب بعد حين، لكنني سأجد طريقة لكي أفرض عليهم احترامي بعدم ضربي على الأقل.

* * *

ضايق جهينة أنها في زيارتها لآل الخيّال لم تتمكن من الانفراد بزين لتشكو لها قهرها الليلي وعذابها لغدر عيدو بها.. **(أسابيع طويلة أليمة وأنا أرتجف في سريري غضباً وحسرة وألماً، لا نشوة كما كان يحدث لي أيام كان عيدو مغرماً بي.. يهمس بجنون متصاعد: جهينة.. جوجو.. حياتي.. آه.. فأنا اليوم أستمع إليه في الغرفة المجاورة يضاجع زوجته الجديدة (ضرّتي)، وهمساته وآهات نشوته التي حفظت أنغامها وأمتعتني حتى حدود الإغماء وكنتُ أحتضنها على وسادتي.. هذه كلها وسواها انتقلت إلى وسادة الغرفة المجاورة مع ضرّتي التي أكره أن أتذكّر أن لها إسماً**

---

(١) تقديم الموعد.

ووجهاً وأنها بشر مثلي. لا مفرّ لي من الالتقاء بها في ممشى البيت الكبير بين غرفتَيْ نومنا المتلاصقتين كأن لذة عيدو تأتي مضاعفة إذا كانت في الغرفة الأخرى إمرأة تحبه وتتألم لما يفعله وتعرف كل لمسة يقوم بها وكل اختراق في الجسد يمضي فيه محفوفاً بالآهات.. ولعله كان سيدعوني إلى غرفتهما لأرى بعينيّ ما يدور ووقتئذٍ سيبلغ نشوته القصوى. وإذا ما انقضضتُ عليه مسعورة بالشهوة والغيرة سيبلغ الذروة ما بعد القصوى وعلى سريره إمرأتان تتسوّلان عطاء جسده).

ذلك كله تبدّل منذ شهر، منذ بدت على جسد ضرّتي الكريهة علامات الحمل.. صار الشجار بينهما يصل إلى مسامعي عبر الجدار بدلاً من آهات النشوة.. وكنتُ أكاد أبلغ أقاصي نشوتي شماتةً بهما.. وكلما احتدّت أصواتهما شجاراً تصاعدت لذّتي.. كان صوت شجارهما يثيرني، يهيّجني، فأنطلق وحيدة في قارب المتعة.. في مياه مظلمة حتى أبلغ قمة النهر ودوار الماء.. وأتساقط مع الشلال الساخن قطرات من الجنون الكاوي الحارّ حتى درجة الغليان.. ثم أخلد إلى النوم وصوت شجارهما يهدهدني.. كُنتُ أعرف أنه يكره المرأة الحامل، فقد مررتُ بذلك معه من قبل، ولا يبالي بها كأنثى بعد الولادة.

هذه المرة كان الشجار حول أمر آخر سخيف ككل شجار آخر مرت به، شجار حول أمر من الأمور "الحيوية" التي يجدها العاطل عن العمل عيدو بك، إبن بنت الباشا العثماني، بالغة الأهمية: قضيَّة الملح في الطعام! راح يصرخ غاضباً لأنها تجرؤ على طبخ أرز كهذا بملح قليل. قالت إنها إنما فعلت ذلك بناءً على أوامر والده وطبيبه. فازداد صراخاً وهو يسخر من عادتها في ترتيب الأطباق بأناقة قائلاً: هل تظنين أن وضع الرز في قالب سخيف بصورة قلب يُحسّن طعمه؟ ثم كفي عن تزيين الأطباق بالطعام على صورة قلب. وقالت نجوى ـ وهي المرة الأولى التي أدعوها باسمها داخل رأسي ـ قالت له أن يرشّ المزيد من الملح في طبقه. هنا هاج وماج وشرح بإتقان أن طعم الملح المرشوش في الطبق ليس كطعمه حين يُوضع في الطنجرة منذ بداية الطبخ.

شعرتْ جهينة بالغثيان وهي تنصت لذلك الهراء كله ثانية صباح اليوم التالي في المطبخ وكل منهما تغلي قهوتها لنفسها، فقد ضايقتها عربدة ولد مفسود كان يضيف صارخاً في وجه نجوى: يا حيوانة.. يا كسلانة.. عليك أن تطبخي في طنجرتين،

واحدة بملح لي وأخرى بدون ملح لأبي. أجابته: لا أستطيع ذلك.. أنا متعبة و"عم بتوحم"[1]. فهجم عليها غاضباً مهتاجاً كثور وضربها على وجهها فسقطت على الأرض. جرّبت أن تنهض فاختلّ توازنها وكادت تقع ثانية. تركت جهينة ما كانت تعده من طعام لطفلها وقهوة لها وتقدمت من نجوى ومدت لها يدها ورفعتها عن الأرض من دون أن تدري لماذا تفعل ذلك. لكن عيدو استطاع ضرب نجوى قصيرة القامة المختبئة خلفه جهينة، وحاول إعادة الكرة فأمسكتْ جهينة بذراعه وهي التي تفوقه طولاً بقامتها وقوتها الجسدية وقالت له: إذا ضربتها ثانيةً سأضربك وأكسر يدك.. وأنت تعرف ما أعنيه.. ألا تخجل من نفسك أيها الولد المفسود؟!. كان يعرف ما تعنيه. ذات مرّة ضربها على وجهها ضربة أوقعتها على الأرض، لكن جُهينة نهضت وضربته ضربة أوقعته أرضاً.. وللمرة الأولى يومذاك لاحظ أن جسدها ليس مكرَّساً فقط لنشوته، فقد آلمته ضربتها كثيراً وشعر بأنه يكرهها ويخافها ولعله لذلك تزوج من إمرأة أقصر قامةً منها وأقلّ قدرة على الدفاع عن نفسها. فضربُ المرأة جزءٌ من لذّته. يُحب أن يشعر بأنه الأكثر قوةً، إنه المسيطر وليس كوالده الذي تسيطر عليه إمرأة تصادف أنها أمه!!.. وها هي جهينة، "صانعة" بيت الجيران، التي كان يظنّ أن بوسعه ممارسة لذّاته كلها في قهرها تقف في وجهه.. بل وتدافع عن ضرّتها. وتصير صاحبة البيت.. والعتبة له. لكم يكره جنس النساء!!.

صرخ بها: هل جننتِ؟ هل نسيتِ رقصك الملتاع في عرسها؟ كيف تدافعين عن عدوتك؟ ردّت جهينة بهدوء: يبدو أنك أنت عدوي.. لا نجوى ولا والدك ولا حتى أمك.. هيا إبحث عن عمل و"حلّ عن ظهرنا"[2] وتزوج من ثالثة في غير هذا البيت. أنا صرت "عارفتك وناتفتك"[3] ونجوى المسكينة أيضاً. وحملت جهينة ضرّتها الباكية نجوى إلى الحمّام وغسلت لها وجهها، وقالت بصوت حازم: إذا ضربك ثانيةً "سأكسر يده وأحمّله إياها"[4]. إذا احتجتِ إلى أي شيء، أنا في الغرفة المجاورة.

* * *

لا شيءَ يُخفى في زقاق الياسمين كما قالت الحاجة لزين، ناقلة إليها أخبار

---

(١) تعاني من متاعب الحمل والوحام.
(٢) حل عن ظهرنا: دعنا وشأننا.
(٣) أعرفك حقّ المعرفة.
(٤) تعبير شامي معروف.

جهينة ونجوى.. وذكرت أنه بكثير من الاستمتاع تتناقل الجارات نبأ هجر زوجتَيْ عيدو العسيري له في الفراش وأن جهينة صارت "بنت عُشْرة"[1] نجوى ضرّتها.. وأنهما تكرهان عيدو حتى إن نجوى تنام في غرفة جهينة، وأن عيدو ينام بمفرده. ولم تنجح الشائعات في الربط بينه وبين العاملة المنزلية الستينية الجديدة التي آختارتها والدته لكي لا ترى وجه كنّتيها وهما تشربان القهوة معاً وتتسامران ولا قدرة لها على طردهما لأن "الوغد" زوجها وهب البيت لصانعة بيت الجيران الآتية «من وراء البقر» إلى زقاق الياسمين كما تردد دائماً حين تضطر لذكر اسمها.

* * *

(بوقاحة لا تُجارى اتصل بي مطاع هاتفياً وقال بصوت حاسم كأنني صرتُ عبدة له بعدما اغتصبني: "كتب الكتاب" كما هو مقرّر مع تسبيق الموعد.. أي غداً. لقد آعترف لي بما حدث رغم أنه آسف لما حصل، قائلاً إن الشيطان طغاه وهو مستعد لتصليح هذه الغلطة ولم يبدّل رغبته في الزواج مني).

وقبل أن تفتح فضيلة فمها للاعتراض أضاف: أهلك ارتاحوا لقراري وتحمسوا له.. فأدركت أن أهلها إنما يقدمون جائزة ترضية للمعتدي وقالت لنفسها إنها لن تتزوج يوماً من رجل قادر على الاغتصاب ناهيك عن اتباع تلك الأساليب الدنيئة للوصول إلى غايته. مرت بها عمتها في دكان البروكار زاعمة أنها بصدد شراء هدية، لكنها قالت لها بحدة: أنت المسؤولة عما حدث. البنت العفيفة لا تذهب إلى بيت عريسها قبل "كتب الكتاب".

قاطعتها فضيلة: ولكنه قال إن أمه المريضة تريد التكلّم معي بشأن خاص.. لم يكن بوسعي رفض طلب سيدة مُسّنة ادّعى أنها تحتضر، ثم إن أمي وافقت على ذلك..

تؤكد عمتها رأي معظم الجارات: كان عليك اصطحاب أمك أو جدتك أو اصطحابي.. ثم إن ثيابك مسؤولة أيضاً عن إغرائه. هل فهمتِ لماذا نلحُّ عليك بارتداء البرالين والمنديل بثلاث طبقات؟

- ولكنني محجّبة ولا يظهر مني غير وجهي.

---

(١) بنت عشرتها: بينهما علاقة جنسية مثلية.

ـ هذا أضعف الإيمان. عليك بستر نفسك كي لا تكوني مبعثاً للغواية. الغواية.. آه الغواية!! لم تعد تسمع الموعظة التي تلقيها عمتها.. فقد تذكرت الغواية التي سالت من جسد نجم يوم رافقته إلى بستان أحد أصدقائه في "الهامة" على ضفة نهر بردى، مدّعية أنها برفقة زين. تأملته يسبح في بردى في "جديدة الهامة" حيث يتسع النهر وسط سهل من الخصب، وحين غادر الماء والتمعت الشمس على جسده الشهيّ، شعرت برغبة جارفة في الركض إليه وتقبيله في كل مكان والاتحاد بجسده في الماء أو على العشب.. وكادت تفعل وهي تتحسّس كتفيه فيما يبدو من الخارج تجفيفاً لجسده بالمنشفة.. تبادلا لحظتها كهارب الشهوة وغمرته رعشة استثنائية أيقظت المزيد من نزواتها المكبوتة البريئة، ولحظتها قال لها للمرة الأولى: هل تقبلين بالزواج مني؟ إنني أحبك وأشتهيك..

لا. لن تتزوج من "وحيد القرن" مطاع. ستغامر بالزواج من نجم..

* * *

استيقظ عبد الفتاح صباح يوم "كتب الكتاب" مطاع على فضيلة وهو يعدّ الساعات بانتظار ترميم الشرف جزئياً، فهو يعرف أنه سيقتل إبنته إذا تخلف مطاع عن الحضور ولم يفِ بوعده.. قال لزوجته فلك: أيقظي ابنتك. صارت الساعة العاشرة والنصف.

أذعنت فلك، لكنها لم تجد فضيلة في غرفتها. لعلّها غادرت البيت باكراً هاربة إلى العمل أم تراها انسلت ليلاً ولم تنم هنا. تملّكها كأم قلقٌ مفاجئ على فضيلة **(تُرى أين هي؟ إنها إبنتي سواء كانت عذراء أم لم تعد)**. بدأت بإجراء اتصال هاتفي بالدكان. قال الموظف إنها لم تأتِ. فاتصلت بالأهل والأصحاب والمعارف.. وبزين طبعاً قبل الجميع.. لم يرها أحدٌ ولم تقلْ كلمة لأحدٍ عن سرّ غيابها. وجاء مطاع ليلاً ومعه الشيخ. فاعترفوا له باختفاء فضيلة وبخجلهم من تبليغ الشرطة بذلك. استلم مطاع الهاتف وتحدث مع شخص ناداه باسم "الملازم ناهي" طالباً منه منع فلانة من مغادرة البلاد براً أو بحراً أو جواً. وأضاف: أما عن لقائنا الليلة، فهل تسمح بتأجيله إلى الغد؟

كانت فضيلة لحظتها قد وصلت مع نجم إلى بيروت بعدما سهّل مرورهما أحد العاملين في نقطة الحدود (جديدة يابوس) وقد قرّرا "كتب الكتاب" وإرسال نسخة

عن العقد إلى أهلها. اتصلتْ هاتفياً بزين التي صرختْ بها: أين أنت؟ زقاق الياسمين كله يبحث عنك وربما رجال الشرطة أيضاً. أجابتها: أنا الآن في بيروت مع نجم. سنعقد قراننا غداً صباحاً وأرسل إلى الأهل مع سائق من "تاكسي العلمين"[1] نسخة عن عقد الزواج.

ـ لا أستطيع الاتصال بهم يا فضيلة. عليك أن تفعلي ذلك بنفسك. زقاق الياسمين يكرهني بما يكفي ويزيد.. لا تكلميهم الليلة بل غداً بعد "كتب الكتاب". دعيهم يقلقون علينا فقد يذّكرهم ذلك بأننا بشر وبأنهم ربما كانوا يحبوننا ذات يوم، حين كنا أطفالاً على الأقل..

ـ نجم يريد أن يحدثك.

ـ أهلاً نجم ومبروك لكما. تذّكر أن فضيلة قد تكون حملت من تلك المواقعة[2] والذنب ليس ذنبها.. لم أشأ تذكيرها بذلك.

ـ أي طفل تُنجبه هو طفلي.. لا أبالي بغير أن نكون معاً..

وبعد انتهاء المخابرة لبثت زين جالسة في موضعها كتمثال بشري تحجر بفعل سحرٍ شرير..

(لماذا أشعر ببعض الذنب نحو فضيلة؟ أنا لم أطلب من أحدٍ الاقتداء بي في أي يوم. كل منا يفعل ما يعتقده صواباً ويتحمّل مسؤوليته. الحب مسيرة رائعة على حبلٍ ممدود بين النجوم وما من شبكة واقية تحته. وعلى المرء أن يرضى أو لا يرضى بتلك المغامرة. أنا وجدتُ الأمر يستحق العناء، وخسرت، وسقطت.. وأحاول الآن تصحيح غلطتي فأنا بشر، ولن أدع أحداً يسلبني حقّي في الحرية.. وحقّي في الخطأ أيضاً. فالحب مغامرة، وما من بوليصة تأمين ضد الفشل.. وأنا فشلتُ. أنا مجروحة.. ومخذولة، وأعترف بذلك.. وأحاول تصحيح غلطتي..

أتمنى أن لا تمر فضيلة، صديقة الطفولة في "البيت الكبير" بما مررتُ به أنا. أشعر بوحشة داهمة.. سأنهض للكتابة حيث أخلق عالمي الخاص. ها هي حياة فضيلة وجهينة ونجوى وحميدة وفيحاء وكل من عرفت تتسلل إلى دماء حبري).

---

(١) شركة كانت تعمل على نقل الركاب بين دمشق وبيروت آنذاك.

(٢) لم يكن فحص الدم الذي يقرر هوية والد الطفل معروفاً حين تدور أحداث الرواية.

لكأن القط هارون حدس في تلك اللحظة كآبة زين وحيرتها فقفز جالساً في حضنها محاولاً مواساتها...

(تربكني جهينة حين تأتي طالبة منّي المشورة وتسكب دمع زمنها على طاولة كتابتي... لكن حبري يفرح بها...

تربكي إبنة عمي حين تستشيرني في رقم ورقة يانصيب الحب التي تنوي اقتناءها.

يربكني كل من يسألني نصحاً.. لا يدرون أنني أيضاً حائرة.. لكنني وجدت المرفأ الأبيض على الورقة. وها أنا أتعثر بكراهية بعض المحيطين بي.. ورفضهم لي ولما أمثله من عشق للحرية.. وأتعثر أولاً بأخطائي الشخصية).

أيقظها من خواطرها صوت جدتها: سمعتُ رنين الهاتف لكنني كُنتُ أُحرّك لبن "شيخ المحشي"[1]، ولم أتركه خوفاً من أن "يفرط"[2]. من المتكلم؟

قالت زين لجدتها باقتضاب: «النمرة غلط»، وهمست لنفسها: «هون حفرنا وهون طمرنا».

* * *

حين فتحت زين عينيها ذلك الصباح حرّضها حلم أليم عاشته ليلاً على التساؤل: لماذا يخون الرجال؟ بل لماذا يخون الزوج إمرأة عشقها وحارب معها للزواج بها؟ لماذا بعد "شهر العسل" يُفتّش عن العسل في شجرة أخرى لامبالياً بلسعات نحل عسل زوجته التي تكتشف الأمر كلما حاول إخفاءه عنها؟ **(لماذا يخون الزوج من كان يزعم حبيبته لا في أيام التهاب النظرات واشتعال الأصابع بلمسة فحسب، بل في أيام صيد اللؤلؤ المزدهر واكتشاف مغاور المرجان الحار، ويخونها ربما مع من لا يعرفها بل ألقتها المقادير في دربه.. وبالذات مع من لا يعرفها؟**

هل ثمة متعة جسدية مختلفة خارقة كتلك التي عاقرتها في حلمي ولم أعرفها في زواجي؟.. متعة مع الذين لا نعرفهم لكنهم يجتذبوننا؟ هل ثمة لذّات أخرى حادة لها طعم بهارات أخرى؟ ولماذا لا أجرؤ لا أنا ولا من كَتَبْنَ قبلي على تجريب ذلك لتكتب عنه على الأقل أو لتستمتع به كالرجل دونما قناع الرسم والكتابة؟ لماذا

---

(١) طبق شامي معروف. (٢) يفسد، يتلف.

لا نُقدم كالذكور أو بعضهم على خيانة عارية بلا أقنعة كلها وفاء لصراخ الجسد المكمّم؟).

أيقظها من خواطرها صراخ الهاتف اللجوج. إنهصوت صديقها الصحافي مازن: يريد أن يحاورها لصفحة كاملة في الجريدة التي يعمل لها. لا تستطيع أن تقول له لا فقد دعمها من دون أن يغازلها! وعدته أدبياً بالمرور بعد أن تُنجز عملها في المكتبة. يزعم البعض أنها نجحت بفضل "رافعة" والدها المحامي الشهير ودَعْمه لها.. **(لم أعد أبالي بالقيل والقال.. سأكون. وهذا كل شيء)**. همست أمام مرآتها: «صباح الخير أيتها البومة غير المؤذية إلا حين يؤذونك». فأمام نافذتها بومتها الجميلة في تقمصاتها كلها وقد انعكست صورتها والنافذة داخل مرآتها، والبومة تأتي يوماً بيضاء وآخر مخططة بالبنّي أو مُرَّقطة بلون الغابات، وزين تعرف أن بومتها لا ترتدي الأقنعة لكنها بومة ملونة الأمزجة والأطوار.. وأحياناً تقف على نافذتها وهي تئن وتنزف وتتركها زين تتابع طقوس حُزنها، فهي تعرف أن بومتها مثلها، لا يملك لها أحدٌ شيئاً وعليها أن تستمر بنفسها في لعبة حرّيتها. لا تلتفت. تحاور بومتها في المرآة. تعرفَ أنها إذا التفتْتْ إلى الخلف اختفتْ البومة.

حين غادرت مكتب مازن ورافقها لوداعها حتى رصيف الشارع التقيا بشاب بالغ الوسامة فارع القامة وتعانق مازن وإياه قائلاً: أُعرِّفك بالأديبة الشهيرة زين.. والتفت إلى زين مضيفاً: هذا الشاعر عامر.. واستطرد: يبدو كمصارع، لكنه إنسان رقيق. صافحته.. وارتعشت يدها كأنها عانقته، وسألها مازن: أين سيارتك؟ قالت زين: لم أشترها بعد! فعرض عليها عامر إيصالها بسيارته. وكاد مازن أن يعترض لكنه فوجيء بجوابها: نعم. بكل سرور.. وشكراً لك سلفاً. وصعدت مع عامر في سيارته، واختفيا وسط ذهول مازن الذي وقف على الرصيف يُراقب السيارة وهي تغيب عن ناظريه وقد سقط فكه الأسفل أو كاد.. **(اللّعنة.. لماذا لم أجرؤ على دعوتها لإيصالها بسيارتي وأنا التوّاق إلى ذلك؟)**.

قال لها عامر بصوت يقطر شهوة وهو يحدّق بها من قدميها حتى أخمص رأسها ونظراته تتمهل أمام بعض المنعطفات ومداخل الكهوف: أدعوكِ لشرب فنجان "شاي أخضر" عندي في بيتي المتواضع في قبو مبنى بالروضة[1].. لقد

(١) حي في دمشق. وأقبية المباني كان يقيم فيها العزّاب الشبّان وكذلك بعض رقيقي الحال.

وصلني كيس الشاي هذا الصباح من صديق صيني..

(صديق صيني، وشاي من حانوت البقّال المجاور!! لا فرق).. قالت لا وهي تتوق إلى التجريب والاكتشاف **(ذلك الحلم ما زال يجرّني إلى شهوة التجربة. ترى هل للجسد متعات إستثنائية مع الذين لا نعرفهم لكنهم يجتذبوننا كمخلوقَيْن في الغابة أيام ما قبل اختراع اللّغة؟ وهل الفريسة هي الصيّاد أحياناً؟ وهل من أساليب الفريسة ألا يعرف الصيّاد ذلك ليستمتع بصيده الموهوم وتستمتع هي (الفريسة) مرتين: بلذتها وباللّعبة؟ وهل أكتب داخل رأسي أم أنني أحيا؟ وهل سيمكنني في المستقبل الفصل بينهما؟)**.

شعرت أنها للمرة الأولى تخطو إلى قارّة لم تجرّبها من قبل واستثارتها متعة التجريب والاكتشاف وقرّرت أنها تكتب داخل رأسها وهذا كل شيء. قال بإصرار: ستذوقين الشاي الأخضر عندي. لمسة يده التي أمسكت بيدها وهي تقتادها إلى كهف الملّذات لم تردّها.. ولم تترد أو تتمنع، بل على العكس فاجأته بقبلة محمومة طبعتها على شفتيه في اللحظة التي أغلق فيها باب الكهف خلفهما.. حملها كمن يحمل دمية صغيرة، فالتفتْ بساقيها حول جسده العملاق وشدّتْ عليه كأنها تحاول الاتحاد به للحظات، وارتميا على الأرض في المدخل دونما كلمة تعارف أو ثرثرة أو وعود. ولا تدري كيف ضرب البرق بعصاه السحرية وصارا عاريين وهي تدفعه عنها قليلاً لتتأمل جسده الشبيه بتمثال إله إغريقي جميل دبّت الحياة فيه فجأة وها هو ينهال عليها تقبيلاً وضمّاً وشمّاً وهي تنافسه في جنونه بإخلاص شجاع الاستسلام للجنون، ومراكبه تُتقن الدخول ببطء ملحاح إلى مغارات المرجان فتغلي المياه حولها وتتدفق إلى خارج فوهة الكهف. وسمعتْ صوتاً يُشبه التنهد والأنين وشهقة إلى مرفأ.. وأدركت عندها أنها لم تعرف النشوة من قبل وتلك الإضاءات المتلاحقة على بحار جديدة وكهوف تستطيع مياهها أن تغلي.. وعلى قمة صاري المركب شاهدتْ وجه غزوان يطلّ عليها من دون أن تدري لماذا، وصارت تهمس بلا صوت: غزوان.. غزوان، وقد بلغت ذروة آنهارت معها جدران المغاور، ووجدت نفسها تطير في الريح راكبة نجمة وهي تتابع همسها بلا صوت.. وتتمنى لو تسمع صوت غزوان

يغرس لسانه حتى قلبها.. ولكنها سمعت صوت والدها يقول: حان وقت الغداء وسيبرد الأكل وأنت تكتبين.. وسمعت طقطقة الزر الكهربائي واشتعلت غرفة المكتبة الخضراء بضوء الثريا، وأضاف والدها: تكتبين دائماً على طاولتي ببقعة الضوء المسلطة من المصباح الصغير.. ومن شأن ذلك أن يُتعب عينيك..

لم يكن بوسع زين أن تصرخ بوالدها: لا تكلّمني حين تراني منكبّة على الكتابة، ولا تقترب مني لأنني أصير بومة مجنونة تقفز من شجرة إلى أخرى في أشجار تلك الغابة السحرية المظلمة وقد شهرت مخالب سرية وأنياباً مُلوّنة كل منها قلم ينغرس على الورقة البيضاء ويجرّحها وهو ينزف جراح ما كان وما لم يكن.. وكم حمدت لجدتها التي لحقت بوالدها إلى غرفة المكتبة قائلة: لقد فرغت "قنينة الغاز" وأنا ما زلت أقلي الخبز لـ"فتة المكدوس"[1]، فهلاّ قمت بتبديلها لي بالقنينة المليئة؟ قال أمجد معتذراً من زين: الطعام بعد عشر دقائق. المعذرة!

قالت له كاذبة ولكن بحب: لا يا أبي، سألحق بك فوراً. لكنها لم تستطع النهوض من خلف الطاولة، فقد كانت عدّة أصوات تنطلق من صدرها وقلمها.

صوتٌ: لماذا أضاء أمامك وجه غزوان وأنت تمضين إلى قمة البهجة مع من لا تعرفين عنه غير اسمه؟

صوتٌ: أنتِ تحاولين خداع ذاتك باستحضار أي وجه آخر غير وجه عامر الوسيم الفتّاك حرصاً على سلطتك على جسدك.. فغزوان عرض عليك الزواج من دون أن يعرف إسمك وأنت مهيضة الجناح تنزفين.. وعامر لم يعرض عليك غير فنجان شاي أخضر وانقضضتِ عليه بجنون جائع.. وعرفتِ معه لذّتك الأولى، أنتِ التي مرّت بتجربة الزواج والطلاق..

صوتٌ مذعور من صدرها يدّعي: أنا لم أفعل شيئاً. استيقظتُ في الصباح وذهبتُ إلى موعد مع صديقي مازن وعدتُ منه، وقد أوصلني صديقٌ له ثم جلستُ أكتب.. فلماذا هذه المحاكمة الأبجدية السريّة؟

صوتٌ: أنتِ كاذبة.. قبل أن تصلي إلى الطاولة كنت تُشعلين البلاط البارد بجسدك خلف باب بيت عامر..

---

(١) فتة المكدوس: أكلة شامية مشهورة.

صوتٌ: لم أفعل شيئاً.. كنتُ أكتب.. ولكن صار بوسعي أن أغفر خيانة رجلي.. شرط أن يعترف بحقي أنا أيضاً في خيانته.

صوتٌ: فعلتِ كل شيء قبل أن تقومي بكتابته.. لقد كُنتِ هناك، في كهف عامر قبل أن تعودي راكضة للتطهر بالكتابة وللتنصّل من فعلتك بذريعة أنك كاتبة، لا تميزين بين أفعالك وأفعال أبطالك.

صوتُ جدتها يقول: الطعام سيبرد..!! فلحقت زين بها.

* * *

بعد أيام، حين مرت زين بمكتب مازن لتطالع حوارهما الشفهي بعدما كتبه ولتوافق على نشره. وهي تودعه لاحظت أنه يرتدي ربطة عنق سوداء واستفسرت عن السبب. قال لها: هل تذكرين عامر، الشاعر الذي أوصلك إلى بيتك بعد لقائنا السابق؟

ـ نعم. أذكره.

ـ أنا ذاهب إلى جنازته. لقد قُتل على طريق حلب في حادث سير مروع فقد كان شاعراً متهوراً.. وأضاف: هل تحبّين أن أوصلك إلى بيتك؟

جفلت للحظات ثم قالت: لا. شكراً لك. **(ترى هل أخبره عامر قبل مصرعه بما حصل بيننا؟)**.

مشت طويلاً **(إنه السيد الموت.. عدوي الأول منذ موت أمي، حين تمدّدتُ إلى جانبها في التابوت محاولة إيقاظها وفشلتُ.. وها أنا غارقة في حياتي؛ ذاهبة بشهية إليها من دون أن أدري أنني في حقيقة الأمر ذاهبة إلى موتي. إننا نكره موت الذين عرفناهم لا حزناً عليهم فحسب بل أيضاً لخوفنا من موتنا الشخصي)**.

عادت زين إلى البيت وسُحُب مكفهرة تفيض من قلبها.

ابتهجت لوجود جهينة في زيارة جدتها.. أدركت من صمتهما المفاجئ أنهما كانتا تخوضان في "الحميميات". ترى هل اعترفت جهينة للحاجة بعلاقتها مع نجوى ضرّتها وزقاق الياسمين يضجّ بالحكاية.. بالتأكيد لا، إذ تبدو الحاجة مسترخية والقط هارون في حضنها.. تقبّل زين جهينة وتجلس معهما...

(كل ما فعلوه بجهينة أو فعلته بهم لا يعنيني حقاً. من أنا لأحاكمها؟ صورة

جهينة الأصلية في رأسي تعود إلى إجازاتنا الصيفية في مزرعة أبي في الريحانية، يوم كنتُ بنتاً صغيرة واعتديت بعصاي على قفير من النحل وكنت في حقيقة الأمر أحاول اكتشاف ما بداخله. . وهاجمني سربٌ من النحل وركضتُ أحتمي بجهينة فأخفتني تحت تنورتها الطويلة وتلقت عنّي لسعات النحل. هذه هي جهينة في خاطري وربما كانت كذلك في حقيقة الأمر. أشكّ في وجود علاقة جسدية بينها وبين ضرّتها نجوى وهذا شأنها، لكنني لن أنسى أنها أنقذت الرجل الذي طالما أذّلها ولم ينادها إلا بعبارة: «يا شقفة صانعة اللّي جاي من وراء البقر». لكنها ورغم كل ذلك حملته إلى فراشه بدلاً من تركه يموت برداً. هذه هي جهينة في قلبي أياً كان ما تفعله وما يُقال عنها). هنا قفز القط هارون إلى حضن زين كأنه تلقى كهاربها الإيجابية المحببة.

الفصل الخامس (محاولة عاشرة)

من "زقاق الياسمين" إلى "زقاق الجن"

واقفة على شرفة بيت أبي في "ساحة المدفع" أتأمل شارع أبو رمانة وأشجار الحديقة. . **(ترغميننني على الكتابة عن الحرية وذلك هراء إذا لم تجدي عملاً تعيلين به نفسك. أما أن تكتبي عن الحرية ويعيلك والدك وبعده زوجك، والآن والدك من جديد، فذلك غير مقبول وأنتِ تطالبين بالمساواة وتصرخين على أعمدة الصحف بأنك الناطقة بدستور الفتيات المتحررات وتصدّقين أنكِ صرتِ مشهورة، والمكنسة الكهربائية كذلك، وتغرقين في الرغوة وأمرك يدعو إلى الرثاء)**. . .

ذلك الصوت الذي صار يقطنها، صوت تلك المرأة الحاملة للقلم كبندقية التي بدأت تلتحم بزين ولم تعد تقطنها فحسب، بل صار صوتها يزداد ارتفاعاً منذ إجهاض زين وحيدة وذهابها إلى المحكمة وحيدة ثم مواجهتها للامتحانات الجامعية التي كانت تتمنّى تكريس المزيد من الوقت لها وللاستمتاع بالكتب المقرّرة لفرع الأدب الإنكليزي والعالمي، الكتب التي تدرسها مع البروفسور الهندي ڤارما، والأستاذ الهندي الآخر ميان الأقل جنوناً أبجدياً، والأميركي غايلدز، والفلسطيني الأصل موسى، وحياتها الخاصة تطحنها. . ولديها معطف واقٍ من المطر أهداها إياه والدها، أسود اللون ولكن الوجه الآخر له وردي اللون. قالت زين للمرأة التي تقطنها وهي تقلب معطفها من الجهة السوداء إلى الوردية: سأذهب للتفتيش عن عمل إضافي وسأصرّ على المشاركة في نفقات البيت مع أبي.

* * *

قرعت زين باب المدرسة التي كانت أمها تقوم بالتدريس فيها وتربطها بالأسرة علاقات صداقة، وعمّ القائمين عليها هو المناضل المتطوع في "جيش الإنقاذ" في فلسطين بقيادة فوزي القاوقجي، وقد توفي على ذراعَيْ خال زين الطبيب المتطوع هو أيضاً في جيش الإنقاذ كما أخبرها والدها حين أخبرته بأنها ذاهبة للبحث عن عمل. . وفي تلك المدرسة تحديداً.

استقبلها مدير المدرسة الجديد، الشاب عرفان الذي عاد من فرنسا حاملاً شهادة الدكتوراه في الهندسة. تذكرتْ والده الذي أنّبها ذات يوم في الزبداني حين رافقت والدها من بلودان مشياً إليه على رغبتها بالزواج من الذي أحبته. قال لها:

«من جرّب المجرّب عقله مخرَّب». وكان على حق كما والدها. ذلك هو الماضي. لقد كان ما كان وانقضى. ثم إنها كانت مراهقة آنذاك وتجد العالم كله على خطأ وهي وحدها على حق!، لم تكن تصدّق كلام الناس لأن ما تقوله بعض الرفيقات عنها لا صلة له بحقيقتها.. ولكن يبدو أن كلام الناس على حق أحياناً.

تأملها الدكتور عرفان الذي سمع عنها الكثير مما لا يسرّ القلب الشامي وقال لها: أعرف أنك ستتخرجين من الجامعة بشهادة في الأدب الإنكليزي والعالمي وأنك تطلبين عملاً لتدريس الإنكليزية لطلاب السنوات الابتدائية، ولكن هذا العمل ليس لك فمؤهلاتك أكبر من ذلك.

قالت لها المرأة التي تقطنها وتحمل قلماً وورقة في كل لحظة ولا تحب لغة التورية: «إنه يطردك بتهذيب شامي معتق. ولكنه يطردك». **(لا. لم ينسَ أنه كان يُلاعبك وأنتِ طفلة في الخامسة وهو صبي في العاشرة ويدفع بك في السيارة الحمراء الجميلة التي اشترتها أمك لك من باريس ولم يكن ثمة ما يُماثلها في دمشق. لم ينسَ شيئاً. لكنه يطردك. عليك أن تتعلّمي قانون الحياة أيتها الصغيرة الغبيّة! كل شيء يتبدّل. صديقك هو أيضاً عدوك الآتي، فالقلب زئبق، والمصالح هي السيد. والحذر من بنت مثلك تَعْقُل.. وأنت تعرفين معنى تلك الكلمة منذ اليوم الذي تعمّدت فيه كسر "ميزان الحرارة" الذي دسّته عمتك في فمك. ذهبتِ به إلى الحمام وقُمتِ بكسره وأنتِ في العاشرة من العمر وحاولتِ إلقاء القبض على الزئبق وكان يهرب من ملامستك ولم تدركي يومها أنه سام، وهربه من أصابعك كان لحُسن حظك فقد كُنتِ تنوين أن تذوقي طعمه.. وربما كان من حُسن حظك اليوم أن الدكتور عرفان رفضك كمعلمة في مدرسة والده وشقيقه وشقيقاته. عليك أيتها البنت أن تتحمّلي مسؤولية ما تكتبينه وأن تفرحي به: إنه يهزّ الآخرين. إنه يُخيفهم ويجعلهم يهربون من التعامل معك دونما كراهية بل بالكثير من الفضول وربما الإعجاب.. ولكنهم لا يريدونك في حياتهم!!)**.

أضافت المرأة التي تقطن زين وتحمل القلم والورقة طوال الوقت: **(لا تشعري باليأس.. النساء أكثر تعاطفاً مع ما تدعوه دمشق جنونك. فاطرقي باب مدرسة "دوحة الفكر"، لعلّك تفوزين بعمل)**.

* * *

شاهدتْ زين ذلك الصباح قوس قزح فمشتْ فوقه وقادها إلى مدرسة "دوحة الفكر" ومديرتها السيدة الجليلة عادلة التي تحيط بعينيها هالة سوداء كما القمر في الليالي العاصفة قبل أن يغيب وطلبت عملاً كأستاذة في المدرسة التي أسَّستها وتعاونها إبنتها في القيام على شؤونها. ودُهشت زين حين احتفت بها السيدة التي قالت إنها كانت صديقة لأمها هند، وإنها فخورة بما تطالعه لها في الصحف.. وهكذا قالت زين تلك الليلة لوالدها إنها وجدت عملاً إضافياً إلى جانب عملها في المكتبة، مدرّسة للإنكليزية لصف البكالوريا ومعظم من فيه من طالبات أكبر سنّاً منها أو يقاربونها في العمر.

ألقت بالدرس الأول، وفوجئت بوجود إحدى العشيقات السابقات لزوجها السابق وتُدعى أمل كطالبة في الصف، فلم تتعامل معها بعدوانية بل بالحياد الإيجابي كمعلمة.. وأدركت أنه مات إلى الأبد في قلبها، إيجاباً وسلباً. إنه ببساطة لم يعد جزءاً من حياتها ولا من قلامة ظفر قلبها. لقد انتهى الأمر حقاً. وأسعدها ذلك الاكتشاف، فساعدت أمل قدر الإمكان وشجّعتها.. أمل أحبت زين ربما أكثر مما أحبّت زوجها ذات يوم، وكانت عاطفتها الودية نحو زين تثير دهشتها ولم تكن تتوقعها، حتى في أحلامها ناهيك عن كوابيسها. فقد عانت الكثير ممّن كان زوجاً لأستاذتها التي تبدو في سنٍ مماثلة لها، لكنها لم تجرؤ على سؤالها عن حقيقته.. فزين معلّمتها.

* * *

سعدتْ زين بشراء السيارة المستعملة العائدة لابن الجيران، الذي ادّعى أنه إنما يبيعها لشراء سيارة أكبر حجماً تتسع لأولاده الكُثُر. اكتشفت زين أنه ليس متزوجاً وليس له أولاد! وأن السيارة المشتراة رديئة جداً.. في البداية سعدت زين لأنها ستقود سيارتها بنفسها، بوسعها الذهاب بمفردها في طريق المهاجرين حتى الساحة لتشاهد الغروب الذهبي بلون مدينتها وقباب جوامعها وكنائسها.

وبعدما سدّدت الدفعة الأولى الكبيرة على أن تدفع باقي الأقساط شهرياً من راتبها، اكتشفت أن السيارة عجوز وشبه مستهلكة بل قالوا لها إنها بحاجة إلى "خرط الموتور"!! والمقصود بذلك هو خرط محرّك السيارة ٥ ميليمترات أو أقل أو أكثر. لم تكن قد سمعت من قبل بشيء كهذا وبعد الاستفسار من "أهل العلم" بالسيارات

قال لها أحد الجيران، العمّ مروان، إن "خرط الموتور" يعني تجديده، وعليها أن تبعث بالسيارة مع سائق والدها إلى "زقاق الجن" خلف مبنى الأطفائية، وأنه "أعظم" حيّ لتصليح السيارات وتجديدها.. "زقاق الجن"؟ أحبتْ اسم الحيّ لأنها تشعر أن دمشق بأكملها هي "زقاق الجن المطعّم بالياسمين".

قالت زين ذلك لوالدها فضحك وهمس لها بمودة: كُنتُ أعرف ذلك. كنتُ أعرف أنك مخدوعة بشراء هذه السيارة المستهلكة لكنني أحببت أن تتعلمي من تجربتك درساً (ولم يتابع: كدرسك من زواجك الفاشل). فلا تشتري بعد الآن ما تجهلينه! والآن تفضلي صحّحي غلطتك. زين تعشق هذه العبارة التي كبرت عليها ونفّذتها بطلاق مدوٍ في الأوساط الدمشقيّة: صحّحي غلطتك، وقرّرت أن يكون ذلك شعار حياتها: الاعتراف بالخطأ ثم محاولة تصحيحه. هنا استطرد والدها: إبن الجار خدعك وتخلّص من سيارته العتيقة لتقومي أنت بتصليحها قبل استعمالها مع ما يتضمنه ذلك من هدر للوقت والمال في عملية ميكانيكية غير مضمونة النتائج.. هذا هو "خرط الموتور" يا ابنتي. **(حسناً. ارتكبتُ غلطة أخرى بسيطة.. قياساً إلى الأولى، وسأقوم بتصحيحها أيضاً)**، وتابع والدها: سأطلب من سائقي القيام بذلك.

صمتت زين وقرّرت الذهاب بنفسها إلى "زقاق الجن" حيث تتجمع ورشات تصليح السيارات!.. وستتعلم أولاً كيفية فك الدولاب المعطوب وتركيب دولاب الاحتياط. **(أعرف أن زين لن تخاف من الاسم "زقاق الجن" بل ستزداد انجذاباً للذهاب بمفردها إلى مكان في دمشق لا تعرفه. فهي على استعداد لتحقيق حريتها ولو في الجحيم.. وبالذات في الجحيم!! إنها لا تقلد أمها هند التي لم أنسها يوماً، لكن زين هي الطبعة العصرية الجديدة المنقّحة من أمها إنما بحبرٍ غامق وحروف تكاد تُثقب الورقة وتُشعلها)**.

* * *

(منذ اللحظة التي وصلتُ فيها بسيارتي الزرقاء الصغيرة إلى مدخل "زقاق الجن"، أدركتُ لماذا يُطلقون عليه هذا الإسم. فضجيج المطارق فيه يختلط بلهب المشاعل المُذيبة للمعادن.. أصوات ملتهبة ووجوه ملطّخة بسخام الشحم الأسود من المحركات، وأذرع مفتولة على نحو يختلف عن تلك المرفّهة التي نسّقت عضلاتها مضارب التنس والغولف وبرك السباحة في نوادي الأثرياء.. قرعٌ بالمطارق على

هياكل نصف عارية لسيارات متعبة متهالكة).

لم تشعر زين بالغُربة في زقاق الجن ولا بالرهبة أو الخوف، بل وجدت نفسها في مكانها "الطبيعي" الذي تنتمي إليه حيث الحقائق عارية وهي التي لم تفعل شيئاً طوال عمرها غير الحياة في "زقاق الجن" لا في "زقاق الياسمين" حيث كبرت وترعرعت، ذلك الزقاق الزئبقي الذي يسيل من شفاه أهله العسل وأحياناً السمّ.. **(ولطالما لدغتني شفاهٌ قبّلتني!)**. سألت أول من طالعها، وكان عاملاً ميكانيكياً ملطخاً بالهباب والذهول لمشاهدة بنت مثلها في زقاق الجن: أين أجد المعلم أبو كعود؟ أرسلني جارنا العم مروان إليه لتصليح سيارتي.

وهكذا لم يكد يستيقظ من الصدمة لمرأى شابة صغيرة تقود سيارة، بل وتجرؤ على المجيء بها إلى "زقاق الجن" من دون ولي أمرها أو بمعية "الأخ الصغير" في الأسرة على الأقل حتى فهم منها أنها تريد "خرط الموتور" وقبل ذلك أن تتعلّم كيفية فك الدولاب المعطوب **(شكراً لزوجي السابق الذي امتثل لرغبتي وعلّمني قيادة السيارة ولم أجد صعوبة في خوض امتحان قيادتها حين بلغت السن القانونية)**. وفي ومضة برق لاحظت زين أنها المرأة الوحيدة في ذلك الزقاق الذي ليس زقاقاً حقاً بقدر ما هو مساحات شاسعة توقفت فيها سيارات متعبة ويتصاعد منها الضجيج **(لعلّه أنين الحديد المنهك وشكوى المعادن من الشيخوخة)**. وتجمّع المزيد من العمال حولها بعيون فضولية.. عشرات العيون.. ولم تخف بل شعرت بالأنس **(لم أفعل شيئاً منذ يوم زواجي غير الكدح مثلهم.. في البيت.. في المجتمع "الراقي" وأنا أرتدي ثوب البروكار "الديكولتيه"[1]، والشال بخيوط الذهب على كتفي لأخفي نحولي الطارئ، والحلية الماسية التي زينتُ بها شعري المُصفّف على منوال "تسريحة فرح ديبا"[2]، والحذاء بالكعب المدبّب الذي أجد صعوبة في الوقوف عندما أنتعله ناهيك عن المشي به، وأنا أكذب على كل من يسألني عن عمري مضيفة إليه عدّة سنوات كي لا يقولون عني: «مثل النُص مره المدهرنة»[3]. في "زقاق الجن" البشر لا يرتدون الأقنعة)**. وتبيّن لزين أن أبو كعود هو من سكّان الجزء الفقير

---

(١) رداء واسع الفتحة عند الصدر ومكشوف الكتفين.

(٢) تسريحة خاصة بامبراطورة إيران يومئذ انتشرت في العالم مطلع ستينات القرن المنصرم.

(٣) باللهجة الشامية: الصغيرة التي ترتدي ملابس الكبار وتحاول تكبير عمرها بكلام لا يُناسبه.

من زقاق الياسمين، أي "ذنب الحي" كما تدعوه العمّة بوران.

وهكذا تعلمت زين كيف "تُعَفْرِتْ"[1] السيارة وتفكّ براغي الدولاب المعطوب وتحرّره ثم تستبدله بآخر سليم، وكذلك كيف تبدّل زيت المحرك و"البوجيات"[2]. وكان المشهد يسلّي بعض عمال "زقاق الجن" الذين استطاعوا الانسلال لمشاهدة "حرمة بنت عيلة" لكنها مفسودة تريد أن تتعلم مهنة سائقها.

وحين مضت زين برفقة أبو كعود، الذي رفض أن يتركها تعود مشياً خوفاً عليها من أذى ما وأصرّ على إيصالها بالسيارة حتى مدخل سوق الحميدية لم يكن يدري أنها لم تعد مقيمة في زقاق الياسمين بل في ساحة المدفع ولم تقل شيئاً... ولم يكن يدري أنها بحاجة إلى المشي وحيدة في شوارع دمشق مدينتها التي تستمدّ منها القوة. قال لها أبو كعود: لا تحضري يا ابنتي لاسترداد سيارتك. سأوصلها لك حتى باب مكتب والدك. بدهشة سألته: ولكن لماذا؟

لم يجب، بل اكتفى بالابتسام، ثم أضاف: "زقاق الجن" ليس مكاناً لك. وحين ودّعته قائلة: شكراً عمو أبو كعود (ولم تصدمه بما كادت تقوله: بل هو مكان لي كأي مواطن آخر)، أضاف الرجل: ذكرتِ لي أنك ستذهبين بالسيارة إلى بيروت. هذا غير ممكن يا زين خانم. بعد "خرط الموتور" لا بدّ من "الروداج".

ـ الروداج؟ وما هو الروداج؟

ـ السيارة بحاجة إلى نقاهة كالبشر، بحاجة إلى إعادة تأهيل.. وتشغيلها "عالهدا" و"نونه نونه"[3].

ـ عملياً، كم من الكيلومترات عليَّ "تدليل" السيارة؟

ولم يسمعها فقد كان بوق السيارة خلفه يصمّ أذنيه، ومضى **(سأبيع السيارة وأشتري غيرها بعد خرط الموتور.. "تعيشي وتاكلي غيرها" كما كانت تردد لي عمتي المحبّبة المفضّلة المقيمة في حمص)**.

مشت زين من مدخل سوق الحميدية صوب محطة الحجاز لتنحدر من هناك

---

(١) ترفعها على "العفريت" أي الرافعة الحديدية الخاصة بذلك لتستطيع تحرير الدولاب "المعطوب" ووضع آخر صالح مكانه.

(٢) شموع الاحتراق في محرك السيارة.

(٣) "عالهدا" و"نونه نونه"، أي بهدوء وعلى مهل.

صوب الجسر وتتأمل نهر بردى، مشهدها المفضل بعد ساحة المهاجرين. لا يعرف أبو كعود أن بيتها في ساحة المدفع حيث تقيم وقد أدهشها أن النبأ لم يصل إلى مسامع أبو كعود أو أبو سطام، وقالت لنفسها إن الكادحين أقل اهتماماً بثرثرة أهل الحي، خطوات وفُوجئت بوجه شاب طالع من الأساطير يترجل من سيارة عتيقة مهلهلة آتية بالتأكيد من "زقاق الجن"، وميّزت فيه وجه غزوان المحبّب إلى قلبها، الذي رددته بصمت في مغامرتها مع المرحوم عامر!! قال بحيوية: أنت فتاة حديقة السبكي ومقهى الهاڤانا هل نسيتني؟ لم تنسه وكانت تعرف أنها لن تنسى هذا الوجه الفلسطيني المحبب على الإطلاق.

قال لها غزوان: إلتقيتك للمرة الأولى في "جنينة السبكي" هل تذكرين؟

ـ لا..

ـ تكذبين على نحو رديء جداً.. كُنتِ يومها عصفوراً مكسور الجناح. والتقتيك ثانيةً في مقهى "الهاڤانا" الذي لا تجلس فيه امرأة، وكُنتُ تتجرعين قهوتك بنشوة وتفردين جناحيك وشاهدتهما وهما ينبتان بأمّ العين. وها أنا اليوم ألتقيك في "زقاق الجن" الذي لا تدخله امرأة أيضاً. لقد تأمتلكِ من بعيد مُحاطة بشبه تظاهرة لذكور "الجن"، فلحقتُ بك وأنتِ تغادرين الزقاق مع أبو كعود بعد مصافحة أبو سطام بحرارة. فمن أنت أيتها الجنيّة؟!

قالت له بهدوء مُنتشية بحضوره: أنا مواطنة شامية. والآن هل تسمح بإيصالي إلى صيدلية كدورة. أجاب: لتختفي ثانية؟ حسناً سأنفذ كل ما تطلبينه، وأنا أعرف أن للصيدلية باباً خلفياً في الزقاق وستهربين منه. في لقائنا الثاني سألتك: هل لك حبيب؟ قُلتِ: أجل واسمه الحرية. فمن هو حبيبك اليوم؟ المال وأنت ترتدين ثياباً باهظة الثمن، أنيقة، أم أنه الجنون وأنت تذهبين بمفردك تقودين سيارة في "زقاق الجن"؟

ـ حبيبي الأوحد إسمه الحرية، وكل ما تبقّى كماليات لا تزعجني!

استقلّت معه السيارة وقال لها: ما رأيك بنزهة مختزلة في "صيدلية" الخضرة والهواء النقي، أي في الغوطة، أوصلك بعدها إلى صيدلية كدورة؟ نظرت إليه وهي تعتزم أن تقول: لا، لكنها غرقت في غمّازة ذقنه ونضرة عينيه الآسرتين ووسامته الطاغية وابداعه وذكائه وخفة ظله فقالت: حسناً. ولِمَ لا؟

ـ تحرصين على قول "لا" حتى حين توافقين.

إنساب الحوار بينهما عذباً كالماء في سلسبيل بيت جدها. ولأنها طالعت كتابه القصصي الصادر منذ شهر، تحدثت معه عما أعجبها فيه، وأعجبه حديثها (**فما من أديب يرفض لحظة إعجاب من قارئ، وسألهيه بإعجابي بأبجديته كي لا يطرح عليّ أسئلة عن حياتي**).

الغوطة.. إنه الربيع.. إنه جنون الأشجار مكتوباً بالبياض والوردي والأحمر في البراعم، وشقائق النعمان والأزهار البرية على الأرض.. إنه الربيع مكتوباً بالعطر وبألوان حبر الطبيعة، عطر الأزهار متعددة الأنفاس والأرواح. (**إنه الربيع في وجه غزوان أيضاً.. وأعيش لحظة سعادة هاربة من زمني العسير. ما الذي يحدث لي وأنا التي توهمتُ أن فشل زواجي مع حبي الأول هو الإعلان عن فشل حبي الأخير أيضاً؟ ما الذي يحدث لي وأنا منتشية هكذا بل وأكثر نشوةً من اليوم الذي وقفتُ فيه في ساحة قاسيون مع حبي الأول، خطيبي، وقد توهمتُ أن ذلك لن يتكرر في أي يوم؟ وحتى بومتي تبدو سعيدة تغطيها أزهار ربيعية وهي تطير بأبهة إلى جانب السيارة المهلهلة التي يقودها غزوان**)..

* * *

في المقهى الترابي في سفح قاسيون كان الدكتور رهيف كعادته، بانتظارها. أستقبلها بحرارة وتدفق بالحديث عن قراءته لها وانطباعاته عما تكتب. لم يترك لها فرصة للإجابة. معجباً مدمناً. (**كُنتُ أمشي في طريق الصالحية حين لمحته قادماً من بعيد بعد أيام من إجهاضي. شعرتُ بالذعر من وجه طالع من الماضي.. وجه آتٍ من المقصّات المعدنية والأنابيب والإبر التي تنغرس في اللحم الحي وكمامات البنج وأنا أمقت الكمامات بأنواعها كلها واختبأت منه في دكان "عصّاصة" الشهير**[1]**.. وها أنا الآن مستمتعة بحوارنا لم نأتِ مرة على ذكر حكاية الإجهاض بكلمة واحدة. كأنه حدس بأنني أريد ذلك وامتثل لي بمحبة**).

سألها: هل يطالع والدك ما تكتبين قبل نشره؟

ـ أجل. يخاف عليَّ من ارتكاب غلطة لغوية. لكنه لم يعلّق يوماً على المضمون

---

(١) حانوت أنيق في طريق الصالحية في ستينات القرن الماضي.

مهما بلغت جرأته. ولم يعترض على كلمة. كأن في أعماقه "نمروداً" مثلي.

ـ هل ستقومين بجمع قصصك في كتاب للنشر؟

ـ فعلت ذلك وأرسلته إلى دار بيروتية هي الأولى في حقل نشر الأدب.. وأنا بانتظار ردهم.

ـ وسيارتك التي خدعك بها إبن الجار..

ـ أنا حريصة على حريتي حتى في اقتراف أخطائي. ولكن أشفق عليَّ أبي وقرر إهدائي سيارة أخرى صغيرة وشراء العتيقة لإهدائها إلى شخص يكرهه..

وانفجرا ضاحكين.. ثم صمتا وهما يتأملان دمشق تنبسط تحتهما وديعةً كقطة وشرسةً كنمر.. مدينة سبقت الدنيا كلها إلى سجل المدن التاريخية المأهولة باستمرار.

ـ كنا أبي وأنا نمشي في هذه البساتين "قادومية"[1] وندوس "الذهبيات"[2] في الخريف.. وصوتها موسيقى عذبة كأنها تقبّل موضع القدم وترحب بنا..

وتابعت: هل ستأتي لحضور الندوة في الجامعة السورية؟

ـ بالتأكيد..

ـ ثمة قاص آخر وشاعران يشاركونني الندوة..

ـ سأستمع إليك وأهرب..

ـ ربما لذلك سأكون آخر من يقرأ نصّه كما جاء في بطاقات الدعوة..

هبطا من المقهى.. تسكعا قليلاً في ساحة المهاجرين وقالت زين: أنظر إلى هذا المبنى الإسمنتي البشع وسط البساتين. أتمنى أن لا يعمّروا سواه بين حيّ المهاجرين وساحة الأمويين..

* * *

«عالروزانا عالروزانا كل الهنا فيها وشو عملت الروزانا الله يجازيها». هكذا كانت تغني الجدة حياة في المطبخ حين عادت زين إلى البيت، والعاملة المنزلية الجديدة كما القط هارون يدوران حولها **(لم أفهم يوماً تلك الأغاني الغرائبية التي**

---

(١) قادومية: في درب ترابية مختزلة.

(٢) الذهبيات: الإسم الذي يُطلقه الشوام على أوراق الخريف.

تغنّيها جدّتي نقلاً عن جدّتها.. وعن جدّات جدّات جداتها. وإذا كان كل «الهنا» في السيدة الروزانا، لماذا تضيف الأغنية: «الله يجازيها»؟ ولماذا «نام يا ابني نام لادبحلك طير الحمام»؟ ما ذنب طائر الحمام؟ ولماذا الطائر الأخضر يمشي ويتمختر مغنياً بحزن: «أمي ذبحتني، وأبي أكل لحمي وأختي الحنونة بتلم عظامي ويتمشى»؟ ما هذا العالم الحزين الذي وجدتُ نفسي فيه بأم تذبح أولادها وأب يأكل لحمهم؟ ولماذا نأكل بعضنا بعضاً ما هذا العنف الكامن كتهديد دائم؟).

رحّبت بها جدتها ومضت بسرعة للجلوس أمام شاشة التلفزيون وهي تقشر الثوم **(منذ اليوم الذي ظهرتُ فيه على شاشة التلفزيون، الآلة الجديدة التي اقتحمت بيوتنا، صار البعض يحبني أكثر من ذي قبل والآخر يكرهني "أكثر"، ولكن حضوري في زقاق الياسمين بات مدعاة للارتياح وربما مدعاة للتسلية بجراحي. لم يسعدني أن تحتفي بي بعض الجارات كما الأهل لمجرد أن وجهي ملأ شاشة مضيئة مرات وأن سواهن يزددن كراهية سريّة نحوي. لكنني أعشق زقاق الياسمين.. أنا مدمنة أحياء دمشق "الجوانية"، ولا أباهي كالبعض بأنني من سكّان أبو رمانة والمالكي وشارع القصور، وسواها من الأحياء الجديدة التي بدأ "العمار" فيها باغتيال البساتين التي أحبّها. بالمقابل لن أنسى مدى سعادة جدتي بي حين عُدت من مبنى التلفزيون إلى البيت).**

* * *

ولأن حضور زين في البيت العتيق في زقاق الياسمين لم يعد محرَّماً كما كان إثر طلاقها، فقد تبرعت بمرافقة جدّتها لاستطلاع تداعيات هرب فضيلة مع نجم وزواجهما. وما كادت وجدتها تقرعان الباب حتى انفتح على شجار بين العم عبد الفتّاح، والد فضيلة، وأخته صارخاً بها: يا "أم هويلة"[1].. كفّي عن الكَهْوَلة يا كهولجية[2].. صحتي بخير ولن أذهب للطبيب.

نظر إلى والدته وإلى زين وسألهما: من أنتما؟ «العين الطرّاقة.. بدكم تشحدوا؟ العين الشرامة.. حمّة تأخذكم وداءات مختلفة تهلكم»[3].

---

(١) أم هويلة: المتنبئة بالكوارث.

(٢) كهولجية: تقوم بتكبير المصائب واستشرافها.

(٣) شتيمة دمشقية تتمنى أن يُصاب الآخر بالشؤم والمرض.

حزنت الحاجة حياة على حالة إبنها وقالت بصوت واهن: لا "يا تقبرني"[1] أنا أمك.. وقالت لزين: مسكين.. فضيلة "جننته" من جديد. وبعد جلسة قصيرة مضتا خارجتين بذريعة زيارة جهينة وعادتا إلى البيت حزينتين.

* * *

(ها أنا في مدينة أمي: اللاّذقية.. في ندوة أدبية جماعية مع شاعرين وقاص. وكما في دمشق، أنا الأخيرة التي تقرأ قصّتها، فأنا مبتدئة وغير مشهورة ويخشى الرفاق من هرب الحضور من المركز الثقافي في اللاّذقية الذي وجّه الدعوة، إذا بدأتُ أنا بالقراءة.

جاء دوري وأنا أرتجف هلعاً لكنني مصمّمة على القراءة بصوتي الحقيقي دونما ارتجاف الخوف. أشعر وكأنني أقرأ قصتي على قبر أمي لتنتعش وتدرك أن حنجرتها لم تأكلها الديدان بل إنها ما زالت تحيا على نحو ما وتقرأ القصص والقصائد ويُصفّق لها الذين طالما أحبطوها في حياتها وأرغموها على الكتابة باسم مستعار.

حين أبدأ بقراءة قصّتي جالسة خلف المنبر، عجوزاً عمرها لا يزيد عن عشرين سنة، يسود الصمت وينصت الحضور. لا أقرأ بحنجرتي فقط بل بصوت روحي الراعشة وصوت قلبي. لا أخاف كما كُنتُ أتوهم، بل أتمازج مع أحزان الحضور وآمالهم وأوهامهم وخيباتهم وأخاطبهم كأنني أعرفهم. لم يحضر خالي الشاعر، الذي منع أمي منذ البداية من النشر باسمها الحقيقي بل باسم مستعار خوفاً على شرف الأسرة. كُنتُ أتمنى أن يكون هنا ليرى في وجهي الجريء الشرس وجه أمي الدامع المقموع الممنوع من الإبداع العلني..

في ذلك الكوكب من أحزان الماضي والرغبة في إنصاف أمي ـ وليس الانتقام لها ـ قرأتُ قصّتي المختزلة ولم يغادر أحد القاعة وأنا أقرأ.. بل تعالى التصفيق حين انتهيت، ووقف البعض تكريماً لي وهو يصفق.. لم أشعر بالغرور ولا بالفخر.. شعرتُ فقط أنني رددتُ ديناً عليّ لأمي التي لم تُعطَ فرصتها. وبومتي التي لا يراها أحد سواي أخذت تهزّ جانحيها وهي واقفة على المنبر كأنها تصفق.. وخُيّل إليَّ أن شبح أمي يبتسّم لي.

---

(١) يا تقبرني: تعبير شامي للتودد يعني تمنّي الموت قبل السامع..

فوجئت بخالي يتقدم مني، وكان فيما يبدو جالساً في المقاعد الخلفية، خائفاً من فشلي الذي توقعه ومستعداً للهرب إذا فشلت. سُعدت بلقائه بعد فراق دام ألف عام!

قال: هيّا، تعالي معي للنوم في بيتي، بيت جدك.

قُلت له بلا حرج: أنا مدعوة للعشاء في النادي الرياضي المقابل لفندق "الكازينو"[1] حيث حللت وسيسعدني أن أحضر بعد ذلك للنوم في بيت جدي.

فوجئتُ بخالي يُخرج مفتاح البيت من جيبه قائلاً: هذا هو المفتاح. إحضري بعد سهرتك، وسأراك صباحاً كما بنات وأولاد أخوالك.

بعد العشاء مع رفاق الأبجدية لتكريمي وأنا المُذَلة المُهانة طوال طفولتي ومراهقتي أدركتُ مدى سطوة الكلمة.. ولماذا يريد الجميع التحوّل إلى أدباء؟ لم يسبق لي من قبل أن حظيت بذلك التدليل كله، والرشق بالورود، أنا التي قضت طفولتها ومراهقتها في رد أسهم العداء وطلقات الأذى وأحزان المهانة لأنني ولدت زين وليس زين العابدين. وإن كُنت لم أكتب يوماً كإجراء انتقامي أو دفاعي، بل كانت الكتابة بمثابة لعنة رعب إضافية في حياتي حتى قبل سنّ المراهقة.

لا أدري لماذا كُنتُ أخشى أسرار مراهقتي وأحزاني وخيباتي وقهري على الورق في مذكرات بدائية، وأخفيها تحت فراش سريري وأخاف من يوم الأربعاء، يوم غسيل ملاءات السرير، فأستخرجها من مخبئها لأضعها في كعب القسم من الخزانة المخصّص لي وذلك قبل أن تصير لي غرفة مستقلّة. كان يوم الأربعاء هو يوم الهلع حين أنسى القيام بذلك. أجلس في الصف وأنا أرتجف مذعورة: هل ستجد دفاتري العمّة القاسية؟ وهل ستطالعها و"تقصف عمري"؟ لم أكن أدري آنذاك أن عمّتي لن تقرأ سطراً مكتوباً مهما ارتفعت لديها حرارة الفضول فهي تكره الأبجدية وسعيدة لأنها أمّية... كُنتُ أخاف على أوراقي (وما زلت) خوف المجنون من شوكة يغرسونها في عينه..

تلك الليلة في اللاّذقية سهرتُ مع رفاق الأبجدية طويلاً، وتركتُ نفسي تستمتع

---

(١) فندق الكازينو: كان يوم دارت أحداث الرواية الفندق الأول في مدينة اللاّذقية المطلّ على بحرها.

قليلاً بالتملّق الذي لم تصدِّق معظمه لكنها بحاجة إليه بعدما ساطتها الحياة طويلاً بقسوتها.

عُدتُ للنوم في بيت جدي في اللاّذقية، وفي غرفة أمي بالذات. حاولتُ أن أشمّ الوسادة فقد أجد فيها رائحتها، لكن زوجة خالي السيدة المهفهفة لم تنسَ فيما يبدو تبديل ملاءات السرير الذي ما كُدتُ أتمدد عليه حتى سمعتُ صوت حراك خالي وهو يتوضأ في الحمام المجاور استعداداً لصلاة الفجر.. وشعرتُ برغبة جارفة في النهوض والصلاة معه، ولكن التعب الجارف غلبني، وحين استيقظتُ كانت الشمس تغمر وجهي.. وحين نهضتُ لأمضي إلى الحمّام سمعتُ أصوات شجار: خالي غاضب لأن ابنته تريد الزواج من حبيبها الثري اللاّذقاني غير أنه ليس من أسرة "عالية الكعب" كأسرته. يقول خالي إنّ والد "العريس" من عائلة قروية متواضعة فترد عليه زوجته مدافعة: لكنه استطاع أن يؤسس الشركة الأولى للمواصلات بالبوسطة في اللاّذقية.. وهذا ما يدعو إلى احترامه في نظري. كُدتُ أهجم على خالي وأنا بثياب النوم لأقول ذلك، لكن صوت جدتي الشامية حاصرني بقولها: «شو إلك بالقصر من مبارح العصر». فقط تعاطفتُ مع إبنة خالي ولم أقل شيئاً. إنني أتعلّم درساً أكرهه وتتقنه جدتي: عدم التدخل في شؤون غير شؤوني. ومن طرفي أعتقد أن كل ما يحدث في الكرة الأرضية شأنٌ يخصّني. ومع ذلك، فقد ارتديتُ ثيابي بصمت وودعتُ خالي وقبّلت يده دونما مرارة وأنا التي تكره ذلك التقليد، لكنني شعرتُ أنه الوداع الأخير وقد لا أراه حياً في المرة القادمة في اللاّذقية. كذلك عانقت زوجته وابنة خالي التي تمنيت لو أستطيع المرافعة عنها.. وعُدتُ إلى همومي الدمشقية متّوجة بنجاح الأمسية الأدبية في اللاّذقية).

* * *

(كيف سأجرؤ على القول لزوجتي بريجيت إنني رفضت اليوم بيع حصتي في البيت العتيق في زقاق الياسمين ليقوم مطعم "تراثي" سياحي في مكانه وفرح "أخي غير الشقيق" الذي لم يغادر دمشق لرفضي وهو التاجر في سوق البزورية.

كيف سأجرؤ على القول لها إنني لن أهاجر معها ولن أعود إلى باريس ولم أعد راغباً في ركوب طائرة وأُريد أن أبقى في حبيبتي دمشق حتى أموت، ولولا التقدّم في

السنّ لتسلقت سلم المأذنة لرفع "أذان الصبح" كما كُنت أفعل أحياناً قبل الذهاب إلى المدرسة).

ظلّ رهيف المناهلي واقفاً أمام النافذة وقد أدار ظهره لشاشة التلفزيون باللونين الأبيض والأسود. **(أحسنت زوجتي استقبال وصول ذلك الاختراع إلى بيتها ولم تقصِّر في الاحتفال به على الرغم من أنه وصل إلى بيت والدها في باريس قبل أعوام)**... سمع صوتاً جميلاً يغني: «جميلة أبيّة شجاعة قوية»، التفت.. شاهد المطربة الجزائرية وردة نضرة كوردة تتابع الغناء بصوت ساحر: «وظنّوا جميلة.. لا يولد سواها.. كلنا جميلة.. كلنا فداها».

اشتعل قلبه حماساً نصف منطفئ.. كم خاب أمله حتى كاد يستقرّ في باريس برفقة صديقه شريف الخرمة الذي تزوج من حبيبته الفرنسية وانضم إلى الحزب الاشتراكي وقيل إن أمه الفرنسية ساهمت في خياره.. **(أنا أمي شامية عتيقة من زقاق قرب قبر عاتكة.. وأعمامي وأخوالي في سوق ساروجة والحريقة والمرجة.. وأبي شامي عتيق.. لقد كذبتُ على حبيبتي وزوجتي بريجيت من دون أن أَعني الكذب حين قلت لها إنني أريد العودة إلى دمشق لتصفية أملاكي وجمع المال للاستقرار في باريس وشراء العيادة المنشودة في حي "الشان دومارس" في كنف برج إيفل أو في شارع "فوش".. لم أكن لحظتها أدري مدى صعوبة قطع حبل السرة بيني وبين دمشق، مدينتي الأم اللامنسية. إنها تمطر خلف النافذة. عشقت دائماً مطر الشام.. دافئ وحنون ويُبلل القلب المتعب حتى قاعه كرذاذ ماء على وجهٍ محموم.. أشعر برغبة جارفة في مغادرة البيت والتسكع هبوطاً حتى البرلمان فساحة الحجاز وبعدها أنعطف يساراً صوب سوق الحميدية وأمشي حتى الجامع الأموي وبعدها...)**.

أيقظه من حلم يقظته هذا صراخ بريجيت المستثار وهي تقول له بالفرنسية: تعال وانظر.. أليست هذه البنت على شاشة التلفزيون تلك التي أجهضناها ذات يوم؟.. التفت.. لم يدهشه أن يرى زين تُدافع بضراوة عن كتابها الأول في برنامج منزلي نسائي وتساءل بدهشة **(من أي باب أُدخلت زين إلى ذلك البرنامج النسائي المكرّس لهموم الزوجات والأمهات؟.. من باب الشهرة طبعاً!.. زين استطاعت بسرعة خارقة أن تحظى بالشهرة عبر كتاباتها المتمردة المشاغبة، والمتفرج يريد الإثارة، ومقدمة البرامج تريد المزيد من الجمهور، وزين تدافع عن نفسها.. كأن**

هذه البنت لا تريد غير أن تحيا وتدافع عن حياتها بضراوة).

قال لزوجته: لا.. ليست هي لكنها تشبهها كثيراً.. سأذهب للمشي قليلاً.. سألته بريجيت التي لا تفهم من العربية إلا بعض الكلمات للاستعمالات اليومية: هل أنت واثق من أنها ليست هي؟

لم يستطع أن يمعن كذباً فبدّل موضوع الحوار وسألها: هل ترغبين في مرافقتي؟

قالت: بالتأكيد.. سأرتدي ثيابي في الحال.

وابتهج لأنها غادرت الغرفة. صار بوسعه أن يشرب كلمات زين المسكرة حرفاً حرفاً بكل شراستها وتمردها.. **(إنّ كتاباتها إستفزازية لكل من ليس عقلانياً ولا يطرح الأسئلة حول ما ورثه من معتقدات. وهو لا يحب من يفعل ذلك لأنه يُوقظه من سُباته الهانئ.. وهذا ما تفعله زين في كتاباتها).**

يتأملها على شاشة التلفزيون مفتوناً به.. هل يعشقها كأنثى أم يتمنّى لو كانت إبنته أم يفرح لأنها ليست إبنته أم تراه يتعاطف معها كصورة عنه في المرآة كيتيمة هذا كل ما في الأمر؟ لا يدري حقاً **(إن حضور زين في حياتي يشيع التفاؤل في قلبي والإيجابية. منذ زيارتها الأولى لي ومشاعري نحوها ملتبسة لكنني سعيد بصعودها الجميل السريع بدلاً من لعب دور "المطلّقة البائسة" الذي لم أرها تعيشه بدءاً من حضورها بمفردها إلى عيادتي للإجهاض)..**

يُنصت إلى ما تقوله والمذيعة تحاول إسكاتها وهي تقول صدقها في كل كلمة.

صوت بريجيت: ها أنا جاهزة للمشي معكَ يا مجنوني الدمشقي.. يضمّها إليه بحنان وببعض الشعور بالذنب نحو تلك الباريسية النبيلة التي رضيت بالزواج منه ومن دمشقه وبعدم الإنجاب ما دام قد اشترط ذلك عليها.. ضمّها إليه وكأن حضور زين على شاشة التلفزيون وهي حيّة هكذا، شرسة هكذا، إيجابية هكذا، قد أصابه بالعدوى وسأل بريجيت: هل ترضين بإنجاب طفل لي؟

انطلقت من عينيها ألعاب نارية ما لبثت أن ابتلّت بالدموع حين سألته: ألم نكبر على ذلك؟ أنا في الخامسة والثلاثين وأنت في الخامسة والأربعين.. قال لها: لا. لم يفتْ الأوان.. لا تنسي أنني طبيب جيد.. أعدك بأن ننجب طفلة ندعوها زين.

قالت ضاحكة: تستطيع أن تدعوها ما تشاء.. المهم أن تولد.

تابع: هل ترضين بالبقاء معي في دمشق بدلاً من هجرتي إلى باريس معك؟

أجابت مترددة: أرضى بالبقاء معك حتى في الجحيم.. أليس هذا ما أفعله منذ أن تعرّفت إليك؟

انتابته موجة حب نحوها. يعرف أن مشاعره ليست صلبة، إنها موجات، ولذا غرس أصابعه في صدره واستخرج قلبه وقدّمه إليها: وأدهشه أن الدم لم يسل منه وخُيل إليه أنها سألته: أهذا قلبك أم ثمرة صبّار؟

وللمرة الأولى يُلاحظ أن قلبه نبتة صبّار كبيرة. قال لها من دون أن يكذب وبلا صوت: الصبار هشّ كجوز الهند ولذا يحمي نفسه بقشرة صلبة. كانت بريجيب سعيدة ومستثارة لأنه للمرة الأولى سيصطحبها في نزهته الليلية الدمشقية... وللمرة الأولى يتحدث عن طفل لهما.

* * *

صار أمجد الخيّال يعود إلى بيته باكراً قدر الإمكان، مستأنساً بحضور زين، فخوراً بنجاح كتابها الأول في صحافة بيروت، وغاضباً للتهجم عليه في بعض صحافة دمشق.

وجد زين كعادتها خلف طاولته في غرفة مكتبته تعمل. ضبط نفسه مبالغاً في الحفاوة بها ككاتبة، من دون أن يقول لها إنه مثابر على دعمها بكل ما لديه من نفوذ وحظوة لدى الشيخ الغاضب الذي أصدر بياناً يهدر فيه دمها موقّعاً باسم "فتيات حماه". وقد تمت "لفلفة"[1] الموضوع مؤقتاً.. كما دعمها بنفوذه لدى بعض الصحف التي كانت تُحرَّض للهجوم عليها باسم الدين. فالأستاذ وديع صاحب جريدة "الانتصار"، الذي لا يعرفه شخصياً، دعمها بقوة وكذلك زوجته، وابنه الشاب الطالب في الجامعة الأميركية رجائي الذي كان يحمل إليها من بيروت كُل ما يُكتب عنها في صحافتها.. وكلها إيجابي ومحبّ ومشجع.. **(كعادتي ـ منذ فراق زين عن زوجها الكريه الذي لم أحبه يوماً ـ دخلتُ إلى غرفة المكتبة على رؤوس أصابعي، وكان بوسعي أن أرمي بقنبلة من دون أن تسمعني فهي تكتب. قرأتُ**

(١) عدم متابعة الموضوع والتعتيم عليه.

بصوت عالٍ السطر الذي بدأت فيه الصفحة التي تكتب فيها وتقول: «يجب أن تقول عيناي كل شيء باستثناء سنّي». لم أتمكن من كبح جماح فضولي وضحكت بصوت عالٍ وقلتُ لها مقاطعاً وهو ما لا أجرؤ عليه عادةً: يا ابنتي، أنت صبية وتكتبين عن التقدم في السن! رفعت إليَّ وجهاً متعباً كأنه عاد من رحلة طويلة عبر الأزمان والبشر وقالت لي: أنا لستُ أنا. أنا الآن تلك المرأة الستّينية التي تحاور نفسها في قصتي التي أكتبها الآن. إنني حين أكتب عن الأخرى أو الآخر أصيره.. أعيش حياته).

قبّلها على جبينها واعتذر عن إزعاجه لها. قال لها إن صاحب جريدة "الجرائد" اتصل بها من بيروت خلال غيابها متمنّياً زيارته لها لإجراء حوار معها، وإن محرراً في جريدة "الديك" يريد أيضاً القدوم إلى دمشق لمقابلتها وكذلك جريدة "كل الأشياء".. وأنه رحب بهم وهو مستعد لاستقبالهم معها إذا أحبّت أن تواعدهم في البيت ثم انسحب كي لا يزعجها تاركاً لها أرقامهم الهاتفية على طرف الطاولة.

حين غادر غرفة المكتبة التي احتلتها زين شعر بالسعادة والفخر وبالراحة الداخلية **(ها أنا أُسدّد لوالدة زين ديناً.. فأنا لم أحتفِ حقاً بأبجديتها بل وكنتُ شبه عدواني تجاهها.. وكُنتُ أريدها أولاً أن تمنحني صبياً.. لقد قتلتها من دون أن يستطيع أي قاضٍ محاكمتي. ولولا اللعين الشاعر الصغير الناشئ نزار قباني وقصيدته التي ألقاها في حفل تأبينها لما تنبّه أحدٌ إلى أنها ذهبت ضحيّة رغبتي في أن تُنجب ثانيةً على الرغم من أن ولادتها لزين كادت أن تقضي عليها لولا العملية القيصرية لإخراجها من بيتها الأول: رحم أمها.. نعم. أشعر بالذنب نحو هند وأحاول التعويض برعايتي لهند الثانية في شخص زين كأنها الفرصة التي مَنَّ القدرُ بها عليّ للتكفير عن خطيئتي وتركي هند على وشك أن تولد، وسفري لمتابعة مؤتمراتي وعملي وأنا أعرف ضمناً أن شقيقي عبد الفتاح لن ينقلها إلى المستشفى إذا فاجأها المخاض لكي لا يكشف طبيب "ذكر" عليها!... وماتت هند وبكيتها.. وبكاها البيت العتيق في زقاق الياسمين!**

لا.. لن أدع ذلك يحدث لزين. سأقوم بحمايتها بكل ما لديّ من قوة ونفوذ ومال. تكفيني خطيئة أيضاً أنني لم أرافقها إلى المحكمة يوم طلاقها متذرعاً بأن

زميلي نجاتي سيكون معها.. لا.. كانت غلطة لا أغفرها لنفسي.. لكنني أحاول التكفير عنها. زين حرة وسأحمي حرّيتها).

قبل أن يغادر والدها غرفة المكتبة قالت له: صاحبك الشيخ الذي كتب ذات يوم قصيدة غزلية رددت عليه في مقالة أُطالب فيه بتحرير الرجل أيضاً لا المرأة وحدها وسينشره لي الأستاذ وديع في جريدته وقد حمله إليه إبنه رجائي. أجابها بصدق: أكتبي ما يحلو لك. وسأدعمك دائماً..

* * *

(أنجزتُ تسجيل برنامجي الإذاعي الذي يُذاع في منتصف الليل ـ بعد أن ينام الجميع! ـ وعنوانه: "شعر وموسيقى وزين". قال لي صلاح المحارب وهو يتوهم أنه يغازلني من خلف نظارته السوداء: أتخيّل كم ستبدين جميلة في ثياب رقصة السماح بصوتك الراقص كجسد وأنت تهمسين بالقصائد التي تترجمينها لشكسبير. هيريك. وودورث. بايرون. كيتس. شيللي.. وغيرهم من الشعراء الذين تزورك أشباحهم في الليل..

قُلتُ له بلا مداورة: أكره رقصة السماح التراثية، فأنا لستُ عاشقة لتراثي كله بل لبعضه الذي لا يُعبِّر عن الخنوع.. أكره ارتداء ثياب جارية.. والرقص كجارية.. فالرقص الزنجي للذكور في الغابات يُناسب دمي على نحو أفضل.. أو على الأقل رقص إيزابيلا دنكان. راقصات السماح شابات مدللات و"مرتاحات". يتحركن بإيقاع إيروتيكي بطيء وكسول مخاتل.. وأنا لا أحب ذلك).

بدت أمارات اللاطمأنينة على وجه صلاح المحارب ولم تلمه.. لقد أدرك بذكائه الثاقب أنها بنت "نمرودة"[1] ـ كما بدأ الجميع يدعونها ـ وغير مريحة ولديها حروب ستخوضها وهو مُتْعَبٌ من حروبه الشخصية.. ولذا قرَّر أن يهرب من "جحيم" تلك البنت التي يُوحي كل ما فيها بـ"نعيم" خاص منهك..

وحين عادت إلى البيت قالت لوالدها: أفكر بمتابعة دراستي في بيروت والعمل هناك..

ـ أبارك كل ما تُقدمين عليه وأُساعدك لتحقيقه.

---

(١) متمردة.

ـ عليَّ أن أحاول القيام بإجراءات تسجيلي في الجامعة الأميركية هناك.

ـ لا تقلقي. سأساعدك. ثمة عميدان من أصدقائي يعملان هناك هما د. قسطنطين ود. فؤاد، وهما يعرفانك منذ صغرك. سأدعمك.. أنا معك..

* * *

ـ ألو، من فضلك الأديبة زين الخيّال.

ـ أنا زين، من معي؟

ـ أنا صدوقي إبراهيم.. أنا كاتب و..

قاطعته زين قائلة: ولو.. أعرف من أنت وأهلاً بك.

وبلهجته المباشرة الرزينة التي لا تعرف المخاتلة أو المجاملة قال: لدينا دعوة من إتحاد الكتّاب في ألمانيا الغربية لزيارة بلدهم والتعارف.. دعوة تدوم شهراً لأربعة أدباء وصحافيين.. وفكّرت بك.

ـ حسناً فعلتْ، أنا موافقة.

ـ ألا تريدين معرفة بقية أعضاء الوفد؟

ـ أنا موافقة مقدماً وأثق بحُسن اختيارك.

ثم إنني لن أكون هناك للتواصل أو الشجار معهم بل سيكون هاجسي تمثيل بلدي على نحو لائق.. ولكن لِمَ اخترتني؟

ـ حسناً. لن أداور أنت الوحيدة التي تتقن الإنكليزية وليس بين بقية أعضاء الوفد من يتقن غير الفرنسية.. بعضنا يتكلم الإنكليزية ولكن بصعوبة.

ضحكت زين وسألته: هل تعني أنني سأعمل مترجمة لكم؟

قال صدوقي بصدق: لا يا أستاذة زين.. لقد قرأت القصص منذ اليوم الذي قمت فيه بنشرها في الصحف والتي صدرت مؤخراً عن دار نشر بيروتية في كتاب.. أنت موهوبة وعاشقة للحرية ولذا اخترناك لزيارة ألمانيا الغربية معنا.. ما رأيك؟

ـ قلتُ لك إنني موافقة.. كل لحظة اكتشاف وحرية تبهج قلبي.

ـ ألن تستشيري والدك أولاً؟

ـ لا. قرارتي أتخذها بنفسي!

* * *

ذهبتْ زين إلى موعدها المعتاد مع الدكتور المناهلي باكراً. تسلقتْ الدرجات

الترابية المحفورة في سفح قاسيون وشعرتْ بأن منظر دمشق وهي تطلّ عليها هكذا مثل أُم تداعب طفلها الممدّد أمامها.. **(ذلك المنظر يوحي لي بالأبدية... ويذّكرني بأنني عابرة على نافذة دمشق كما عبر سواي في آلاف السنين.. أعي أنني صغيرة وهشّة وحياتي ومضة في سماء "الشام"[1]، وتصغر في عيني همومي وتتخذ حجمها الطبيعي. وبعدما أتوهم كسواي أن العالم كله يجثم على صدري وكتفيّ، أشعر أمام عظمة دمشق أن أفراحي وأتراحي حبّة رمل على شاطئها الشاسع وتغمر الطمأنينة قلبي على الرغم من كل شيء. نعم تتوسع حلقة علاقاتي الأبجدية بكل ما لدى الآخرين من نُبل أو أذى.. وثمة لحظات أشعر فيها بأنني فراشة سقطت في براثن شبكة رتيلاء سوداء لها شعر مغموس بالسمّ، ولكن حين أتأمل دمشق أعود إلى حجمي الطبيعي.. لا صخرة في قاسيون بل حبّة رمل على شاطئ أبدية دمشق)**.

يوقظها من أفكارها الحضور المحبب لصديقها الدكتور المناهلي، يقول معتذراً: هل تأخرتُ عليك؟

ـ لا.. أنا أحببت المجيء باكراً. كم أحبّ هذه المدينة ولا أشبع من تأمّلها من ساحة المهاجرين.. السيّارات في الساحة نادرة لا يؤمّها أحد إلا نادراً، فهي محاطة بالهدوء والمباني في الجبل نادرة جداً.. أتمنى أن تغطيه الأشجار لا الإسمنت..

القهوة بالهال وماء الزهر. كل منهما يروي للآخر ما حدث له منذ لقائهما الأخير. فرحت زين حين روى لها الطبيب ما دار بينه وبين زوجته التي خضعت البارحة لعملية جراحية على يد زميل له لتصير قادرة على الإنجاب.. ولأنها ـ أي زين ـ تشيع في حياته الكثير من التفاؤل.. والإيجابية.

حدّثته زين عن قبولها الدعوة لزيارة ألمانيا الغربية مع الوفد السوري للأدباء، فقال لها بارتياح: أنت بحاجة ماسّة إلى رحلةٍ كهذه.. ولكنني سأفتقدك حقاً...

* * *

ـ ألو الآنسة زين.. لفتها أن الجميع يناديها باسم "الآنسة" ويراسلونها أيضاً به **(لست وحدي التي شطبت ما كان)**.

ـ أهلاً أستاذ صدوقي.. لقد استلمت منك رسالة الدعوة وصارت تأشيرة

---

(١) الشام: هكذا يدعو أهل دمشق مدينتهم.

الدخول إلى ألمانيا جاهزة عندي.. حصلتُ عليها من القنصلية ثم قمتُ بدعوة القنصل إلى نزهة بسيارتي للتعارف مع قاسيون والغوطة وساحة المرجة و...

قاطعها الأستاذ صدوقي قائلاً: لقد أخبرني بذلك وبأنه مات رعباً من أسلوبك في قيادة السيارة بسرعة جنونية.. إلى أين تركضين؟

ـ إلى الحرية، حتى ولو كانت موتاً. شيء واحد يلجمني: الخوف من إيذاء سواي في سيارة أخرى.. ولولا ذلك لطرتُ بدواليبي فوق الأرض بقليل..

ضحك وقال: الآن علينا القيام بزيارة إلى شعبة المخابرات للحصول على إذن بالسفر..

قالت زين بصوت غاضب: ولماذا ذلك الإذلال والسرقة لحريتنا؟ سوريا بلدنا نغادرها حين نشاء.. ونعود إليها حين نشاء. قال صدوقي: موعدنا مع ضابط المخابرات بعد غدٍ في العاشرة صباحاً وسأمر بك لنذهب كلنا معاً وسنلتقي بالباقين عنده.. أي عند الملازم ناهي.

كادت زين أن تتمرد وترفض الدعوة احتجاجاً ثم تذّكرت أنه تموت شوقاً للسفر للمرة الأولى إلى أوروبا التي طالما حلمت باكتشافها..

قالت لصدوقي بصدق: أنت بعثي ومتعاطف مع أي قرار يتخذونه. لكنني لا أحب حكاية استئذان "شعبة المخابرات" قبل السفر!.. شعاركم: "وحدة، حرية، اشتراكية"، فأين الحرية إذا كان عليّ اليوم طلب الإذن لمغادرة بلدي حين أشاء وللعودة إليها حين يحلو لي؟ قاطعها صدوقي بشيء من العصبية: هذه إجراءات تُتخذ حرصاً على سلامة المواطنين.

قالت زين بلا مهادنة: في الحرية السلامة، وفي خنق الأنفاس الندامة. إن مساوئ الحرية أقل من مساوئ قمعها.. الشعوب المتطورة تعرف ذلك..

قال صدوقي بصوت مختنق: سأراك يا مشاغبة غداً في التاسعة والنصف أمام بابك لنذهب للقاء الملازم ناهي وتذكري دائماً أنني فقير وكادح وكذلك زوجتي العاملة. قالت زين: أعرف أنك نظيف وستظل مفلساً والمهم ألا تدعم "أثرياء الانقلاب" على وزن "أثرياء الحرب"..

قال صدوقي بلا مواربة: يا إلهي! كم أنتِ متمردة، لماذا اخترتك؟

قالت زين: لأنك في دخيلتك تعشق الحرية أكثر من غرامياتك الحزبية!! إنك أحد العُصاة!

* * *

مرة ثانية، ذهبتْ زين إلى موعدها مع الدكتور المناهلي باكراً. تسلّقت الدرجات الترابية إلى مقهى ساحة المهاجرين الشعبي كمن يطير فوقها (**هنا أستعيد صفائي لنفسي. أشعر منذ فترة أنني ما أكاد أرى نهاية النفق حتى أجد نفسي في نفق آخر.. ستكون رحلتي إلى ألمانيا الغربية هدنة أنا بأمسّ الحاجة إليها.. تكاثر "الأعداء"[1] حولي يحاول البعض فرض كتابات معيّنة عليَّ مدحاً أو ذمّاً واستخدام أبجديتي لأغراضه بذريعة أنه من دعمني وكان سبباً لشهرتي السريعة.. امدحي هذا.. اشتمي ذاك. كأنني "جارية أبجدية".. وأنا أتمرد.. وأصرخ لا بلا صوت ولكن بأفعالي.. أما الشيخ شفيق فما زالت نار حقده متقدة ناطقة بلسان نساء لم يسمعن بي ولم يقرأن ما أكتبه، وقد حذّرني والدي قائلاً: نحن نعيش في بيت متدين ولكنه معتدل.. حذار أن تستهيني بالشيخ وخيزرانته فهو مغروس في نفوسٍ بعضها لا يعرف القراءة والكتابة.**

ثم إنني أنتقل من فشل إلى آخر وأنجح فقط في رفض اليأس بتكرار المحاولة.. أهذا هو النجاح؟ فشلت في الحصول على عمل في عدة منابر كالتلفزيون حين عرضتُ على أحد كبار مسؤوليه كتابة مسلسل لهم فقال لي: إذهبي إلى أميركا وادرسي فن كتابة السيناريو. إنه على حق باستثناء أن الذي اختاره لذلك شبه أمّي لكنه من الحزب الحاكم. وأدركت أنه يتخلص مني بتهذيب. بالمقابل طلب مني الشاعر علوان إبن السلمية أن أقدم برنامجاً إذاعياً وهو يعرف أنني لست بعثية مثله ولا حزبية، وقد نجح برنامجي "شعر وموسيقى وزين".. ها هو الدكتور المناهلي يتقدم نحوي وأنا سعيدة بلقائه، فاللقاء معه هدنة مع أقداري ولحظة مودة إنسانية خالصة).

وأخيراً التقت زين بالملازم ناهي. إنّ نفوذه أكبر بكثير من رتبته، ويُقال لأنه بطّاش يصلح كبشَ فداءٍ وقت الضرورة. ويقال ان المقدم سمير هو الذي يدعمه ويحركه في خطوط عامة متشددة والمحصلة ان الملازم ناهي هو من يبيح لمن يشاء

---

(١) الأعداء: الأصدقاء ـ الأعداء.

الدخول إلى جنة بيروت أو سواها أو البقاء في "فردوس دمّر" الذي دعاها إلى العشاء فيه مع بقية أفراد الوفد.

رافقت زين صدوقي إلى العشاء بعدما استقبله والدها واطمأن منه على حكاية السفر إلى ألمانيا الغربية، ثم رافقته زين بعدما قبّلت والدها على جبينه وهمست في أذنه: لا تقلق عليَّ بعد اليوم، بل أقلق عليهم منّي. ولم يتمالك والدها نفسه.. فانفجر ضاحكاً.

وسألها صدوقي وهما يهبطان السلم: ما الذي قلته ليضحك والدك هكذا؟

أجابت زين: هذا سرّ بيننا.

في السيارة قال صدوقي: لا أكتمك أن الوسط المثقف يشعر بالدهشة لدعم والدك لك بعدما فعلته به من أصرار على زواج برغم إرادته وأسرتك ثم على طلاق على الرغم من الجميع أيضاً.. لماذا كان الطلاق وكنت تريدينه؟

كانت زين قد تعلمت فنّ الإجابة الشامية المعتّقة على أسئلة كهذه، فقالت: «اللّي مضى مضى»!

في السهرة جلس الملازم ناهي إلى جانب زين، ولاحظ "رفاق الرحلة" أنه يغازلها وأنها السبب الحقيقي لدعوة العشاء تلك.

* * *

ذهبت زين إلى مبنى الإذاعة باكراً وقيل لها إن الإذاعة ستنتقل قريباً إلى مبناها الجديد في "ساحة الأمويين" الذي يكاد يتمّ بناؤه. سجّلت أربع حلقات من برامجها "شعر وموسيقى وزين" الذي يُذاع منتصف الليل بعد أن ينام الجميع، كأنه ذريعة علوان لإعطائها كرّاسات حزبية وضمّها كنصيرة على الأقل أو الحذر منها (**أشعر بتنامي تيار جديد شعاره: «من ليس معنا فهو ضدنا». ولذلك عقاب، وبالتالي فكل فرد متهم حتى يقوم هو بإثبات براءته بالانتماء إلى: "الحزب". فنحن أو لا أحد.**

لا أدري كيف أقول لهم إنني أريد الاحتفاظ بحقّي في الحرية، في موافقتهم تارة، ومناقشتهم أو رفض أفعالهم مرّات).

فوجئت بأن الشاعر إبن السلمية، علوان، كان بانتظارها حين غادرت الإستديو. غمرتها المودة نحوه، فهو ما زال يرتدي صندله العتيق المخلّع وقميصه

نصف المكوي، وليس كالملازم ناهي الذي لاحظت زين في "سهرة دُمّر" وفي زيارتها اليتيمة إليه مع وفد الكتّاب السوريين إلى ألمانيا للحصول على السماح لهم بالسفر، لاحظت أن الملازم ناهي يرتدي حذاءً ثميناً باريسياً ماركة "برلوتشي"، وعلى طاولته كيس يضم ربطات عنق فرنسية الصنع على الأرجح إذ يحمل إسم مخزن "سولكا"[1] الباريسي تلقّاه بالطبع كهدية ثمينة، وتساءلت: هي ولا بد رشوة.. فراتبه لا يكفي لشراء حذائه هذا وربطة عنق كهذه؟ هذه المعلومات عن الثياب الرجالية الفاخرة تعلمتها زين من أسرة زوجها السابق الثرية..

دعاها علوان لشرب فنجان قهوة في "مقهى الروضة" وصعد معها في سيارتها لأن صندله العتيق هو سيارته الوحيدة. ما كاد يجلسان حتى سألها ببساطة: ما حكاية طلاقك؟ ("**خلّيه بالقلب يجرح وما يطلع لبره ويفضح**"[2]. **تذكرتُ حكمة جدتي حياة التي نصحتني بالإجابة على كل سؤال يتحرّى عن أسباب طلاقي بعبارة: "ما صار نصيب". يا للحكمة الشامية المعتّقة التي أراحتني من فضول لزج يرتدي أقنعة القلق عليَّ ومن محاولات الآخرين لفتح ثقب في قلبي يتلصصون منه على جرحي. لقد انتهى كل شيء، لا أحدّث أحداً عنه كما لو لم يكن. لكنه كان وتعلمت منه الكثير**).

ولذلك قدّمت الإجابة نفسها للشاعر الطيب علوان: "ما صار نصيب"، وسألَتْهُ بدورها: لماذا تريد أن تتجسس على قلبي؟ هل لذلك صلة بالبرنامج الذي أقدمه للإذاعة!؟

ضحك وقال ببراءة: لا.. له علاقة بقصيدة أكتبها وقد استوحيتها منك!

ـ الشعر هو الظلال المخاتلة يا صديقي والحكايا الملتبسة وليس إبن الحقائق اليومية الذاتية.. فاكتب ولا تسأل.. (**لن أقول له إنني لستُ "ليمونة معصورة"، بل إنني في سلوكي وأبجديتي لا أختلف عن النساء الصامدات في وجه أحزانهن.. لن أقول له إنّ المرأة لا تنتهي بعد تجربة حبّ فاشلة بل لها الحقّ في ترميم حياتها كأي مواطن، ذكراً كان أم مخلوقاً فضائياً، وكونها مطلقة لا يعني أنها ساحة مفتوحة**

---

(١) ماركة ربطات عنق كانت مشهورة في تلك الأيام.

(٢) مثل شامي معناه: دع حزنك يجرح قلبك وتحاشى الشكوى للآخرين كي لا يصير حزنك فضيحة قلبك.

للشهوات. . لاحظت أنني المرأة الوحيدة في المقهى ولم يُضايقني ذلك، عما قريب سوف يصير مشهد أمثالي مألوفاً جداً). . .

* * *

حلّقت الطائرة ليلاً في طريق العودة من ميونيخ إلى دمشق بعد شهرٍ حافل بكل شيء في ألمانيا مع وفد الكتّاب السوريين.

أغمضت زين عينيها. تظاهرت بالنوم لكي لا تضطر للحوار مع رفاق الرحلة. تخلو إلى نفسها وتستعرض أحداث رحلتها. تفتح نافذة الطائرة وتغادرها لتطير إلى جانبها وحيدة إلا من بومتها التي تحلق معها كرفيقة درب **(لم يحدث من قبل أن حظيتُ بدلالٍ أدبي مقطّر كهذا. هاجسي كان في كل لحظة أن أُحسن اللفظ بالإنكليزية وبوضوح وأُحسن تمثيل وطني عامةً والمرأة فيه على نحو خاص، فلدى البعض هناك فكرة عجيبة غريبة وهي أننا كنساء نعيش حياة الجواري كما في نظرة بعض أفلامهم إلى "ألف ليلة وليلة"، وكأن بعضهم توقع مني أن أنهض فجأة وأرقص رقصة "المناديل السبعة" وأنا أخلعها واحداً تلو الآخر. ولكن لم يخب أملهم حين اكتشفوا أنني إنسانة أخرى عادية ومتحضرة وتحاول تثقيف نفسها والتواصل مع الشعوب الأخرى وإطلاعهم على حضارتها العريقة الأصيلة. لقد أفسدونا بدلالهم! هبطنا أولاً في هامبورغ ورحنا نتجه جنوباً ونزور مدنهم الرائعة التي طالما حلمت وأنا أتأمل خارطة العالم بزيارتها: درسدن. . كولونيا. . بون. . برلين. . وسواها كثير، ثم تلك الرحلة المسحورة في "نهر الراين" حتى ميونيخ. . فالتجول في مقاطعة باڤاريا الرائعة. . المتاحف. . وموسيقى بيتهوڤن التي لاحقتني من بيته/ المتحف طوال رحلتي كأنها الموسيقى التصويرية لكل ما عشته. . أفسدونا أيضاً بطعامهم الشهي. . أنا لم أذق الخمرة من قبل، وبالتالي لم أفعل في تلك الرحلة لكنهم كانوا يقدمون لرفاقي البيرة أولاً مع المقبلّات فالنبيذ الأحمر مع اللحم فالنبيذ الأبيض مع الأسماك. . أطباق وأطباق. . وحتى حين اصطحبونا في ميونيخ إلى حانة البيرة العريقة الأقدم زمنياً اكتفيت بشرب صحوي.**

أطير وأطير إلى جانب الطائرة وإلى جانبي تحلّق بومتي وفي الظلمة أرى وميض نجوم عينيها. . إنها مبتهجة كأنها تشاركني مشاعري. . "الرجاء ربط أحزمة المقاعد والتوقف عن التدخين" . . ها نحن نهبط إلى قاسيون. لقد عُدتُ من رحلتي "صخرة

في قاسيون" ودمغتني حريّة الناس في البلد الذي قضيتُ فيه شهراً. . حريّتهم في القول والثرثرة ولم أرَ في أي مقهى من مقاهيهم شفاهاً وآذاناً في الجدران، ولم ألمح رجلاً واحداً في أي مكان جالساً يخيط فمه بإبرة وخيط أسود كذاك الذي شاهدته في "مقهى الهاڤانا" يوم طلاقي. . دمغتني أيضاً سعادة الناس في القرى التي توقف "مركب الراين" فيها وهي تعيش عرساً جماعياً موسيقياً راقصاً استعداداً لمهرجانات البيرة. كم أشتاق للفرح في وطني بدلاً من الانتقال من انقلاب إلى آخر. . ومن حاكم إلى آخر. . ومن انفصال فاجع إلى آخر.

أخيراً رنين جرس البيت. . فتح الباب والدي ـ لا عاملتنا المنزلية كما هي العادة ـ وشاهدت دموعاً في عينيه وانهمرت على يده وأنا أقبّلها كما كنتُ أفعل مرغمة حين كُنتُ طفلة ولكنني قبّلتها هذه المرة من قلبي كله).

* * *

ذهبت زين إلى المقهى الترابي في سفح قاسيون قبل موعدها بنصف ساعة لتخلو إلى نفسها قبل لقاء الدكتور المناهلي وذلك للمرّة الأولى منذ عودتها من ألمانيا. . **(عليَّ الآن أن أستعد لانتقالي إلى بيروت).**

جاء الطبيب حاملاً نسخة من كتابها الأول وقد جلّدها تجليداً فنياً. تجاهل أنها كانت مسافرة. وضع النسخة أمامها قائلاً: أرجو منك التوقيع على هذه النسخة بعد كتابة الإهداء!. .

كادت تروي له ملخصاً عن رحلتها الألمانية من دون أن تتواضع لكنه قاطعها: أعرف كل شيء. شاهدتُ الأستاذ صدوقي البارحة ليلاً على شاشة التلفزيون وتحدّث طويلاً عن دورك في الرحلة وذكر أنهم يترجمون الآن كتابك الأول إلى الألمانية وكان فخوراً بك. . **(أسعدني ذلك، من قال إن الغواني وحدهن يغرّهن الثناء؟).** أضاف: لن أفتقدك حين ترحلين إلى بيروت لأنني سأزورك باستمرار هناك وأحمل لك عقداً من الياسمين الذي تشي قصصك بأنك تعشقينه. .

ـ سأسافر غداً صباحاً، رحلة قصيرة لترتيب أموري هناك والمشاركة في امتحان القبول في الجامعة الذي يخضع له حتى طلاب الماجستير. . كُنتُ اليوم عند الملازم ناهي وأعطاني إذن السماح بالسفر.

ـ إحذري من الملازم ناهي. لا يدري أحدٌ متى يلسعه.

ـ أعرف ذلك. سمعت الكثير عن فساده ودعاني للعشاء بعدما كان على وشك مغازلتي حين دخل أحد معاونيه (**ولم أقل له بقية الحكاية وهي أنه كان قد أنجز بقلمه الذهبي تدوين ورقة السماح لي بالسفر حين اُضطر لمغادرة الغرفة مع المعاون فسرقتُ الورقة وأخفيتها معي كي لا أضطر في المرة القادمة لطلب الإذن منه مجدداً. وحين عاد إلى الغرفة حدّق في دفتر "أذونات السماح"، كمن تذكر شيئاً لكنه اُنشغل عن الأمر باتصال هاتفي من زوجته كما فهمت من إجابته إذّ قال لعامل الهاتف: قل لمطلقتي إنني لا أريد سماع صوتها. ولتكفْ عن الاتصال بي أياً كانت الأسباب، ومن جديد قام بتسطير ورقة السماح لي واقترب منّي ليناولني إياها. وكاد يقبّلني لو لم يقرع الباب معاونه ثانية، فانتهزتُ أنا الفرصة للهرب مع الورقة "السحرية" التي لا أستطيع بدونها ركوب بساط الريح**).

ـ لا تقبلي دعوته. صار هاجسه جمع العشيقات من "بنات العائلات" كأنه ينتقم لأيام حرمانه من اهتمامهن به.. ثم أنه فرض على "الإذاعة" أن تذيع أغاني شبه المطربة "لوديانا حمصير"، وقد لمحتها تركب سيارة المرسيدس السوداء الجديدة الخاصة بالمسؤولين..

ـ أرجوك.. لا تقلق. أنا حذرة.. إنني ذاهبة إلى بيروت في رحلة تحضيرية لكثرة حذري. وإلى جانب امتحان القبول، سأذهب للاستطلاع فقد اتفقت مع مدرسة في الشويفات قرب بيروت للتدريس فيها والنوم فيها مع بعض المعلّمات ومتابعة دراستي في الجامعة الأميركية.. فقد لا أجد مكاناً لي في القسم الداخلي فيها. لقد استطاع والدي تسجيلي مبدئياً عن طريق صديقيه العميدين فيها ولكن لا بد لي من المرور بامتحان القبول.

ـ ما إسم المدرسة التي ستعملين فيها في الشويفات؟ وكيف حصلت على العمل؟

ـ إنهم في بيروت يحبونني، أعني أوساطهم الأدبية والصحفية للأسباب ذاتها التي تجعل البعض هنا يكرهني. الناقد إدوار الذي امتدح في الصحافة اللبنانية كتابي الأول هو الذي اطلع في مخابرة هاتفية معي على رغبتي في ذلك وقال إن مدير المدرسة صديقه. وأنا ذاهبة أولاً لتوقيع العقد وللتعرّف على المكان وهذا إذا لم يبدلوا رأيهم طبعاً.. وسأكون هناك في اليوم الأوّل للتدريس.

ـ ما إسم المدرسة؟

حين ذكرته له قال لها: صاحبها طبيب التقيته مرّات في مؤتمرات طبّية وزوجته هي المشرفة على المدرسة والمسؤولة عنها وسيدة القرار. سأرافقك في رحلتك إلى بيروت وأدعمك.

ـ أريد الذهاب وحدي في سيارتي.. أحبّ الاعتماد على نفسي!

ـ حسناً. سأتصل بهما هاتفياً اللّيلة وأدعمك!!..

أضاف: في المرة القادمة حين تضطرين للذهاب إلى الملازم ناهي لطلب إذن السماح بالسفر، لا تذهبي بمفردك. سأرافقك.

سألته زين بدهشة: هل تعرفه؟

ـ تعارفنا منذ بعض الوقت لأنه كان يريد خدمة مني.

أدركتْ زين أن تلك "الخدمة" هي على الأكثر إجهاض إحدى عشيقاته فلم تطرح الأسئلة. أضاف د. المناهلي: إنه وغد. اتصلتْ به زوجته أو مطّلقته ورفض أن يحدّثها على الرغم من أن معاونه دخل إلى الغرفة قائلاً إن المخابرة هي "بخصوص" طفلهما. وصرخ بمعاونه: تريد الآن المتاجرة بطفلنا؟ سأنتزعه منها عمّا قريب. لا أريد أن أسمع منك بعد اليوم كلمة عنها. تخلّص من مخابراتها اللجوج.

قالت زين: علمتُ من بعض الأصدقاء أن الناس بدأت تضجّ من ممارساته وأشباهه، وأنهم يضيّقون على الناس، ويهدرون المال العام في شراء الوجاهة والسيارات والمرافقين للزوجات والعشيقات، أما الرشوة فصارت "واجباً"!! وثمة من يستورد الأدوية التي انتهت مدة صلاحيتها ويبدّلون تاريخها وتباع للناس تحت شعار «الله هو الشافي» لتبرير قذارة عملهم ثم إنه وأمثاله...

قاطعها د. المناهلي: لا تكتبي الآن كلمة عن ذلك كله.. حسبك أن ترتبي أمورك في بيروت وبعدها لكل حادث حديث...

الفصل السادس (محاولة حادية عشرة)

بيروت عاصمة الحريّة، ولكن ..

في بيروت سعدت زين بلقاء ناشرها وزوجته.. وفي دار النشر ـ التي أصدرت كتابها الأول ـ التقتْ زين بصحافية اهتمّت بها وعرضت عليها تعريفها ببعض صفحات "كتاب بيروت". كانت زين قد بدأتْ يومها في مدرسة الشويفات حيث ٱستقبلها المدير وبرفقته الناقد إدوار الذي كان وراء عملها في المدرسة، وفوجئت بحضور "المديرة الكُبرى" للمدرسة إكراماً لاتصال هاتفي من الدكتور المناهلي.. وبعدها ذهبت إلى الجامعة لأداء امتحان القبول، فوجدته سهلاً حتى حدود الشكليات لا أكثر، ولا يستطيع أن يرسب فيه إلاّ من يجهل الانكليزية! وهكذا غادرت الدار برفقة الصحافية مارلين. مرّتا بفندق "لوردز"[1] الذي نصحها والدها بالنوم فيه ليلة وعدم العودة من بيروت إلا صباح اليوم التالي. لماذا فندق "لوردز"؟ لأن أصحابه يعرفون والدها وسيهتمّون بحصولها على غرفة مطّلة على البحر **(ذلك وحده يكفي لإغرائي، أنا عاشقة البحر في اللاذقية، سأتعارف مع وجهه في بيروت)**.

اصطحبتها مارلين للعشاء في "مطعم فيصل" مقابل المدخل الرئيسي للجامعة الأميركية في شارع "بلس"، قائلة: ستقضين هنا وقتاً مع المثقفين والسياسيين والأدباء وهم من زبائنه الدائمين. وأخذت تهمس لها بأسماء الحاضرين من عرب ولبنانيين الذين طالما قرأت لهم أو سمعت بهم وبفنّهم أو بفكرهم السياسي. تكرر الشيء ذاته في مطعم ومقهى على بعد خطوات يُدعى "الأنكل سام" حيث ذهبتا لشرب القهوة، فإلى مكان يُدعى "هورس شو" في شارع الحمراء.. وفي كل منها جاء من يحيي مارلين أو يتعرّف إلى زين وبينهم من شاهد صورتها على غلاف كتابها وطالعه.. لم تشعر زين بالغربة بل بالإلفة، فالكل يتحدّث مسترخياً وعلى سجيته، والنساء مزروعات كالورود النضرة في الموائد يُناقشن ويُجادلن في ثياب بالغة الأناقة "قليلة الحشمة" بمعايير زقاق الياسمين.

قالت زين شاكرة: سأعود لأنام وأرحل غداً. ما لم تَقُلْهُ زين هو أنها كانت تفتش بنظراتها عن غزوان.. مارلين الذكية سألتها: عمن كنت تبحثين؟ هل تظنين

---

(١) فندق صغير يطل بعضه على البحر لم يعد اليوم موجوداً.

أنني لم ألحظ ذلك؟ لكل منهم مقهاه المفضل وأنا أعرفهم وأعرف مقاهيهم.

ـ لن أجيب لكي لا أكذب عليك..

قالت مارلين بصراحة هي جزء من مناخ الأماكن الحرّة المسترخية في صدقها: وأنا أيضاً لن أكذب.. هل ظننت أنني دعوتك للعشاء وسواه لوجه المحبة. ستدفعين الثمن الآن.. أريد حواراً معك لمجلتي وسنقوم بذلك في "الدولتشي ڤيتا"[1] على الروشة.. أسماء جديدة لأماكن جديدة انتعشت زين فيها و"فردت" ريش جناحيها.. وفي "الدولتشي ڤيتا" حيث يكاد المقهى أن يكون جزءاً من رصيف الشارع، وجدتا مائدة صغيرة يجلس عليها شاب وسيم، وقالت مارلين ببساطة وهما يتبادلان القبلات على الخد كأمرٍ مألوف: «هذا حبيبي لهذا الشهر». وضحكا وشاركتهما زين ذلك: لكنها تابعت بحثها عن وجه غزوان.. وقبل أن تشهر مارلين قلمها وأوراقها، وبينما كانت زين مسحورة بضوء القمر الذي أضاء درباً على البحر في الجانب الآخر من الشارع جاء شاب من مائدة أخرى حافلة بالضحكات وقال لزين: عرفناك من صورك. مُنح بيك يدعوك إلى مائدته.. قالت مارلين وقد حدست دهشة زين وارتباكها: ستلحق بك.. جهّزوا لها مقعداً.

وقالت لزين: مُنح بيك مفكّر كبير يحب المشافهة بدلاً من الكتابة.. للمائدة طقوسها وشبه أدوار للإدلاء بالآراء والنقاش وتمتاز مائدته/ المنبر بخفة ظل مُنح بيك حتى في أكثر النقاشات جدّية. إنه لامع الذكاء متعلم ومثقف.. وأعزب أيضاً!. إذهبي إليهم ولا تخافي. كوني على سجيتك..

ـ وحوارنا الصحفي؟

ـ تعارفي ومناخ بيروت الثقافي والفكري أولاً.. وأظن أن مما قرأته لك ستحبينه، ولن تجدي صعوبة في التسلل إلى الدورة الدموية الفكرية لبيروت.. فأنت عاشقة من عاشقات الحرية والجنون الفني، ومقاهينا من بعض أوعيتها.

جمعت زين شجاعتها وذهبت إلى مائدة مُنح بيك وهي نصف خائفة وتُردد في سرّها: أنا صخرة في قاسيون.. سقطتْ في محرق ضوء الحضور على المائدة،

---

(١) كلها مقاهٍ ومطاعم لم تعد اليوم موجودة بعد انقراض زمن المقهى الثقافي السياسي بوجود الأنترنت وانحسار مساحة الحرية للمرأة والرجل معاً.

وبينهم من هو على استعداد لصلبها فكرياً فوق خشب المائدة إذا لم تتلقف كرة العفوية والتلقائية ولكن النقدية.

قال لها مُنح بيك: أنت أول آنسة ندعوها للجلوس إلى مائدتي الفكرية.

ردّت عليه بعفوية: أُراهن أنك تقول ذلك لكل سيدة تدعوها إلى مائدتك! وانفجروا ضاحكين.. ولم تشعر أنها غريبة عن مُنح بيك ومائدته ولقّبته منذئذٍ بـ"البيك البروليتاري"..

دار الحوار ذكياً ممتعاً. شاركتُ فيه زين بانسجام ومن دون تطفّل. **(للجدران آذان في كل مكان لكنها هنا لن تقودَ أحداً إلى أقبية السجن؟ أم تراني مُخطئة وضوء القمر يُشوِّس موجاتي العقلية؟)**.

جاء شابٌ وقال لزين: أنتِ مدعوة إلى مائدة "الندماء"، وأشار إلى مائدته التي تضجّ بالضحكات، فاستأذنتْ مُنح بيك قائلة له: «ما بتعرف خيره لتجرِّب غيره»[1]. اعتذرتْ ونهضتْ إلى المائدة الأخرى خفيفة كغيمة. هناك عرّفوها على "النديم" الأول وهو رجل مُسِّن من آل السعداوي، وكانت مائدته أكثر مرحاً من مائدة البيك.. ولم تشعر بمرور الوقت وهي تُشارك في الحوار والضحكات المتطايرة في جو الليل البحري كفراشات مضيئة.

* * *

حين وصلت زين إلى الهامّة فدُمّر، وشاهدت أحد فروع بردى يجري إلى يسار السيارة، امتلأ قلبها عشقاً لـ"مدينة الأنهر السبعة"[2] التي جاءت لوداعها.. وأطلّقت عليها من يمينها الصخرة التي كتب عليها أحدهم: «اذكريني دائماً».. وتحتها عبارة: «لن أنساك»، وزين تتوهم من زمان أنها هي التي كتبت عليها ذلك لدمشق، وردّت عليها دمشق بقولها: لن أنساكِ...

لا. لن تغادر دمشق كلصّ وستفي بالتزاماتها كلها. ستطلب من مدرسة "دوحة الفكر" إيجاد بديلة لها كذلك المكتبة. رحّب الجميع برغبتها في متابعة الدراسة **(لعلهم رحّبوا بالتخلّص من مزعجة مثلي جاءت مكسورة الجناح وصارت تطير من**

---

(١) مثل شامي شائع الاستعمال بمعنى: التجربة أكبر برهان.

(٢) لقب من ألقاب دمشق حيث يتفرع بردى إلى سبعة فروع تخترقها ولكل فرع إسمه الخاص.

أعمدة الصحف إلى شاشات التلفزيونات).. في المكتبة حين ذهبت لوداعهم عرضوا عليها مرافقتهم إلى مزرعة الشاعر عزمي، وانتهى بها الأمر سائقة للرحلة في زحام الشارع. هناك اكتشفت وجود بئر يتوسط المزرعة له سلم حديدي. هبطت فيه وسط تحذير الشاعر لها وبقية الزملاء. لا تدري لماذا لم تستطع مقاومة رغبتها المفاجئة الطاغية في اكتشاف البئر ومخلوقاته وأصواتهم تتناهى إليها محذّرة من السقوط ومن عقارب المكان وأفاعيه وحشراته. كان الضوء يتلاشى كلما هبطت درجة، فراحت تتأمل الضوء في جانبه الآخر. **(أنا الآخر في قاع بئر حياتي وعليَّ ألاّ أخاف لكي لا أقع وأن أتعلّم الصعود بعد اكتشاف دنيا القاع)**.

حين غادرت البئر كانوا يرتجفون خوفاً عليها وبالذات الشاعر صاحب المزرعة الذي خاف من والدها المحامي إذا أصابها أي مكروه، فمن المفترض أن يقوم بتغطية البئر. غادرته وعلى كتفها رتيلاء سوداء نفضتها عن كتفها وهي تتذكر لسببٍ تجهله الملازم ناهي!...

* * *

لم تجرؤ زين على أن تروي لوالدها مغامرتها مع البئر وفضولها الذي لا يرتوي لمعرفة قاع الأشياء فقد وجدته متجّهماً. تذكرت وعدها لصاحبة "منتدى سكينة" بقراءة قصة، ليلة يُحاضر والدها في المنتدى فقالت له: لا تقلق. أعرف أنهم طبعوا بطاقات الدعوة للمحاضرة...

تظاهر بأنه لا يدري شيئاً عن مغامرتها تلك التي أخبره بها مدير المكتبة حتى قبل عودتها للبيت. قال لها: سأفتقدك حين تذهبين وسأحضر لزيارتك. جوازُ سفرك مع زميلي المحامي نجاتي. لديه أصدقاء وسيعيده إليك وعليه إسم مصر ضمن أسماء البلدان المسموح لك بزيارتها. قالت: من لا يفرض فنه أو أدبه في القاهرة لا يتمّ الاعتراف به عربياً. إنها عاصمة للثقافة ومن ينجح فيها يكون قد مرّ من ثقب الإبرة[1].

في الصباح الباكر وصوت فيروز الرائع يغني "ماروشكا.. في الغاب الحزين"..، اتصلت زين بمعاون الملازم ناهي من أجل "الورقة السحرية" التي

---

(١) كانت القاهرة كذلك يومئذٍ.

تأذن لها بالذهاب إلى بيروت طالبة منه أن يحتفظ بها عنده لتمرّ في وقت من نهار الغد لاستلامها.

ـ لحظة. سأستشير الملازم ناهي.

ـ . . . . . .

عاد بعد دقائق قائلاً: حضرة الملازم يريد أن يحدّثك.

ـ ألو زين.. أنا الملازم ناهي..

ـ أهلاً..

ـ سأنتظرك بنفسي لأُعطيكِ إذناً بالسفر.. تعالي في العاشرة..

ـ أي بعد ساعة و٤٥ دقيقة؟..

ـ لا.. تعالي في العاشرة ليلاً.. سأصطحبك بعد توقيع "الإذن بالسفر" إلى العشاء فإلى سهرة ستطول.. قولي لوالدك إنك ستنامين عند إحدى صديقاتك.. وأغلق سماعة الهاتف قبل أن يتيح لها فرصة الاعتراض أو الاحتجاج!..

راحت ترتجف غضباً.. **(هل سأذهب إليه وأحصل على الورقة وألاطفه وأكذّب عليه بأن والدي مريضٌ وعليَّ العودة إلى البيت وتأجيل العشاء إلى ليلة أخرى؟ هل سأذعن للمثل الشامي الشهير «اليد التي لا تقدر عليها قَبِّلها وادعِ عليها بالكسر!»؟.. لا. لن أُقبِّل تلك اليد بل سأحاول كسرها وأنا أعرف أنني عاجزة عن ذلك... لا.. لن أهادنه.**

اتصلت زين بالشاعر علوان وقالت له: هل أستطيع دعوتك إلى لقاء في مقهى الروضة؟

ـ أهذه دعابة؟

ـ لا. دعنا نلتقي هناك في التاسعة والنصف مساءً حول صحن من "كشك الفقراء" أو "المحلاية" أو "الرز بحليب"[1].

أضافت: سأسدد أنا الحساب..

قال ضاحكاً: أعرف أن غرضك ليس تغذيتي وإطعامي أو الاستماع إلى قصيدتي الأخيرة.. فماذا تريدين؟

---

(١) هذه أصناف من الحلوى الشعبية الشامية.

ـ سأقول لك حين نلتقي. . .

قضت يومها في تشذيب القصة التي ستقوم بقراءتها في منتدى سكينة. . **(أشعر برغبة جامحة في ركوب سيارتي الآن. . وتزوير تاريخ "ورقة السماح" بالسفر التي كان ناهي قد بدأ بكتابتها واستعمالها للهرب من مكانٍ يريد الإطباق على عقلي كفخ منصوب لجرذ. . لكنني لا أستطيع أن أخذل صديقة أمي الرائعة الأستاذة ثريا، مؤسِّسة "منتدى سكينة" بعدما وزّعت بطاقات الدعوة. . عليَّ أن أتعلم تبريد الأعصاب المحمَّرة كموقد كهربائي. . وضبط ذاتي)**.

في التاسعة وعشرين دقيقة كانت زين بانتظار الشاعر علوان. **(لقد علَّمني أبي منذ صغري الدّقة في المواعيد سامحه الله. فأنا دائماً أنتظر الجميع نصف ساعة على الأقل! وثمة ذريعة لا تبلى: زحمة السير!!)**.

ما كاد علوان يصل متأخراً حتى هاجم طاولتهما باللطف والإعجاب الشاعر خفيف الظل: كامل، قادماً من بلده خصيصاً للاحتفال بحزبه الذي صار "الحزب الحاكم". . وقال لزين: انضمي إلى حزبنا. . الرفيقات غير جميلات. .

ـ هل تبحث عن جارية أم عن رفيقة؟. . وتابع محتفلاً: إنه زمن "الأنبياء الصغار". . هذا هو الإسم الذي اخترعته لهم. . أليس مناسباً يا زين؟

ـ هناك "الأنبياء الصغار" وهناك "الشياطين الصغار" أيضاً. .

ـ أنت ليبرالية ولا يعجبكم العجب! سأذهب للاحتفال على مائدة أخرى. . .

سألها علوان: لماذا كُنتِ عدوانية هكذا مع الرفيق كامل؟

ـ لأنني أغلي غضباً. . "رفيقك" ناهي يريد مني الذهاب إلى مكتبه الليلة في العاشرة ليلاً. . نعم ليلاً. . ليعطيني "إذناً بالسفر" إلى بيروت لأتابع دراستي هناك. .

ـ لا أصدّق. .

ـ الناس تثرثر عن ممارساته وأمثاله وسلوكهم القمعي. . . لقد سجنوا شقيق الشاعر عامر، الملازم باهر، إبن القرية القريبة من بانياس لأنه وحدوي، وغير راضٍ عن إنفرادكم بالحكم. .

ـ لا أصدّق. .

ـ إنه الآن في "سجن المزة" . . علمت بذلك من إبن عمّتي الفلسطيني الذي يريد السفر للعمل مع الأديب غزوان على إصدار مجلة جديدة في بيروت، ويحاول أزلام ناهي إرغامه على أن يصير من أصحاب "الخط الحلو"[1] . . .

ـ لا أصدّق . .

ـ يثرثر أهل دمشق عن صفقاته . . يشتري شركاؤه من الفاسدين من أبناء بعض الأسر العريقة أدوية منتهية الصلاحية ويضعون عليها تاريخاً مزوّراً وتُباع للمرضى . . وحتى تطعيم الأطفال لم ينجُ من تزويرهم . . فهي فاسدة أو فاقدة للصلاحية لا فرق .

ـ لا أصدّق . . .

ـ يدفعون بالصحافين ناهيك بالشعراء إلى كتابة المدائح تمجيداً بهم وبالحزب الأوحد، وذلك يُساهم في تكوين طبع خطرٍ لديهم هو "العزّة في الإثم" . . إثم أحادية الحقيقة والعظمة الموهومة . . ألَم تقرأ القصيدة الأخيرة لصديقك كامل عن "الأنبياء الصغار"؟ إنهم يؤذون الثورة . . ويربّون لدى أمثال ناهي وهم العظمة وبالتالي ديكتاتورية الانفراد بالقرار .

ـ لا أصدّق . . .

ـ صار حديث الناس التضييق على الحريات كلها تدريجياً وهدر المال العام والفساد . .

ـ لا أصدّق . .

ـ ثمة فساد تنبغي مكافحته قبل أن تعجّ الثمرة بالدود . . . يجب تصحيح ما يدور منذ البداية . .

ـ لا أصدّق . .

تابعت زين قائلة، وهي تتأمل الصندل العتيق للشاعر علوان وقميصه نصف المهترئ: أعرف أنك مفلس ونقي، ومعك لن أشعر بأن فخاً ينتظرني خلف كل خطوة وكلمة، على العكس من الملازم ناهي . .

وتابعت زين بأسلوبها المباشر الجارح: إنه ببساطة وغد يحاول استغلال منصبه

---

(١) وصفٌ يدعو به أهل دمشق رجال المخابرات الذين يكتبون التقارير عن كلام الناس وأفعالهم .

لمكاسب جنسية أو مالية أو انتقامية أو شخصية أو "دهليزية" لها صلة بعُقده النفسية، وغير ذلك كثير.. فالاشتراكية عنده تعني استبدال طبقة ثرية بأخرى مفلسة تحتل مكانها وتتابع ممارساتها وتتحالف مع الفاسد منها وشعبنا السوري في معظمه كادح يحلم بالرغيف.. والعلم لأولاده.

- لا أصدّق...

- فكّرتُ بالاتصال بأحد الرؤساء المباشرين لناهي لأشكو لهم ممارساته لكنني خفتُ أن يكون أحدهم شريكاً فيها أو ساكتاً عليها لأن ناهي مشهور بأنه بطّاش، يستطيع تكرار أفعال "السلطان الأحمر" وتذويب العدو في مغطس من "الأسيد"...

- لا أصدّق..

- حسناً. تعال معي لتشهد بعينك أنني لا أكذّب وأن ناهي بانتظاري منذ عشر دقائق.

- لا أصدّق..

- لسانه يقول: "الثورة" لكنه يعني "الثروة" فهي هاجسه الوحيد.

- لا أصدّق..

- حكم أفراد من أمثاله خطر للغاية.. فلا بد من وجود المؤسسات الديمقراطية.. والتعدّدية...

- لا أصدّق..

- تعال معي لتصدّق!

كالمنوم، نهض علوان خلفها حين نهضتْ والنادل ينظر إليهما بدهشة، إذ تجاهلاه ولم يطلبا شيئاً ولم يغرقا في حوار غزلي.. **(أنا صخرة في قاسيون. لن يخيفني ناهي. لن أقبّل يده. سأفضحه وليكن ما يكون. نعم أنا مطّلقة وذلك يُحسب ضدي كمواطنة.. ولكن من تراه لا يُخبئ جثة في خزانته؟ أنا على الأقل عارية الحقائق مثل شوكة تحت المطر)**. طوال الدرب لم يقولا كلمة وهي تقود سيارتها بسرعة. **(أنا غبية أنا حمقاء.. كيف أقترف ذلك كله وجدّتي تُكرر: «العين لا تقاوم المخرز». لا. لستُ غبية. أنا صخرة في قاسيون... لا تخافي يا زين.. لا.. لستُ خائفة)**.

توقفت زين بسيارتها أمام أحد مباني شعبة المخابرات والأضواء مطفأة فيه.

قال الشاعر علوان وهو لا يريد أن يصدّق شيئاً مما ذكرته له: أنظري، المكان مغلق.

لم تجبْ، بل أشارت إليه بأن يلحق بها.

المدخل انفتح بدفعة صغيرة من إصبعها على الباب. اتجهت في الممشى نصف المعتم صوب غرفة الملازم ناهي ولم يسألها معاونه شيئاً وهزّ رأسه بالتحية كأنه كان بانتظارها. تخلف الشاعر علوان عنها قليلاً كأن قدميه لم تعودا تقدران على حمله أمام هول التهمة التي تكاد تبدو حقيقة. وهكذا سبقته زين إلى غرفة الملازم ناهي الذي انقضّ عليها معانقاً وهو يقول: كنتُ أعرف أنك ستحضرين.. أعرف أنك تموتين للحصول على الإذن بالسفر هذا.. وكان يحمل بيده الإذن بالسفرَ فانتزعته منه وهو يضحك. وقبل أن تقول زين شيئاً وهي تتملص منه، قال الشاعر علوان الذي وصل إلى مدخل الغرفة وعيناه لا تصدّقان ما يراه صارخاً: لا يا رفيق.. لا يا رفيق.. لا... وهجم على ناهي ليُبعده عنها.. وربما ليضربه..

أمسكت زين بإذن السفر. وانطلقت هاربة بسيارتها.. وتركتهما يتحاوران "عقائدياً"!!.

سألها والدها بلهجة ودّية لكن قلقة: لماذا تأخرتِ هكذا؟

قالت زين: أرجو المعذرة يا أبي.. كان عليّ الاتصال بك هاتفياً لكن رأيتُ ألا أزعجك برواية تفاصيل هذا النهار العسير وليله..

لم تقل زين لوالدها إنها حين غادرت مبنى المخابرات بدهاليزه وأصوات الأنين من أقبيته التي التقطتها بوضوح إذنها "البومية" المرهفة، انطلقت بسيارتها كالمجنونة إلى ساحة جبل قاسيون وهي تُبَوّم وتتنفس ملء رئتيها وتشعر بالحاجة إلى اكتشاف رئتها الثالثة، رئة الحرية.. الحرية.. فهي لا تطيق أن يضع أحد "عدّاداً" على ضربات طبول قلبها، وطواحين هواء روحها، وجنونها داخل شراييها حيث تزمجر العواصف في الأنابيب والدهاليز المعتمة للروح. فتحتْ زين نوافذ سيارتها وهي تعود إلى البيت وصرختْ بأعلى صوتها كأية بومة يحاولون قصقصة أجنحتها: إنها مضمخة بدم أحزانها وبالحبر، ولكنها تطير وستظل تطير وستظل تغنّي: حريّة.. حريّة.. حريّة...

* * *

لم يرن الهاتف طويلاً في "منتدى سكينة" الأدبي. ردّتْ عليه بسرعة صاحبته وسكرتيرته وعاملة الهاتف ومهندسة الديكور فيه: الأستاذة ثريا.

قال المتكلم إنه يُحدّثها باسم الملازم ناهي من شعبة المخابرات، وقد قرأ في إحدى الصحف عن الدعوة الليلة إلى ندوة مشتركة لأمجد الخيّال، المحامي الكبير، وابنته زين الأديبة. فقاطعته بسرور قائلة: الدعوة عامة وسيُسعدنا حضورك أنت ومن تشاءَ والملازم ناهي.. طبعاً.

أجابها بصوت متوتر: أعتقد أن عليك إلغاء الندوة الليلة لأن زين عميلة للمخابرات الألمانية.

غضبت الأستاذة ثريا وصرخت في سمّاعة الهاتف: لا أحب هذا النمط من المداعبات السمجة.. أليس لديك عمل أم أن شيخك الذي أهدر دمها أوحى لك بهذه الأفعال الحقيرة؟

وأغلقت سماعة الهاتف في وجه المتكلم الحاقد صاحب الدعابة السمجة ولم تكن تدري أن محدّثها هو الملازم ناهي شخصياً!!.

* * *

استرخت الأستاذة ثريا في مقعدها بعد أمسية حافلة في منتداها (**مُتعبة لكنني سأنام الليلة سعيدة لأن "منتدى سكينة" ازدحم بالمثقفين كما أشتهي. لم يخطئ ظني.. لم يسبق أن شهد المنتدى عندي زحاماً كهذا، ولستُ بنادمة لأنني فتحتُ بابَيْ الغرفتين المجاورتين لقاعة المحاضرات ورصفت فيهما المقاعد.. فالقاعات امتلأت كلها بالناس صحافيون ومثقفون وأساتذة في الجامعة السورية ومحامون من زملاء الدكتور أمجد أو متدربون في مكتبه وفضوليون ومتطفلون.. وكارهون جاءوا كلهم.. لقد قلتُ لزين وهي تودّعني إن نجاحها بدأ يستفزّ الحسّاد وإن شخصاً مهذاراً اتصل بي زاعماً أنه يحدثني من قبل الملازم ناهي من شعبة المخابرات ويريد مني إلغاء المحاضرة.. توقعتْ أن تضحك زين، ولكن علامات القلق بدت على وجهها.. لا.. إنها بالتأكيد علامات التعب بعد قراءتها لقصتها الحزينة.. وقد أسأتُ تفسير ردّة فعلها...**).

* * *

تقود زين سيارتها وإلى جانبها والدها سعيدة بسعادته لنجاح تلك الندوة في "منتدى سكينة" **(كُنتُ على وشك مشاركته سعادته حين أخبرتني الأستاذة ثريا متندرة بحاسد اتصل بها هاتفياً صباح اليوم طالباً منها إلغاء الندوة مدّعياً أنه معاون ناهي وأغلقتْ السماعة في وجه الدعابة السمجة. لا تدري أن الأمر ليس بدعابة. ها هو انتقام ناهي لم يتأخر واتهامها بالتجسس لألمانيا الغربية أمرٌ خطرٌ.. تلفيق التُهم من من اختصاصه فيما يبدو. لقد تخلّصنا من الانتداب الفرنسي ولن أرضى يوماً بأن يصير الحكم الوطني انتداباً استبدادياً.. سأقاومه وأتابع تعريتي لحقيقته وحقيقة أمثاله.. أنا صخرة في قاسيون ولن يقتلعني أحد)**.

أمجد الخيّال، هو الآخر، ظلّ صامتاً في الطريق إلى المنزل وهو يتجرّع سعادته بتلك الأمسية قطرةً قطرةً.. **(ها هي إبنتي أديبة معروفة مثل ميّ زيادة، لكنهم لن يجنّنوها بل هي من سيجنّنهم! أشعر بأنني سدَّدت ديني نحو أمها هند، التي حرمتها من لقاء الناس حتى عبر منبر عام. هاجسي الآن أن أحمي مستقبل زين بدلاً من البكاء على ماضيَّ)**.

قطعتْ زين الصمْت حين قالتْ لوالدها: تعلمتُ اليوم منك أمراً هاماً في موضوع المحاضرات.. ألا وهو إضحاك الناس أولاً.. كان رائعاً أن تقول للحاضرين مداعباً إنك ستقرأ محاضرتك قبلي كي تُرغمهم على سماعها إذ لو قرأت قصتي قبلك لمضوا جميعاً بعد ذلك...

ازدادت سعادة أمجد بمديح إبنته له. ما لم يكن يدريه هو أنها تعني ما تقوله لكنها تحاول به إلهاء والدها عن قلقها البالغ من انتقام ناهي منها بتهمة التجسّس المشينة..

* * *

رن جرس الهاتف في مكتب جريدة "الطاعة". رد رئيس التحرير، المحرّر الوحيد فيها ومدير قسم الإعلانات.. وهذا هو الأهم عنده:

- أنا معاون الملازم ناهي.
- أهلاً وسهلاً بالملازم ناهي وبمعاونيه جميعاً.
- نشرتم البارحة تحقيقاً مصوراً مع "المتأدبة" زين الخيّال.. لا ليست الأديبة.. فقط المتأدبة..

ـ أجل. وجدتُ صورها جميلة فنشرتُ الموضوع لغواية القرّاء..

ـ ولكن تلك المرأة المطّلقة جاسوسة على وطننا تتجسس لألمانيا الغربية، ومن الأفضل عدم نشر كلمة عنها إلا إذا كانت انتقاداً لها.

ـ آسف لم أكن أعرف ذلك.. ولكن هل من المستحب نشر عدّة مقالات ضدها؟

ـ سيكون ذلك عقاباً لأعداء الوطن الجواسيس.

ـ حاضر.. حاضر..

ـ لدينا إعلان عن مناقصة لشراء بدلات لمنتسبي المخابرات وجزمات شتوية لهم ونريد نشر إعلان حول ذلك في صفحة كاملة في جريدتكم..

ـ بكل سرور..

ـ وسمعتُ أن شركة عائدة لك ولشقيقك تقوم بتزويد ذلك عادةً حين ترسو عليها المناقصة..

ـ نعم يا حضرة المعاون..

ـ حسناً.. أستعدْ لذلك.

ـ شكراً.

ـ لا تقلق.. سأهتم بالأمر بنفسي..

ـ أنا جدّ ممتن.

ـ تذكر أنه من المفيد للأدب العربي أن يدرس ناقدٌ أعرفه كتابها الأول بعين الأيديولوجيا، فهي بورجوازية متمردة وهذا كل شيء.. النقد الإيديولوجي سيُعرّيها.. ستتهمنا بالجدانوفية لكن أحداً لن ينشر لها هذا الهراء...

* * *

رنّ الهاتف طويلاً في مكتب جريدة "الانتصار" من دون أن يرفع السماعة صاحبها الأستاذ وديع، فهو يُحرّر بمفرده صفحاتها السياسية، أو بالأحرى إنه يقرأ كل سطر كتبه المحرِّرون ليصدرها فجر اليوم التالي..

دخل عليه محرر الصفحة الثقافية محيو، وقال له إن معاون الملازم ناهي اتصل محتجّاً على العمود الذي تكتبه زين الخيّال مُطالباً بإيقاف نشره لأنها عميلة للمخابرات الألمانية الغربية. كاد الأستاذ وديع ينفجر ضاحكاً لسخافة التهمة في نظره

لو لم يضفْ المحرر محيو: إنه ما زال على الخط ويريد أن يكّلمك.. رفع الأستاذ وديع السمّاعة وقال بصوت صارم: نعم...

قال ناهي بتهذيب مفتعل: صباح الخير يا أستاذنا أنا معاون الملازم ناهي من شعبة المخابرات. كنتُ أقول لمحرّرك الثقافي محيو إنه من الأفضل عدم نشر المزيد من مقالات زين الخيّال. ردّ وديع دونما وداعة وبعنف: ولِمَ لا؟

ـ لأنها متّهمة بالتجسس لصالح ألمانيا الغربية.

انفجر الأستاذ وديع ضاحكاً وقال: هل هذه كذبة نيسان أم دعابة؟

بصوت مختنق ردّ الصوت: أعني ما أقول وقد أصدرنا اليوم أمراً بمنعها من السفر.. أو بترّصد قدومها لسوقها إلى التحقيق.

اعترض وديع: كل متهم بريء ريثما تدينه محكمة عادلة. وسأظلّ أنشر مقالاتها حتى يصدر حكمٌ بحقها يُدينها.

لم يكن الأستاذ وديع يدري أن محدّثه هو ناهي شخصياً. أكّد ناهي بصوت حازم لم يعد يألف اعتراضاً على مشيئته: لا تنشر لها. هذا كل شيء..

أنفجر ديناميت الغضب في رأس وديع وصرخ دونما وداعة: جريدتي إسمها "الانتصار".. الانتصار على القمع وافتراس حريّة الكلمة. لهذا سأظل أنشر العمود الأدبي لزين الخيّال كما سأنشر إلى جانبه أي ردّ يصلني ضد رأيها.. هذا كل ما أستطيع القيام به إكراماً لرأيك..

انتهت المكالمة لأن ناهي أغلق بعنف سمّاعة الهاتف.

لكن الأستاذ وديع نادى محرّره الثقافي محيو وسأله عن عنوان مقال زين الذي أرسلته للنشر فأجابه محيو: عنوانه «الحريّة للمرأة.. وللرجل أيضاً!».

ـ انشره في الصفحة الأولى.

وفي اليوم التالي ليلاً وصلهم الرد على زين الخيّال ضمن مغلّف وُضع أمام باب الجريدة. كان الردّ مطبوعاً على الآلة الكاتبة باسم ذكوري يبدو مستعاراً وقال الأستاذ وديع لمحيو: انشره.

ولم يدهشه أن زين ردّتْ عليه في اليوم التالي بمقالة أَحَبَ عنوانها: «فلنُطالبْ بتحرّر الرجل أيضاً»..

كان سعيداً بتلك المنازلة بين الآراء المختلفة، وفي احتضانه لذلك "انتصار" له. لكن الردّ لم يطل هذه المرة من الطرف الآخر، وجاء بصورة منشور جديد وقّعته من يدعوه المقال بـ"بنات حماه" يرفضن فيه آراء زين بل ويرفضن منحهن حق الانتخاب والتصويت!

ردّت زين في مقالة بعنوانها: «فلنصلِ من أجل الجارية التي تُجلد»! وترى أن إرادتهن مُستلبة وأن المقال وقْعه أحد "المشايخ" المُشرفين على ضمان "عفتهن"، كأن المرأة عاهرة بطبعها ويجب ردعها استباقياً ووقائياً كما جاء في ردّها على الردّ. وأسعد ذلك الأستاذ وديع الذي كان مصمّماً على دعم زين لا لأنها إبنة صديقه، بل لأنها تُدافع عن حريّة الفكر التي أصدر جريدته لدعمها..

اتصلت زين به شاكرة. إبنه البكر رجائي أخبره بأن زين في طريقها إلى بيروت لمتابعة دراستها في الجامعة الأميركية والكتابة في صحف "عاصمة الحريّة العربية" كما يدعو معظم المثقفين العرب بيروت.

بأسف قال وديع معلقاً: سنخسرها من دون أن يُلاحظ الكثيرون ذلك.. إنهم يحاولون قتلها أبجدياً، بل وقانونياً وسياسياً.. كما حدث لأمها التي انتصروا عليها.

* * *

لا تعرف الحاجة الأمية حياة وسيلة تدلل بها حفيدتها غير ضمها إلى صدرها وإطعامها أطباقها المفضلة.. قالت لزين والقط هارون يتمسَّح بها كما تفعل زين: شممت "رائحة سفر" في البيت. فهمتُ من حديثك ووالدك أنك مسافرة للدراسة. لقد درستِ كثيراً وليس مثلي لا أعرف غير «ألف ب بوباية نصف رغيف وكوساية»..

ضحكتْ زين وعانقتْ جدتها التي أضافت: لقد طبخت لك اليوم "فتة مكدوس"، و"قمام بايلدي"، وسأوضب لك قبل سفرك: "ستي زئبقي"، و"بسماشكات"، و"«زنود البنات"، و"طبّاخ روحو"، و"شيخ المحشي"، و"بابا غنوج" و"حراق إصبعو"[1].

وصل أمجد الخيّال إلى البيت ملقياً تحية مقتضبة وقال لزين: أنا بانتظارك في غرفة المكتبة..

---

(١) أطباق شامية معروفة.

تملّصت زين من جدتها ولحقت به.

ـ ليس بوسعك السفر يا زين إلى أي مكان..

ـ لماذا؟

ـ ذهب المحامي نجاتي إلى دائرة الجوازات لإضافة مصر إلى البلدان التي ترغبين بزيارته فأطلعه الموظف، وهو إبن صديقه، على تعميم يمنعك من السفر ويقضي بترصد قدومك إذا كُنتِ خارج البلاد واقتيادك إلى شُعبة المخابرات. **(أبي لا يعرف شيئاً عن الملازم ناهي وما كان بيننا أو بالأحرى ما لم يكن وكيف فضحته أمام الرفيق علوان وتركتهما على وشك الشجار وحافة العنف.. سأكذب عليه كي لا أُقلقه. لا أريد بعد اليوم أن أسبّب له شيئاً غير البهجة).**

قالت لوالدها ضاحكة: أجل علمتُ بذلك واكتشفتُ أن السبب تشابه أسماء أدّى إلى هذا الخطأ. وسأذهب بعد إجازة الجمعة للحصول على ورقة منهم توضِّح الأمر ثم أسافر. لا تقلق يا أبي.

تنّهد أمجد بارتياح وقال لها: كُدتُ ونجاتي نسقط في بئر لهذا الخبر. وتصادف حضور د. رهيف مع قريبه الذي نتوّلى دعوى مالية أقامها على شريكه وشكونا له همّنا.. وقال إن صداقة تربطه بالملازم (...) الذي نسيت إسمه وسيتحرّى عن الأمر وحاول طمأنتي..

ـ إنسه يا أبي. سأتصل به الآن وأحدّثه عن تشابه الأسماء.

* * *

هذه المرة وصل د. رهيف وزين معاً إلى المقهى الترابي قبل موعدهما بنصف ساعة!

ـ أعرف أنك عرفت من أبي بمنعي من السفر..

ـ لقد وجّهوا إليك تهمة "التجسّس" لحساب ألمانيا الغربية!

ـ نعم. أنا "ماتا هاري"[1] العالم العربي. أظن أنه لا مفر لي من الهرب إلى بيروت خلسةً عن الملازم ناهي..

ـ إنه يريد خدمة مني.. كنتُ ذاهباً لرفضها، لكنني وافقتُ لأستطيع مساعدتك على الهرب.. ولكن هل استقرّ رأيك على هذا الخيار؟

---

(١) جاسوسة هولندية لحساب ألمانيا اشتُهرت في الحرب العالمية الأولى وأعدمها الفرنسيون.

- إنه أفضل من السجن ومن محاكمة غير عادلة من قاضٍ مأجور..

- حسناً. سأساعدك على الهرب.

- أرجوك.. لا أريد أن تتورط معي.. لديّ ورقة السماح بالسفر التي كان قد وقّعها، وسأحاول إلهاء الموظف عن فتح دفتر قوائم الممنوعين ومذكرات الجلب بالاستفسار عن اسمه واسم زوجته وأولاده لكتابة "إهداء" له على كتابي الأول..

- لدي خطّة أكثر أماناً وهي أن تركبي معي في سيارتي وسأدّعي أنك إبنة خالتي..

- لا أستطيع توريطك في هذه الحكاية فقد ينكشف أمري..

- هل تخافين عليَّ؟

- ربما.. وربما أخاف من توريطك وبذلك تصير غير قادر على مساعدتي!!..

- ألم يكن من الخطأ فضحه أمام الشاعر علوان كما رويتِ لي؟

- ربما.. لا أدري ما هو الصحّ وما هو الخطأ وبالقياس إلى ماذا.. كل ما أعرفه هو أنني عميلة للحقيقة وجاسوسة لها لا لألمانيا الغربية...

- لا تقلقي.. سأواكب خطّتك.. إذا شاهدته يفتح الدفتر الأسود للمغضوب عليهم وأنتِ الآن منهم، قولي له إن إبن خالتك بانتظارك عند الملازم ناصر وهو مدير نقطة "جديدة يابوس" على الحدود السورية - اللبنانية.. إحفظي اسمه جيداً. سيوصيه الملازم ناهي بتدليلي. سأكون عنده وأتولى الأمر إذا لم تنجحي بالمرور على طريقتك.. دعينا نتفق على اليوم والساعة.. سأكون هناك وسأتدخل قبل فتح "الدفتر الأسود"!!.

* * *

غادرتْ زين المقهى قبله. هبطتْ السلم الترابي وهي تمتص بعينيها منظر دمشق وبساتينها وقبابها بكثير من الحب والشوق.. والحسرة لأنها لن تستطيع المجيء مرّة كل أسبوع كما كانت تعد نفسها.. كادت تدمع حباً.. تأملت قاسيون الخالي من المباني شبه الأجرد وتساءلتْ: لماذا أجده أجمل جبل في العالم وقد شاهدتُ في باڤاريا بألمانيا قمماً تغطيها خضرة الغابات ويعانقها الغيم وهو يهبط فوقها ويشبعها ضماً وعناقاً؟

ما كادت تصل إلى البيت حتى قالت زين لجدّتها الحاجة: ما رأيك في ذهابنا الآن إلى بيت جدّي في زقاق الياسمين. أنا مشتاقة إليه..

ـ حسناً.. سأرتدي ثيابي وأضع "البرالين" بسرعة.

لم تقل زين لجدتها إنها تريد وداعه، فقد لا تراه ثانية قبل وقت طويل..

ولم تقل الجدة لزين إن "الختايرة" في الزقاق لم يعدن راغبات في مشاهدتها هناك بعدما قامت بـ"تفسيد"[1] البنات حين حرّضتهن قائلة إن كل بنت عليها الحرص أن تكون عصمتها بيدها ليلة "كتب الكتاب" لكي لا يذّلها مُطلّقها القادم بطلبها إلى "بيت الطاعة".. وهي على أية حال لن يُطّلقها إلاّ بعد أن "يْمرمطها"[2] ويرغمها على أن تبريه من "حقها ومستحقها"[3].. وأنهن صرن يترحّمن على أمها التي كان "القط يأكل عشاءها وهي ساكتة".

وصلتا إلى وسط سوق الحميدية وهي تسند جدتها كعكاز وتساعدها على المشي. قالت الحاجة حياة: تعالي نأكل "دندرمة"[4] عند "بكداش"[5].

أدركت زين أن الحاجة تريد أن تستريح قليلاً من المشي بعدما غادرت سيارة زين أمام مدخل سوق الحميدية الذي لا تدخله السيارات لاكتظاظ الناس فيه. زين التهمت "دندرمة بكداش" وطلبتها بالقشطة، وغصّت لأنها قد تكون تلك المرة الأخيرة:

وصلتا إلى بيت جدها وزين تتوقع أن ينقضّ الجميع عليها وكانت مخطئة.. دخلت كمن يدخل مكاناً له قدسية في قلبه بعدما قرعت الباب بـ"السقاطة" في الباب العتيق الجميل.. وهي سعيدة لأن زقاق الياسمين ما زال على حاله..

كانت تريد أن تتفقّد الأسماك الملونة في البركة التي تتوسط فناء الدار، وتستنشق أحواض الياسمين. الفل. الريحان. الورد الجوري. النرجس. النارنج.. وقد تسمع أذان العصر قادماً من الجامع الأموي القريب وبقية أصوات زقاق الياسمين البرتقالية والخضراء والليلكية.. الأصوات التي انطبعت في ذاكرتها من

---

(١) أفسادهن بأفكارها.

(٢) يذلها ويُبهدلها.

(٣) مؤخر الصداق.

(٤) بوظة.

(٥) حانوت مشهور خاص بالمثلجات والحلوى في ذلك الزمان. ولعله ما زال إلى اليوم في سوق الحميدية

"زلاغيط"[1] و"ولاويل"[2].. قرقرة النراجيل وهمسات النافورة وخرخرة السلسبيل.. وكل ما سيتملّكها الحنين إليه في بُعدها عن دمشق..

لم تجد زين شيئاً كثيراً من هذا.. الأحواض شبه ذاوية ولم يعد ثمة من يُغازل الأزهار لتزدهر..

أولاد العمّ الخالات والجيران والأصدقاء يتشاجرون.. وأصوات الصراخ تتعالى: أنت يا ميشيل شيوعي كافر..

قدَّرت زين أنه أحد أصدقاء الجلسة..

- وأنت رجعي..
- أنت ماركسي..
- أنت عفلقي..
- أنت غوغائي..
- أنت فلسطيني.. وقومي عربي.. ولن تفهمني...
- أنت قومي سوري..
- أنت عميل..
- أنت بورجوازي خائن..
- أنت إبن الذين أنت ابنهم..

(تُهم متبادلة. صراخ. عواء. ما من حوار. لو كان أحدهم يحمل مسدساً لأطلق منه الرصاص بالتأكيد)..

جاءت فلك للترحاب بهما "من رؤوس شفافها"[3]، ولم يرق الجو للحاجة وحزنت حين شاهدت إبنها عبد الفتاح جالساً على المصطبة بعينين زائغتين وقد عاوده المرض ولم يتعرّف عليها أو على زين التي تمنّت لو عرفها وكان بخير حتى لو كان ذلك يعني أن يقرّعها.. جالت زين بعينها بين "الديار" والسطح وشاهدتهم جميعاً.. الأحياء والأموات.. شاهدت أمها تطلّ من الشرفة وتبتسم لها والبومة تهز

---

(١) صوت تُطلقه النساء في الأعراس.

(٢) صوت تُطلقه النساء في المآتم.

(٣) ترحاب فاتر أو كاذب.

بجناحيها مرّحبة.. بل إنها شاهدت شبح عمّها الكبير سفيان، الذي لم تعرفه وكان من رجال الثورة السورية الكبرى في جبل العرب والغوطة خلال السنوات ١٩٢٥ ـ ١٩٢٧ على ما تظن. شاهدت الحاضرات والغائبات.. والحاضرين والغائبين.. وقفزت أمام عينيها كما في الحلم وجوه لؤي، وحميدة التي غادرت البيت قبل قليل، وفضيلة المسافرة في الكويت، وفيحاء المتزوجة في حلب، ومطيعة وبوران ودريد وقمر ورزان وماوية وهاني و.. و...

قالت الحاجة حياة بلباقتها المعهودة وأبناء البيت القديم في زقاق الياسمين يتشاجرون فيما بينهم ومع الأصدقاء مما أدهشها وأحزن زين: أنا ذاهبة إلى "الاستقبال" عند الجارة أم مظهر. من يرغب في مرافقتي يستطيع أن يلحق بي.

وقبل أن تمضيا خارجتين نظرت زين إلى أسماك "البحرة" لوداعها وصعقها أن الأسماك قد نفقت.. أو رحلت، وأن البركة شبه جافة...

لم ترغب زين في مرافقة جدتها إلى "الاستقبال" عند أم مظهر فقالت الجدة: لا تقلقي.. سيمشي معي مظهر حتى آخر سوق الحميدية ومن هناك سيقلّني بسيارته.. فأنا "مربيّته" وأقرب إليه من أمه..

مضت زين لا تلوي على شيء وقد جرحها كطعنة سكين ذلك الشجار المحموم بين أبناء البيت الكبير ورفاقهم. قطعت سوق الحميدية بخطى سريعة كهارب من شبح، بل من أشباح وأشباح وهي تقوم بالتَبْويم بلا صوت وبومتها "تُبَوّم" معها.. **(يا إلهي كم أتعثر بالماضي وأنا أحاول المشي صوب المستقبل! أعرف أنني غير قادرة على النسيان، لكنني قد أكون قادرة على الغفران لنفسي ولسواي).**

وحين وصلت زين إلى البيت قفز القط هارون إليها كأنه يشجعها وهي تواسيه.. قالت له: غداً لن أراك يا هارون.. ولا أدري أين سأنام.. في السجن هنا أم في لبنان؟

* * *

إنها ليلتها الأخيرة في دمشق.. وغداً تُغامر بالرحيل.

تتمدّد زين في سريرها لتنام.. تعجز عن ذلك وتتقلّب وبومتها تقفز من موضع إلى آخر في السرير كأنها قلقة مثلها...

(أغفو.. وأصحو.. ها أنا ذا في نفقٍ.. أركضُ صوب الضوء في نهاية النفق.. يركض خلفي الشيخ الذي أحلّ دمي وقد طالت لحيته المضفورة وصارت حبلاً من شعر يريد شنقي به.. يركض خلفي ناهي بلحية غيثارا وقد طالت حتى قدميه يُريد شنقي بها.. وخلفي تركض الجارة التي سبق لها أن وضعت الجمرة على لسان إبنتها لأنها قالت "أُحب" وهي تحمل "المنقل" المليء بالجمر المشتعل لسكبه فوق رأسي.. تركض خلفي ثرثارات زقاق الياسمين وهن يدخّن نراجيل لتحطيمها على وجهي..

يركض خلفي "نويقد" وقد شهر قلمه غاضباً مني لعجزه عن تطويعي بجزرة أو بضربة من قلمه على مؤخرتي كولد صغير وهو يطالع كتاب جسدي سطراً سطراً، فاصلة فاصلة، في الساق والخصر.. لاهثاً مشتعلاً بالشهوة وبالحقد في آنٍ، يريد تطويعي.. فأنا كامرأة من فعل الشيطان! يحاول طعني بقلمه في موضع القلب لكنني أركض ويعلن أن رجلاً يكتب لي، فالمرأة القاصر عاجزة عن كتابة كهذه.. والمطّلقة عاهرة "مجانية"، أرض مفتوحة لأي مركبة شهوات يحلو لها أن تحط فيها.. أركض نحو نهاية النفق وبومتي تلحق بي.

هل كُنتُ نائمة أحلم بكوابيسي؟ أم أنني أعيش ليلاً حياة "موازية" في كوكب نذهب إليه جميعاً حين نفتح نافذة الوسادة ونقفز منها إلى حقيقتنا وحقيقة الآخرين في عري بلا أقنعة؟.

بومتي تحلّق فوقهم لتخيفهم وهم يركضون جميعاً خلفي ومعهم عمّتي حاملة طعاماً لا أحبه محاولة إكراهي على ابتلاعه لتعليمي الطاعة وفي وجهها برق ذلك الوجه الخفي للقمع السرّي تحت شعار إجادة تربية بنات الأسرة.. وأنا أركض هاربة وفي قلبي انتحاب لأنني أحب مدينتي.. ولو لم يكن عليّ الهرب بحياتي لما رحلت، ولولا تعبي لدرتُ في الشوارع ولبكيتُ بصوت مرتفع كعاصفة لوداع دمشق.. ولركضتُ في ساحة المهاجرين وسوق ساروجة والمسكية والقباقبية وسوق "تفضلي يا ست" والميدان والشاغور وكل درب عشقتها في الشام وأنا أنوح كسيارة إسعاف.. ولزرتُ كل مدرسة درستُ فيها ولبكيت في كل باحة من باحاتها ولهامت روحي في الجامعة وعلى رفوف مكتبة تقطن قلبي، ولقبّلت مودعة كل كتاب

"صنّفته" وفقاً لترقيم ديوي[1] وأودعته على رفه وحميته من الغبار.. ولودعتُ كُتبي على رفوف مكتبة أبي ولداعبت أغلفتها مداعبة العاشق الشهواني ولانتحبتُ أمام كل كتاب درسته وعلّمني الكثير أياً كانت لغته.. ولعانقتُ أجدادي في كُتب التراث التي أرغمني والدي على قراءتها فوقعتُ في غرامها كمن عشقتْ زوجاً أرغموها على معاشرته فطابت لها تلك المعاشرة..

لم أودع أحداً حتى باتصال هاتفي، ولم أقل لأحدٍ خوفاً من أن أضعف وأنهار.. فبالكتمان أتماسك على نحو أفضل.

إنها الثالثة والثُلث فجراً. أنهض. أحمل حقيبتي الصغيرة وأخرى تحوي مسودّات قصص وسواها. أتسلل من البيت إلى سيارتي. أضعها في صندوق السيارة وأقفله وأعود إلى غرفتي والكل نائم. لا أريد أن يراني أبي ذاهبة بحقائبي.. لا أريد وداعه ولا تسبيب القلق له. سأتصل به من بيروت.. إذا وصلت!).

تتمدّد زين في سريرها من جديد تحاول عبثاً النوم. يركض شريط الوجوه المتعددة للقمع ثانية أمام عينيها وهي تحاول لملمة أعضائها المتناثرة على السرير وحوله على الأرض ورأسها الذي سقط فوق السجادة..

يوقظها من ذلك كله القط هارون وقد اندسّ بها.. تنهض لترتدي ثيابها. حان وقت القفزة الكبرى في "السيرك" السياسي!

* * *

في دربها إلى نقطة "جديدة يابوس" الخطرة حيث يُمكن أن يُلقى القبض عليها كانت زين ترتجف خوفاً وتتلو بعض الأدعية وبومتها تطير إلى جانبها وهي تُبَوّم بصيحات قلقة. لم تتوقف في ميسلون لتدخل إلى ضريح يوسف العظمة لتتلو الفاتحة عن روحه كما عوّدها والدها منذ صغرها.. **(أعترف أنني مذعورة لكنني لستُ نادمة ولا تائبة. لا أريد فقط أن يتعالى صراخي من قبو ناهي كالذين سمعتُ صراخهم ليلاً حينما استدعاني في العاشرة واصطحبت علوان معي!)...**

فقط حين توقفت زين بسيارتها أمام "نقطة" الحدود السورية ـ اللبنانية المدعوة بجديدة يابوس، لم تشعر بالخوف كما توقعت بل بالنشوة، كأنها تُتابع إلقاء القبض

---

(١) أسلوب في الترقيم لتنظيم المكتبات كان يُعمل به في الستينات.

على حقيقتها. **(يبدو أنني أُحبّ المغامرة التي تدفع بدمي في عروقي بسرعة شلال ويحتفي قلبي بذلك الزخم. نعم. لستُ خائفة بل مستثارة وأكاد أسمع صوت ضربات قلبي منتشية بشهوة المرور من ثقب إبرة المخاطرة.. أريد أن أربح الجولة كأي مقامر.. ويا لها من مقامرة! قد أربح فيها حياتي أو أخسرها.. أشعر أنني أتوهج بضوء خاص سحري قد يجعل من حولي يطيع جنوني أم أنني أحاول إقناع نفسي بذلك؟)**.

دخلتْ زين إلى غرفة التدقيق بالأسماء بهدوء بارد مرتدية أجمل ابتساماتها وأعطت الموظف المختص ورقة الإذن بالسفر (المزورة على نحو ما) التي سرقتها من الملازم ناهي ووقفت بومتها على كتفه ولم يشعر بها. ولكي لا يفتح دفتره الأسود فيجد إسمها فيه كشخص خطر، وضعت نسخة من كتابها الأول أمامه وسألته لإلهائه: أُريد أن أكتب لك إهداءً على هذا الكتاب (لم تقل له إنه من تأليفها) فما هو إسمك وأسماء زوجتك وأولادك لأكتبه في الإهداء.. **(أنا غبية وحمقاء.. كيف توهمت أنني سأنجو على هذا النحو.. شاهدت أفلاماً ينجو فيها البطل لكن الحياة مختلفة.. أنا حمقاء وسأدفع ثمن تصديق الأفلام)**.

صلّت كي يتذكر أنه شاهدها على شاشة التلفزيون ويهتم بكتابة إهداء له على كتابها، لكنه تجاهله وتجاهلها وتناول دفتره الأسود من دون حتى أن يرد عليها أو يرفع نظره إلى وجهها على الرغم من أن البومة اللامرئية صارت تضربه على رأسه بجناحها **(لا مفرّ لي من الاستعانة برهيف)** وأضافت: الملازم ناصر بانتظاري ومعه إبن خالتي الدكتور رهيف..

هنا نظر إليها الموظّف باحترام وأسرع يُعيد إليها أوراقها ووثيقة السفر، وقال وهو يقفز عن مقعده واقفاً: لماذا لم تقولي ذلك منذ البداية. تفضّلي. إنهما بانتظارك.

(كتابي؟ من يبالي به؟ الوساطة.. إنها اللغة المقروءة!).

رحّب بها الملازم ناصر فقد تحدث د. رهيف هاتفياً أمامه مع "الرفيق" ناهي - كما يدعوه ناصر وطلب ناهي من ناصر تلبية حاجات د. رهيف كلها بل وطلب رضاه.. وما كاد رهيف يراها حتى نهض قائلاً: لماذا تأخرتِ يا ابنة الخالة؟ هل مرّ بك خطيبك وأنساك أن عليَّ الذهاب إلى المؤتمر الطبي في "الكونتيننتال"[1]. هيا

(١) فندق في بيروت مطلّ على البحر لم يعد موجوداً اليوم.

أركبي معي في سيارتي وسيقود سائقي سيارتك فأنت تقودين على نحو بطيء ورديء ككل النساء.. وابتسم الملازم ناصر بإعجاب لتلك الملاحظة. فقد قدّر أن الصبية الصغيرة عشيقة الطبيب وذلك لا يعنيه ما دام "الرفيق" ناهي راضياً. ركبت زين السيارة بسرعة قياسية كما يقفز القط هارون.. ومضت بها صوب نقطة الحدود اللبنانية المعروفة بـ"المصنع".

لا خوف هنا.. لبنان يرَّحب بالجميع ويحتضن الجميع وزين بالذات حين شهرت ورقة قبولها كطالبة في الجامعة الأميركية.

تنهدت زين الصُعداء والنُزلاء حين صارت في الأراضي اللبنانية. قال لها الدكتور رهيف حين وصلا إلى شتورة: أدعوك للغداء في مطعم "عقل".

وتوقف قبل أن تجيب.

قالت زين: سأتصل من المطعم بأبي وأقول له إنني في لبنان وفي الطريق إلى المدرسة في الشويفات...

* * *

بعد غداء شهي شرب د. رهيف خلاله "العرق المثلث"[1] واعتذرت زين عن مشاركته لأنها ستقود سيارتها بنفسها إلى الشويفات. قال لها: سأطلب من سائقي مواكبتك حتى أطمئن أنك صُرتِ في المعهد.

قالت له زين بصدق: ها أنت تنقذ حياتي للمرة الثانية. لن أنساك يوماً..

ـ لن أسمح لك بنسياني. سأزورك كل أسبوع، مع زوجتي وبدونها.. **(تراها البنت التي كُنتُ أتمنى أن أُرزق بها أم التي أتمنى ألاّ أُرزق بها؟)**.

فكّرت زين بزوجته الفرنسية بريجيت **(يا لها من وفية وشجاعة تحاول تعليم الأطفال الفرنسية مجاناً في مناخات شبه عدوانية نحو الزوجة الأجنبية...)**.

قالت زين: أُرحب بحضور بريجيت معك. إنها زوجة نادرة.

* * *

(لم أحسد يوماً سندريلا الحكايات، فقد كانت مضطرة لمغادرة ما هي فيه عند منتصف الليل.. أما أنا فعليّ أن أكون داخل حرم المدرسة قبل الساعة الحادية عشرة

---

(١) مقطر ومعتق على الطريقة اللبنانية.

لأنام في أمانها. والأبواب كلها تغلق الساعة ١١ ليلاً، بما في ذلك الباب الحديدي لمدخل السيارات الذي يتوسط السور المرتفع المحيط بحدائق المدرسة وبها. وهكذا كان عليَّ مغادرة دار السينما أو المسرح أو المطعم أو مقهى "الديبلومات" أو "الدولتشي ڤيتا" أو أي مكان أجد نفسي فيه ثملة بالحوار الدائر لأهرب قبل العاشرة والنصف من دون أن أخلّف فردة حذائي ولأقود سيارتي كالمجنونة من حيث أنا إلى الشويفات.. وكنتُ غالباً ما أغادر أحد مقاهي الروشة لأمر بالرملة البيضاء ومسابح السان سيمون والسان ميشيل والأوزاعي فالشويفات صعوداً... فالانعطاف في درب فرعية ترابية تقود إلى المدرسة)..

وهذا اعتذرت زين من الحضور في الجلسة الممتعة ومن الصحافية مارلين التي صارت رفيقة جلساتها في الدولتشي ڤيتا وسواها من المقاهي.. وكان أجمل ما فيها ـ تلك المقاهي ـ التقاء ديكتاتور عربي هارب مع معارض سبقه إلى الهرب وكان هو قد اضطهده... يتحاوران.. **(ولو فعلا ذلك في الوطن من قبل لما كانا هنا)**.

تحب زين مناخ المقهى السياسي الأدبي الفكري وفيه الناصري والماركسي والقومي العربي والجواسيس والمبدعون والمتآمرون والأدعياء والنقاد والظرفاء والسمجاء... خليط من البلاد العربية ومن "البيارتة"[1] الذين لا يضيقون ذرعاً بأحد..

تقود زين سيارتها في طريق الأوزاعي الخالية من المباني على البحر حتى أن بوسع المرء أن ينزل عن رصيفها الضيق مباشرة إلى الرمل.. رمل أبيض ناعم لشاطئ البحر[2].

يا لتلك الليلة المسحورة بضوء القمر!.. لم يسبق لي أن شاهدت القمر كبيراً هكذا.. وقد رسم بشعاعه "أوتوستراداً" ضوئياً يمتد حتى أقاصي الأفق..

تنظر زين إلى ساعتها وتزيد من سرعة سيارتها في الطريق شبه الخاوية وإلى يسارها المطار. وفجأة انحرفت السيارة. فشدّت زين بذراعيها على المقود ورفعت

---

(١) تسمية يُحب أهل بيروت الأصليون أن يُنادوا بها.

(٢) هكذا كان شاطئ الأوزاعي في الزمن الذي تدور فيه أحداث الرواية.

قدمها عن دواسة الوقود. أخذت السيارة ترتجف فأدركت زين أنها "بنشرت"[1]. نزلت من السيارة واكتشفت أن الدولاب "الغادر" هو الأمامي الأيسر أي لجهة الطريق. حمدت وجود ضوء القمر الأكثر ضياءً من ضوء الشارع الشحيح. وبهدوء أخرجت "العفريت"[2] الذي "تُعفرت" به السيارة وبدأت بفك الدولاب "الجاني" لتضع مكانه دولاب الاحتياط.

لم تمر بها سيارة إلا وتوقفت لعرض المساعدة من الشبان. كادت تقبل. **(أطالب بالمساواة مع الرجل وأتكئ عليه لتبديل دولابي! لو سقطت بنا طائرة العودة من ألمانيا هل كنتُ سأندفع مع النساء قبل الرجال إلى قارب النجاة أم سأطالب بالمساواة معهم في إمكان الموت حريقاً في الطائرة؟ أصرخ ضد الازدواجية ولعلي أمارسها حيث تُناسبني، وإلا فلماذا كدت أقبل مساعدة ذلك الشاب على تبديل دولابي وأريح نفسي؟)**.

بدّلت زين دولابها وكادت ترمي بالدولاب "الغادر" إلى البحر لو لم يكن ثقيلاً وهي متعبة. **(ثم أنه غالي الثمن ومن الأفضل أن أصلحه.. لم يعد أبي هو الذي ينفق عليَّ كما من قبل.. ثم إن ميزانيتي محدودة)**.

جمال "أوتوستراد" القمر وسحر رمال بحر الأوزاعي النظيفة أغرتها بالتمدد قليلاً للراحة للاستمتاع بذلك الجمال كله. **(الساعة الآن تكاد تبلغ الحادية عشرة ولم يعد بوسعي الوصول إلى المدرسة قبل لحظة إغلاق الأبواب. عليَّ أن أجد مكاناً للنوم..)** مشت على الرمل الأبيض النظيف.. ارتفع صوت الأمواج وهي تغازل الشاطئ جيئةً وذهاباً.. ثم ارتمت على الرمل وهي تحدق في ضوء القمر وأغمضت عينيها وهي تحدّق في دمشق.. **(منذ وصولي إلى بيروت وأنا أركض من مكان إلى آخر سعيدة بمتعة الاكتشاف، ألبي الدعوات كلها التي لم يبخل بها عليَّ رؤساء جامعات ورجال دين أدباء من المسيحيين والمسلمين وصحافيون ومحامون ومثقفون من المهن كلها، بعضها في بيوتهم حيث قابلت عائلاتهم، وبعضها في مطاعم لبنان البديعة بين جونيه وصيدا وطرابلس وجبيل وصور و.. و.. لكنني أشعر أحياناً بأنني أُشبه دجاجة جدتي التي قطعوا رأسها في زقاق الياسمين لطبخها وكُنتُ طفلة وذهلت**

---

(١) حدوث ثقب في أحد دواليبها.

(٢) رافعة حديدية لرفع السيارة.

حين شاهدتها تركض بجنون بلا رأس وهلعت وصرخت باكية.. تراني تلك الدجاجة التي تركض في محافل بيروت بجنون دجاجة مقطوعة الرأس؟ هل حرماني من إمكانية زيارة دمشق جعلني كذلك؟).

مشتْ زين على "أوتوستراد" ضوء القمر في البحر وهي تتنهد بسعادة **(ها أنا كما حلمت دائماً أستلقي على شاطئ بحر ليس فيه سواي.. كوكب لي وحدي.. وأنا حُرة.. حُرة..)** اكتشفتْ أنها غرقت في النوم حين أيقظها دبيب على ذراعيها العاريتين.. فتحت عينيها وشاهدت قافلة من السلاطعين الصغيرة الوليدة تعبرها في طريقها ربما إلى البحر.. كادت تقفز وتحاول انتزاعها عن جلدها. تذكرت أن عضات السلاطعين أليمة حتى الصغير منها، فبذلت جهداً خارقاً كي لا تتحرك ريثما غادرها "الموكب" وقفزت عن الرمل كالمجنونة وانطلقت هاربة إلى سيارتها. **(إنها الثالثة والنصف فجراً، أحلام الحريّة حين تتحقق لا تخلو من الغصّات والعضّات!)**.

قادت زين سيارتها مدحورة صوب المدرسة على الدرب الترابية التي تقود إلى الباب الحديدي الموصد. توقفت بها بعدما أغلقت أبوابها من الداخل وحاولت أن تنام وقد اتخذت قراراً: لا بد لي من استئجار شقة للنوم.. شقة للحرية..

* * *

الحريّة.. الحريّة... لقد نجحتُ بسرعة في الحصول على بيت يخصّني وحدي.. أنام فيه بمفردي دونما زوج يضطهدني أو أب يستجوبني أو العمّات والخالات والأعمام والأخوال الذين يحملون إشارات المرور.. أحمر: لا تمري من هنا.. أخضر: إذهبي إلى زواج آخر إذا رضي أحد بالزواج من بنت مطّلقة متمردة مثلك..

كان الأمر سهلاً. كُنتُ أطالع جريدة فيها كلمة غير إيجابية عن كتابي حين لفتني إعلان عن شقق للإيجار في مبنى جديد. **(ذلك يعني أن الجدران ستكون نظيفة وحديثة الطلاء وبلاط أرضها ما زال براقاً يسهل تنظيفه، ولن أجد الصدأ يتدفق من صنابير المياه مع النمل ولن أضطر لاستدعاء مصلّح أو نجار أو سمكري قبل وقت طويل.. ولن أجد أشباح الذين قطنوا فيه قبلي بل سأخلِّف هذه المرة شبحي لمن يأتي بعدي)**.

اتصلت زين بالرقم المذكور في الجريدة. ذهبت لمقابلة الموظف في أحد

البنوك. قال إن عليها أن تسدد قيمة الإيجار لثلاثة أشهر مقدماً وسألها عن إسمها.. وحين ذكرته له، سألها عن إسم والدها فإذا به يقفز من مكانه قائلاً: أنا شقيق وداد وسارة.. أنا أبن أبو جريس.. كان والدك يستأجر أحد بيوتنا في بلودان للاصطياف.. أهلاً بك يا زين.. سأعطيك الشقة لشهر واحد على سبيل التجربة، وإذا أعجبتك نتحدّث في بقية التفاصيل.. وزوّدها بالمفتاح والعنوان واتصل بـ"ناطور" المبنى ليكون بانتظارها.

(غادَرْتُهُ وأنا أتساءل ما الذي نفعله نحن أبناء سوريا هنا في بيروت؟ لم أذهب إلى مرفق إلا وجدت سورياً.. حتى موظّف البنك الذي بدأت أتعامل معه شامي من باب توما!).

صارت الشقة لي لشهر قابل للتمديد.. أسعدني أنها تخلو من الأثاث وتقع في الدور العاشر من مبنى في حيّ "رمل الظريف" ولها شرفات واسعة ندعوها نحن في الشام: "طابق راجع"، أي لا يحقّ للمالك أن يبني أكثر من مساحة معيّنة ضيّقة... تلك "غرفة السطح"، وهي تكفيني. لا. لا أريد جدراناً. فقط أريد الشمس والفضاء والنوم على غيمة. وأنا حرة كالريح. لستُ بحاجة إلى أثاث غير الثلاجة وطاولة للكتابة ومقعد وسرير.. وقد أشتريتُ له ملاءات نظيفة.. في ليلتي الأولى في شقتي الجديدة كُنتُ أدور على الشرفات، السطيحة ـ كما يدعونها هنا ـ المحيطة بغرفة النوم والمدخل الضيق وأنا سعيدة ببيتي الصغير جداً الأول وأنا هكذا حُرّة.. وحيدة وحرة.. استطعتُ تسديد إيجار الشقة من عملي، من راتبي في المجلة الشهيرة التي صرتُ أكتبُ لها عموداً أسبوعياً ومقالاً أستقيه من دراستي الجامعية، وراتبي كأستاذة للإنكليزية في مدرسة الشويفات.. عرض عليّ الدكتور رهيف أن يقدم لي قرضاً، فرفضت وقلت له إنني لو كنتُ بحاجة لذلك لطلبت من أبي.. **(إذا استدنتُ منه سيتدخل في اختياري للشقة ويملي عليَّ آراءه وإرادته.. إن الدَيْنَ يعطي الآخر الحقّ في سلبي جزءاً من حريتي)** قُلتُ له ذلك ووافقني عليه.

سألته: ولماذا عرضت أن تديني إذن ما دُمتَ تعرف ذلك؟

ـ لأنني أحبُ سلبك بعض حريتك.. فأنا أغار منك.. أغار لأنني لم أستطع يوماً أن أكون حُراً..

في ليلتي الأولى وحيدة في بيت لي أنا حتى ولو كان غرفة واحدة وشبه خالية

من الأثاث وشرفات تقطنها الرياح، شعرتُ أخيراً بمتعة النوم من دون أن يوقظني أحد بحبٍ أو باستبداد.. ومن دون أن أضطر لحضور "طقوس" فطور الصباح يوم الجمعة: "تسقية" بالزيت أو بالسمن، أو "فول مدمس"، أو أي فطور آخر تقليدي..

ليس في بيتي غير القهوة.. شربتُ فنجاناً وذهبتُ إلى الصف للتدريس متوهجة الحواس كما لم أكن أبداً.. يا للحرية ومتعتها وشحذها للطاقات!. عملتُ ليلاً في المكتبة على أطروحتي الجامعية حتى طردتني الموظفة المسؤولة.. وعدتُ إلى وكري "الفضائي" سعيدة بحريتي، على الشرفات.. فبيتي شُرفات بغرفة واحدة.. وأسكن في الدور العاشر من ليل الغيوم..

سعادتي بحريتي كانت أكبر من أي شك ينغّصها. حملتُ معي إلى شقتي آلة للاستماع إلى الأسطوانات وأسطوانة لشارل أزنافور يغنّي فيها أنشودة "الفتاة البوهيمية". وكأنها نشيدي الشخصي، وحين تمددتُ للنوم كُنتُ ثملة بحريتي. لن أبكي بعد اليوم على الشرفة قهراً، فأنا حُرّة حتى من حريتي، وقد نمتُ وأنا أحلم بأنني أطير.. ذلك الحلم الجميل الذي يلازمني منذ مراهقتي.

أيقظني صوت سقوط شيء ما على شرفاتي. أذني مرهفة أكثر مما ينبغي ونومي رديء جداً وتكفي ريشة طاووس تقع قرب سريري لأستيقظ في الحال.. أنا بالتأكيد واهمة.. لا.. لستُ واهمة.. أشعلتُ الضوء الملاصق للسرير وقفزت وضغطت زر مصابيح الشرفات الموجود قرب باب غرفتي فتوقفت الحركة المريبة مما أكد لي أن ثمة حضوراً بشرياً شريراً لا يريدني أن أستيقظ.. سارق؟ ليس لدي ما يسرقه غير أوراقي وجنوني.. ولكنني سمعتُ صوت همسات ذكورية.. وحين نهضتُ وخرجتُ إلى الشرفة بعدما سمعتُ ما يشبه وقع خطى تتسلق الجدار إلى الأعلى لم أجد أحداً..

في اليوم التالي تناهي إلى سمعي الصوت ذاته فاستيقظتُ مذعورةً هذه المرّة. وفي اليوم الثالث صرتُ واثقة من أن شخصاً ما يقفز على شرفاتي من السطح ولكن مَنْ ولماذا؟ وللمرة الأولى وعيت أن كوني حُرّة ومقيمة بمفردي في وكرٍ ما يُشبه وضع طعم في صنّارة للصيد.. وعيتُ ثمن الحرية: مواجهة العالم الخارجي ومخاطره بمفردي وهو ما لم يخطر ببالي من قبل.. للحريّة ثمن.. والثمن هو

التخلّي عن الحماية التي كان يوفّرها لي كل من هربت منه.. وعليَّ الآن أن أتراجع إلى مكان آمن أو أتقبّل مخاطر الحريّة وأواجهها..

صرتُ واثقة من أن الخُطى، حتى ولو كانت خطى من وهمي، أو من شبح شكسبيري، لا تلبث أن تهرب وتنحسر حين أقوم بضغط زر النور لصق سريري..

رويتُ ما حدث لراجح، أحد الأصدقاء من شلّة مقهى "دبيبو"[1] فأخرج من جيبه ببساطة مسدساً للتدليل على مدى اهتمامه بي قائلاً: خذيه لتدافعي عن نفسك. ها أنا أخرطشه وأرفع زر الأمان. يكفي أن تضغطي على الزناد لتنطلق الرصاصة. لن تتعرضي للعقاب بل سيكون قتلك للمعتدي دفاعاً عن النفس وسأدافع عنك في المحكمة.

للمرة الأولى ألمس مسدساً وأراه خارج دور السينما. يا لبيروت!! وقررت العودة للنوم في القسم الخاص بالمعلمات في مدرسة الشويفات، باستثناء هذه الليلة الأخيرة ما دام المسدس معي.. سأطلق رصاصة للتخويف إذا تعرضت لاعتداء وهذا كل شيء. تمددت ولم أنم. لم أسمع صوتاً ولم يحدث شيء.. ولكن عند الفجر استيقظتُ على أصوات مرتفعة وسمعتُ صراخاً وبقيتُ معتصمة بقلعتي وقلت لنفسي وأنا أرتجف خوفاً إن الحرية ليستْ بحراً من العسل كما كنت أتوهم **(في المرة القادمة سأختار شقة حصينة لا مشرّعة كعش عصفور في شجرة منخفضة، وربما يكون من الأفضل أن تشاركني فيها رفيقة أو أكثر..)**.

هبطتُ إلى موقف السيارات بالمصعد ويقع في قبو المبنى، وفوجئت حين انفتح بابه على عشرات من رجال الشرطة. منعني أحدهم من التقدم نحو سيارتي قائلاً: هذا مسرح لجريمة.

ـ لكنني أُقيم هنا وأُريد أن أستقلّ سيارتي للذهاب إلى الجامعة.. فإلى عملي ظهراً.

ـ أنت من سكان المبنى؟ إذاً أنت شاهدة على الجريمة. انتظري هنا... وأشار إلى اليمين حيث وقفت ثلة من "الجيران".

ـ سألته: ماذا حدث؟ قال: الراقصة جيني التي تقيم في المبنى عادت فجراً من

---

(١) مقهى قديم يقوم على الجرف المواجه لصخرة الروشة الشهيرة.

عملها وحاول أحد نواطير المبنى ـ على حد زعمها ـ الاعتداء عليها في المرآب هو وزميله. فأطلقتْ عليهما النار وقتلتْ أحدهما ونريد التحقّق من صحة روايتها..

وفي اليوم التالي قرأتُ في الصحف عمّا يدعونه "بناية جيني" حيث قَتَلَتْ الراقصة الأجنبية جيني المقيمة في المبنى أحد النواطير لأنه حاول وزميله الاعتداء عليها في القبو حيث موقف السيّارات!! وأنا التي لا تعرف شيئاً، الراكضة في دُروب وهمها عن الحريّة.. الحريّة.. من دون أن تعي ما تحتها من مكائد وما فوقها من نواطير يقفزون عن السطوح للاستكشاف على الأقل.. نومي البائس منذ موت أمي (كما يزعمون) أنقذني هذه المرة من اعتداء غامض ما.. لم أكن فريسة شهيّة كجيني الراقصة في الملهى الشهير التي تعود ثملة من عملها. جيني جارتي التي لم أسمع بها ولم ألتقِ بها حتى في المصعد ولعلّي فعلتُ وكانت ترتدي ملابسها العادية مثلي.. جيني تحمل مسدساً كالذي صُرتُ أضعه تحت وسادتي منذ اليوم الذي أخبرتُ فيه لصديقي راجح إبن الأسرة السياسية اللبنانية العريقة بما "أتوهمه" من تحركات مريبة ليلاً وأعطاني مسدسه.

إنها ليلتي الأخيرة في "شقة الحرية".. وها أنا ألملم أوراقي وأشيائي..

تلك الليلة، أطلقت النار على غيمة يقيم القمر فيها في الدور السادس من السماء، وسألتها لماذا تضع تلك العقبات المخيفة كلها في وجه حريّتي، أم أنه ثمن الحريّة لعشاقها من أمثالي؟

حين أطلقتُ النار صوب السماء ارتد المسدس في يدي، وأحكمت يدي عليه كي لا يفلت مني ويضرب وجهي.. وآلمتني يدي حتى أنني عجزت عن قيادة سيارتي بيسر أو الكتابة طوال أيام... كيف يضع راجح السلاح في يدي هذه من دون تحذير؟ (**علاقة اللبنانيين بالسلاح تخيفني، كما اليُسر الذي حصلت به على مسدس..**) وأعدت المسدس إلى راجح.

* * *

التقيا في "مطعم فيصل" للغداء وصدّقته حين قال لها: جئتُ من دمشق خصيصاً للقائك..

أضاف الدكتور رهيف المناهلي قائلاً لزين: تبدين متوهجة وشبه سعيدة..

ـ لولا حرماني من زيارة دمشق لاستطعت القول إنني سعيدة وأعمل على إعداد

كتابي القصصي الثاني إلى جانب أطروحتي الجامعية وعملي في التدريس والصحافة..

قطع حوارهما سياسي جاء من مائدته لتحية زين وآخر أديب سلّمها بطاقة دعوة لحضور محاضرته في "الندوة اللبنانية".

قال رهيف: لديّ خبران، أحدهما مفرح والآخر محزن.. بماذا أبدأ؟

قالت: بالمفرح طبعاً..

ـ زوجتي حامل..

قفزت زين من مقعدها بعفوية وقبّلته على خدّه على مرأى من الجميع..

قال لها ضاحكاً: لن تتبدلي يوماً يا زين..

ـ ما الخبر المحزن؟ خير؟

ـ مات طفل الملازم ناهي...

ـ كيف؟

ـ بالحمّى... المضاد الحيوي الذي اُشترته مطلقته من الصيدلية والذي يُباع للناس ليغتني ناهي وشريكه كان فاقد الصلاحية منذ أشهر.. حاولتْ مطلقته الاتصال به وفشلتْ لرفضه التكلّم معها.. وكُنتُ مرة عنده وسمعته يرفض مكالمتها..

ـ وأنا أيضاً سمعتُ ذلك. المسكينة استماتت لتقول له ما يدور ولعلها سمعت من الناس عن الأدوية الفاسدة..

ـ لقد قَتَلَ طفله..

ـ أنا آسفة من أجل الطفل وأمه، ولكن "طابخ السم آكله".. وأضافت: هل أضحى أكثر رحمةً بالناس بعدما ذاق طعم الألم؟

ـ لا.. صار أكثر أذىً من قبل.. لقد سجن أحد أصدقائه بتهمة ملفقة لمجرد أنه تجرأ على أن يغلبه في لعبة الشطرنج!...

جاء النادل أمين وقال لزين: الأستاذ أسعد الصحافي يطلبك على الهاتف.

نهضت إلى حيث الهاتف.

ـ ألو.. أهلاً أستاذنا..

ـ هل قرأتِ الجريدة؟

ـ لا . . ليس بعد . . ماذا؟

ـ قبضوا على ثلاثة مخربين من رجال المخابرات جاءوا من سوريا واعترفوا بأن من مهماتهم الكثيرة اختطافك وإعادتك إلى سوريا!! . .

حين عادتْ إلى المائدة قالتْ لرهيف ما أخبره بها صاحب الجريدة الأستاذ أسعد.

ـ كُنتُ أعلم بذلك ولم أشأ إقلاقك، إذ لاحظتُ أنك لم تطّلعي على الخبر بعد. . إنه يحقد عليك لنجاحك في الهرب من سوريا، لكنه لا يدري أن "إبنة خالتي" كانت أنتِ!!.

ـ ولماذا شبكة تخريب إلى بيروت وهو لن يجد ملاذاً إلا فيها حين يُطرد من الحكم؟ من المهم ألا يتكاثر أمثاله في سوريا. . .

* * *

كانت زين جالسة مع مارلين في مقهى "الديبلومات" حين تقدّم نحوها الشاعر علوان بصندله العتيق ذاته وقميصه نصف المهترئ إياه. . قفزت من مقعدها ورحّبت به. . وقدّمته لمارلين التي قالت له إنها قرأتْ معظم قصائده وإنها معجبة به. .

ميّزت زين وجود كهارب تواصل بينهما تعرفها جيداً وتفهم مدلولها.

ـ هل أنتَ في زيارة قصيرة يا علوان؟ وما أخبار الإذاعة؟ وأضافت وهي توجّه الكلام إلى مارلين: الرفيق علوان أحد أركان الإذاعة السورية. . وليس شاعراً رائعاً فحسب. .

قال علوان مُصحِّحاً: لم أعد ركناً لغير التشرد. منذ شجاري مع ناهي صرتُ منبوذاً وهربتُ مثلك من الشام. . لقد أنكر كل شيء. . واتهمني بالتلفيق. . سأصير ضيفاً دائماً على بيروت فيما يبدو. .

قالت مارلين بسعادة: أهلاً بك. . أظن أن الجريدة التي أعمل فيها بحاجة إلى محرر أدبي بعدما عاد محرّرنا الطريد إلى بلده وزيراً للثقافة إثر انقلاب وقع فيه!!

---

(١) ورد اسم سوريا في الكتاب على هذا النحو لأنه كان يُكتب هكذا في زمن احداث الرواية.

الفصل السابع (محاولة ثانية عشرة)

١ ـ "الرجل الصحّ" في "التوقيت الخطأ"؟

٢ ـ محاولة غير صالحة للنشر[١].

(١) أترك للقارئ اختيار أحد العنوانين وترك الآخر.

لم تشعر زين بأنها ضائعة في بيروت التي تغلي كمرجل أفكار حرة متحاورة، بل شعرت بأنها في بيتها الفكري. لم تشعر بأنها هاربة من وطنها ولاجئة، بل شعرت على نحوٍ ما بأنها في وطنها. فاللبنانيون يحتضنون كل غريب لاجئ بأكثر من احتضانهم لبعضهم بعضاً.

حسناً.. ثمة شجار على من هو عروبي وحدوي "وطني" ومن هو "إنعزالي" ولكن أحداً لا يشهر غير قلمه. الاتهامات تُرمى بتحفّظ وعن طريق المواراة الأدبية، وحين يلتقون يقبّل واحدهم الآخر وبينهم من ينوس بين قطبَيْ الجاذبية الفكرية وتفرعاتهما الكثيرة المزاجية!

تراهم زين بعين محايدة، فهي قادمة من مدينة أخرى يسودها مناخ آخر، حيث اتهام شخص ما زوراً بأنه جاسوس وعميل يُبرِّر سجنه وقتله. أما في بيروت، التي عشقتها زين، فذلك مبرّر لحوار حادّ. البعض يُطالبها باتخاذ موقف منحاز.. ولكن ليس تحت طائلة القتل وتلفيق التهم بالتجسس وعقوبتها الإعدام أو السجن المؤبد.. بل تحت طائلة محاولة إقناعها والحوار معها..

هنا مدينة مكرّسة للنمو العقلي والحوار، وليس لدفن الأحياء وتعليمهم فنّ الموت وهم ينبضون نضارة وتوقاً لغير كأس الموت[1].. ويغلون فكراً وأدباً وحواراً في منابرهم ومجلاتهم وصحفهم حيث تتعرّى أفكارهم المتصارعة.. كم تعشق زين ذلك كما عشقتْ في مقهى "الدولتشي ڤيتا" مشهد أحد الحكّام العرب المعزولين جالساً إلى طاولة مع من تبقّى من أتباعه، أما عدوه الذي تسبَّب في رحيله إلى المنفى البيروتي (أجمل منفى عربي!) فذلك العدو جالسٌ على الطاولة المجاورة في المقهى.. كم تعشق زين ذلك.. فهي لا ترفض دعوة من الأطراف كلها. تريد أن تعرف. تطّلع. تندسّ في أعماق الطبيعة البشرية وتنسلّ بعدها مع الصديقات إلى "مقهى عازار" لارتشاف فنجان قهوة معطّرة بالمازهر[2] كما في دمشق...

---

(١) هكذا كانت بيروت في أواسط ستينات القرن الماضي حين تدور أحداث الرواية.

(٢) ماء الزهر.

قالت لها صديقتها مارلين وهما في "مقهى عازار" الشبيه بغرفة كبيرة في "البناية المركزية" قرب "بناية العازارية": ما رأيك بزيارة إلى جريدة "المحررين" هنا في المبنى ذاته للتعارف أرافقك بعدها لتعريفك بالمكتبة في "بناية الكابيتول" بعد أن نزور بناية العازارية. هذه المباني تعج بالناشرين والصحف والأدباء وبالقرب منا في "الخندق الغميق" جريدة "الضوء" ودار النشر حيث التقيتك للمرة الأولى. اعتذرت زين عن ذلك كله، قائلة إنها تريد الذهاب إلى مكتبة الجامعة للعمل على أطروحتها.

خلال جلستهما في المقهى جاء العديد من المحررين لتحية زين التي لم تألف حفاوة كهذه بأدبها إلا نادراً في مدينتها الأم دمشق (**كُنتُ مُحاطة هناك بخيزرانات سوء الظن والعدوانية والنفور المسبق منّي كبرجوازية. بعض الذين وصلوا إلى الحُكم مؤخراً في بلدي كرهوني وحاولوا ترويضي واستغلّوا كوني امرأة ومطّلقة لإيذائي أذىً مضاعفاً معداً لمثيلاتي من "المارقات" على عقائدهم. أما الذين يُفترض أنني كُنتُ من طبقتهم، فكرهني بعض رجال الدين لديهم وأحلّ سفك دمي.**

وجدتني في زقاق الياسمين إمرأة "مفسدة" لأنني أيضاً خارجة على طبقتي المحافظة المنعوتة باليمينية.. ووجدتني «لا مع ستي بخير ولا مع سيدي بخير»[1]).

ركضت تلك الأفكار كلها داخل رأس زين في ومضة برق وإذا بها ترى غزوان وقد وقف أمام نادل خلف منصّة طالباً فنجان "إكسبرسو" من كرتون ليمضي به.

تهمس مارلين: هذا غزوان العائد. لعلّك سمعتِ به؟ إنه يعمل في الجريدة في الطابق الثالث.. ترى زين نظرة الدهشة في عينيّ غزوان وهو يحدّق في وجهها، نظرة من وجد طائراً غريباً فتّش عنه طويلاً في غابات الليل. يقترب منها متجاهلاً مارلين وهو يقول بصوت جاد، عميق العاطفة: أنتِ فتاة "حديقة السبكي".. أليس كذلك؟ أنتِ التي طلبتُ الزواج منها ورفضتني. تهزّ زين برأسها موافقة على صحة ادّعائه.

تدهش مارلين للوهلة الأولى للمنحى الجاد الرومانسي الذي أتخذه الحوار بين

---

(١) مثل شامي معناه أن تخسر الطرفين معاً!

رئيس للتحرير تولّى المنصب قبل أسبوع، وكاتبة من المفترض أنها تلتقيه للمرّة الأولى..

زين وغزوان نسيا المكان والزمان.. ونسيا مارلين. وقف كل منهما يحدّق في الآخر كمن أضاعه في زلزال عمره مئات الأيام ثم وجده.. غزوان يريد الاستفراد بها، وحيدين، بلا شهود، فيدعوها إلى الغداء، ويقول لمارلين بخفّة ظلّ يبدو لزين أنها تلازمه: أنت يا صديقتي لستِ مدعوة.. وداعاً. ويجرّ زين من يدها صوب باب الخروج. يتأخر المصعد فيجرّها للركض على السلم كطفلين قائلاً: لن أضيعك بعد اليوم...

سيارته، نصف عتيقة نصف مهلهلة، لكن زين تشعر بأنها في مركبة فضائية تتجه إلى القمر.. يسألها غزوان وهو يقلع بسيارته من المرآب تحت الأرض: إلى أين؟ **(تشعر بالراحة، فهي تكره المرائب تحت المباني وتختنق فيها منذ حكايتها مع "بناية جيني" كما صارت تُدعى بعد الجريمة)**.

ـ إلى البحر.. البحر..

يضحك. يغمرها بعينين يسيل منهما العسل وذقن فيها غمّازة ساحرة وهو يقول بمرارة جادّة: طلبتُ منك الزواج ورفضتِ. طلبتُ ذلك حتى قبل أن أعرف إسمك ومن أنتِ. عرفتُ أنك امرأتي في هذا الكوكب وحبّي الوحيد..

تسمع زين صوتها الهادئ يقول له: انعطف إلى اليسار هرباً من زحام السير.. واتجه صوب البحر.

ـ عرفتك فتاة "حديقة السكبي" وفتاة "مقهى الهاڤانا" و"زقاق الجن". دوماً تهربين من جنوني ولا تصابين بالعدوى. جنونك مدروس وله سدود. لقد تعرّفت إلى أحد وجوهه في قصصك.. وجوهك كلها التي لمحتها يربطها خيط لامرئي من الحذر. لا شيء يهزّك أو يخرجك عن جادة العقل البارد.. أنت ذات عقل لا يُصدق.. لا تتقنين فن "الدوار"..

أمطرت داخل شراييها **(ليتني حقاً كذلك!)**.. أغلق البكاء في قلبها أزراره على أصواته جيداً، ومشى ودسّ أحزانه في جيوب القلب كما يدسّ مُدمن بزجاجات مشروب اللعنة في جيوبه.. وشعرتْ زين بالحاجة إلى الهرب من غزوان.. لا.. لن تحبّ مرة أخرى.. لن تتحمّل خيبة أخرى.. طلاقها من زوجها يجب أن يظل

لقاحاً يحميها من وباء الحبّ اللعين.. لقد دفعت ثمناً غالياً لنجاتها بعدما عانت طويلاً وتألمت وبكت سراً قهرها وذلّها وتمردت.. وتمردت..

وتذّكرت حين كانت تنتحب على شرفة المطبخ الخلفية وجارتها المسّنة السيدة كوتللي تحزن عليها وتواسيها **(لعلّها كانت أكثر وحشة مني! كنتُ حتى في ذروة أحزاني وخيباتي وضياعي أعي أن العجوز السيدة كوتللي أكثر ضياعاً مني، ولولا ذلك لما وقفت مثلي على شرفة الظلام!)**.

يمدّ غزوان يده ممسكاً بيدها. تهرب بها من حصار يده مقاومة رغبتها في خلع درع قلبها لتعرّي أحزانها له.. ولكن لا.. له أيضاً متاعبه وأحزانه، ودرب النجاة لا تمر إلا من صمودها بمفردها وسط مستنقع رمت بنفسها فيه وهي تحمل راية "الحب"، وتغرق.. وتغرق في رماله المتحرّكة.. لو لم تتمرد في اللحظة الأخيرة وتنقذ نفسها منه.. **(الرمال المتحركة للحب لن أقفز إليها ثانية. لن أدعها تجرّني إلى القاع. لقد أقسمت ألاّ يذلّني الحب ثانية ولا أريد نسيان ذلك..)**.

اصطحبها غزوان إلى مطعم "لاغروت أوبيجون"[1] المطلّ من شاهقٍ على البحر وصخرة الروشة التي تنفتح في قاعها قنطرة كمغارة بحرية.. **(هنا بدأت منذ وصولي إلى بيروت أتعلم رياضة التزلج فوق الماء «السكينوتيك» في مسبح "لونغ بيتش"، ومن تحت هذه القنطرة الصخرية غامرت البارحة بالمرور وأنا على زلاجتين فوق سطح الماء.. وكل خطأ قد يتسبّب في اصطدامي بالصخور وتحطّم جسدي. لكنني نجوت وربحت وانتشيت.. وعمري كله مقامرة. لكنني ألوم نفسي متسائلة: لماذا لم أتصل بغزوان منذ لحظة وصولي إلى بيروت وأنا أعرف أين هو، ومن هو ككاتب فلسطيني لامع)**.

يقول غزوان بلهجة نصف معتذرة بعدما تخلّص بسرعة من النادل بطلب الطعام لهما معاً من دون أن يستشيرها: أنت نحيلة. تفضلين اللحم بلا دهون والكثير من الخضار والتبولة. لكنني طلبتُ لك أيضاً كأساً مترعاً بماء النار[2]. أريدك أن تثملي إذا كان ذلك ممكناً. في "حديقة السبكي" كُنتِ تخفين سراً وهربتِ مني عبر الباب

---

(١) وترجمته بالعربية: "مغارة الحمام".

(٢) المشروب اللبناني التقليدي: العرق.

الخلفي لصيدلية كدورة.. لم أعرف شيئاً عنك حتى ولا اسمك. أذكر جيداً أنني طلبتُ الزواج منك وكنتُ أعني ذلك.

ـ . . . . . .

تابع: واختفيتِ يا زين. كُنتُ أشاهد صور إمرأة تشبهك في الصحف تؤلِّف قصصاً ويصدر لها كتاب في بيروت وأحاول أن أصدّق أنها "فتاة حديقة السبكي" المتألمة.. المذعورة.. المتماسكة.. الحزينة.. مكسورة القلب.. المصمِّمة بقوة جرحها على المقاومة كما خيل إليَّ يومها حين حاولت تدفئتك وإحاطتك بمعطفي ثم لقّبتك بـ"فتاة مقهى الهاڤانا" اللامبالية.. وفتاة "زقاق الجن" التي هربت مني أيضاً.. المتحدّية.. خُيِّل إليّ أنني تعلقت بك منذ تلك اللحظة.

ـ . . . . . .

ـ أظن أنني تعلقت بك منذ اللحظة الأولى لأن الحب من النظرة الأولى حقيقة حدثت لي وأرفضها عقلانياً.. وفسّرتُ انجذابي إليك عقلانياً بأنك تمثلين لي "فعل المقاومة": كُنتِ بنتاً مطحونة.. متألمة.. مهزومة لسبب أجهله، لكنها تستمر.. إنّي عاشقٌ لروحك.. وتابع بخفة ظلّه: لكنني لستُ ضد جسدك.. أنا شديد الحماس له..

انفجرا ضاحكين.. أكلا كأنهما لم يأكلا من قبل، وشربا كأنهما لم يثملا من قبل.

حين غادرا "مغارة الحمام" قال إنه سيصطحبها لشرب الشاي في مقهى على شاطئ البحر في مدينة جونيه. استمتعا بالنزهة البحرية. وفي المقهى، طلب غزوان من النادل الشاي، وقبل أن يشرباه جرّها من يدها كمسحورين بجمالية أضواء قادمة عبر سُحبٍ بألوانها المبهرة. مشيا معاً نحو البحر.. وتركا أوراقهما في المقهى قرب الشاي!.. **(جلسنا فوق الرمال. انتحر الزمان وأغمي على ساعات العالم كله. كالمسحورَيْن لبَّينا نداء الشمس وهي تراقص حبيبها البحر وتهتز بثوب الغيوم الملونة.. هذا قوس قزح.. نمشي فوقه بيسر يداً بيد صوب الشمس لنمنعها من اللقاء الذي يعقبه الغروب. كنا نريد إيقاف الزمن على هذه اللحظة المسحورة وفي الجو كهارب سعادة وسيالات فرح. لم ننتبه إلى أننا بدأنا نمشي في الماء والموج المالح يصعد حتى عنقنا)**. قال غزوان لزين ضاحكاً: أنا لا أعرف السباحة جيداً.. وأنتِ؟

ـ أُتقنها. لكنني لن أنقذك إذا ما بدأت تغرق.. **(ضحكنا كطفلين والموج يغسل ثيابنا وعنقينا بِزَبَدِه، وعدنا إلى الشاطئ كقطين مبتلين والماء يسيل من شعرنا حتى أحذيتنا. وحين دخلنا إلى المقهى، كان زبائنه الذين يُراقبوننا من الشرفة البحرية يضحكون. جلسنا بهدوء من نسي أنه مبتل. صفّق أحد الجالسين الذين كانوا يُراقبوننا وصفّقت مائدته معه والكل يضحك وواكبه بعض من في المقهى كأننا أقدمنا على ما يشتهونه. لحظة عذبة هاربة من الزمان.. جاء النادل بشاي ساخن وهو يقول لنا ضاحكاً: تستحقانه.. وأضاف وقد سرت في المكان روح المرح: ظننتكما ذاهبان إلى قبرص هرباً من تسديد "الحساب".. وحين جرب غزوان ذلك أي تسديد الحساب، رفض الرجل أن يتقاضى مالاً وقال: تعالا كل يوم.. سيزداد عدد زبائني بحضوركما. كان الماء ما يزال يقطر منا حين ركبنا السيارة في طريق العودة إلى الثياب الجافة!)**.

تهب من ثياب غزوان وجلده رائحة بحر عكا ويافا وفلسطين ورائحة دمع الحنين كما يخيل إلى زين التي تسأله: كيف أستطيع تصوير رائحتك بالكاميرا؟ كيف أستطيع ٱلتقاط صورة لمشاعرك أيها المعذّب بأكثر من حبٍ يتوّج عذاباتك.. غرامك بوطنك فلسطين كما أطالع في كل حرف قرأته لك؟ أنت لست "مجنون زين" كما زعمت لي ونحن في "الغروت أوبيجون" بل مجنون فلسطين. صمتا طويلاً ثم قال لها فجأة: أحبك.. أحبك.. أحبك يا زين. لقد أحببتك منذ لقائنا الأول. عشقتُ "مراهقة حديقة السبكي" التي رفضتْ الزواج بي.. و"مجنونة مقهى الهاڤانا" التي رفضتني ثانية..

ردتّ زين سريعاً بلهجة ضاحكة: وها أنت اليوم متزوجٌ والحمد لله، ولن تطلب الزواج مني بعد اليوم.. تابع متجاهلاً كلامها: لم يخطر ببالي لحظتها عندما كنا في حديقة السبكي أنني أعشق قنبلة موقوتة ستصير كاتبة تنافسني. وأضاف ضاحكاً: لا.. لن أسمح لك بمنافستي.

تجيبه وهي صادقة فيما تقول: لا أحد يستطيع أن ينافسك في حب الوطن قولاً وفعلاً. أنا بلا يقين أطرح الكثير من الأسئلة وأنت أكثر قوة مني لأنك تعرف الإجابة..

تشعر زين بأنها تقف على حافة الحب، لكنها لن تدع نفسها بعد اليوم تقع في

تلك الحفرة. ستلقي القبض على مشاعرها وترفض الإذلال الآتي بعد لحظة الاعتراف بالحبّ. عليها رفض الاستسلام كي تظلّ تملك من تفيض نحوه بشهوة الاستسلام. (**تُرى هل "الذكور" هكذا يزهدون بحب المرأة حين تعلنه، أم أنها الطبيعة البشرية، أم أمزجة البعض الذين ترجح وقوعها عليهم؟**).

أوقف غزوان سيارته. اقترب منها وسرق من شفتيها قبلة سريعة توهم أن ركاب السيارات المارة بسيارتهما لم يلمحوا شيئاً منها، ولم يدرِ أن تلك القبلة في حقيقة الأمر دامت طويلاً. خافت زين من تهجم أحد "الفاضلين" عليهما بخيزرانته (**في الحقيقة، بيروت مدينة متسامحة مع السياسيين.. والعشاق. كان يمكن لقبلة كهذه في شوارع دمشق أن تكلفني حياتي أو سمعتي على الأقل**).

تشعر زين بأنها لامست شفتين مزروعتين بالألغام. لا. لن تدع الحب يلدغها من جُحره مرتين. لكنها تعي ببؤس هائل أنها قد تحبه.. وأنها قادرة على الحب ثانية.. وأن الحب ليس للحبيب الأول بل للحبيب الراهن.. وأن الحب وهمٌ، لكنه وهمٌ أكثر حقيقةً من حقائق الحياة..

اعترفت لنفسها وهي تبتعد عن شفتيه: نعم قد أحب غزوان ولكنني سأكرهه في آنٍ. فهو مشروع حب كبير أي مشروع ألم كبير..

* * *

تدهشها بيروت بل وتسحرها.. في كل خطوة تكتشف فيها زين رصيفاً جديداً. ذلك العناق بين الحديث العصري والقديم التراثي يأسرها. تسكعت طويلاً للتعارف مع أماكن كانت قد زارتها وهي طفلة برفقة والدها ثم ذهبت إلى حرم الجامعة الأميركية إلى "البستاني هول"، أحد مباني القسم الداخلي للطالبات، حيث زارت زميلتها في الصف وصديقتها لميس المصابة بزكام وسعال. حين غادرتها للذهاب إلى مقهى "الأنكل سام" مقابل "المينغيت"[1]، صعدت السلم المحاط بخضرة بديعة حتى مدخل "الميديكيل غيت"[2] وغادرت حرم الجامعة لتتأمل ما حولها ريثما تصل إلى "الأنكل سام". تمشي لصق سور حديقة الجامعة بأشجارها البديعة

---

(١) "المينغيت" كما يُدعى في بيروت، هو المدخل الرئيسي للجامعة، ولها كما هو معلوم مداخل عديدة.

(٢) مدخل كلية الطب.

المعمرة التي التهم الخريف أوراقها بأسنان ما تكاد تلمسها حتى تحيلها بنية ذهبية وتتذكر بغصّة "ذهبيات" الشام حين كانت تتسكع مع والدها وهي بعد طفلة في البساتين المحيطة ببيتهما في "ساحة المدفع" ويمشيان بين الأشجار والبساتين حتى ساحة قاسيون أو حتى ساحة الأمويين، ليقول لها والدها: هنا سيتمّ توسيع هذه الساحة التي دعوها بساحة الأمويين. وكما ترين، إنهم يشيّدون مبنى ضخماً قيل لي إنه للإذاعة والتلفزيون..

وكانت متعتها كبيرة حين تدوس كوماً من "الذهبيات" فيصدر عنها ذلك الصوت الشبيه بالنشوة والمتعة، كأن تلك الأوراق الجافة لا تشتهي شيئاً غير طحنها للعودة إلى التراب ولتصير سماداً ثم تنبت من جديد.. كما كان يكرر لها والدها مؤكداً: لا شيء يموت. وكل شيء يُعاود حياته ولكن على نحو آخر..

زين تمشي وهي تسترجع "ذهبيات الشام" والماضي العذب مع والدها في البساتين والغوطة ومزرعته على ضفة بردى في الريحانية وتسلق جبل قاسيون.. لكنها ترى الحاضر على الرصيف المجاور: ثمة إعلان كبير عن دار للسينما سيتمّ افتتاحها قريباً إسمها "أورلي"[1]. دكان "أبو العبد"، بائع السندويشات المحمصة باللّسانات وغيرها من اللحوم أو الأجبان.. وبعده بائع حقائب السفر، ثم مكتبة "خياط" التي قرّرت أن تغزوها ذات يوم. ثم إلى مطعم "فيصل" (لصق الزقاق حيث فندق "الشيخ" كما تعلن اللوحة بجوار المطعم). وتصل إلى "المينغيت"، فتقطع الشارع إلى مقهى "الأنكل سام" الذي يُقدِّم بعض الطعام للطلاب كالبيتزا والهامبرغر وسواهما.. وما كادت تدخل إلى المكان حتى رمت في ثقب آلة "الجوك بوكس"[2] بقطع نقدية لتستمتع عدة مرات إلى أغنية "أنا لستُ بنادمة على شيء" لإديث.. بياف.

طلبت زين من أبو زكور، النادل العجوز، أن يحضر لها شطيرة "هامبرغر" لتلتهمها على عجل وتهرول بعدها إلى الصف مع البروفسور جويل. غرقت في دفترها وهي تنصت إلى إديث بياف: «لا. لا شيء.. لستُ بنادمة على شيء.. لا

---

(١) هي وغيرها معالم كانت محطات في بيروت ضمن محيط الجامعة الأميركية أواسط الستينات.

(٢) آلة موسيقية انتشرت في مقاهي ستينات القرن الماضي ومطاعمه.

الخير ولا الشر». ثم أزاحت زين أوراقها عن الطاولة قليلاً حين شعرت بوقوف شخص أمامها، لعله أبو زكور مع طعامها، ولكن صوتاً سرياً في أعماقها أرسل شرارة في مسامها كهربتها بالشعور بالخطر والاستثارة. رفعت رأسها فوجدت أمامها غزوان!! غزوان الذي يشرق عليها فجأة كأنه "جني المصباح"! كانت قد طالعت له قصة في جريدة الصباح تفيض بعشقه وبإخلاصه لوطنه السليب: فلسطين. ظل واقفاً ومد يده وصافحها، وأدركت من جديد كيف يمكن للمصافحة أن تكون عناقاً. دعته للجلوس. ثمة شيء أرستقراطي في سلوك ذلك الكادح المناضل الجميل المبدع. سأله أبو زكور وهو يضع لها طعامها وينظر إليه بشبه استنكار لتطفله: هل تريد شيئاً يا أستاذ؟ ردّ غزوان: قهوة إكسبريس وعلبة سجائر "لاكي سترايك"[1].

التهمت زين شطيرة الهامبرغر والوجه الوسيم لغزوان: تحسَّست بأنامل عينيها نظراته شبه الدامعة تعباً وربما حباً، وخدّيه وذقنه واستقرت في "حُفرتها". وكأنه شعر بملمس نظراتها، فاستسلم لأنامل العيون المحبّة. لكنها فجأة قالت له: عليَّ بالهرولة حالاً إلى الصفّ.

كان أبو زكور قد وصل حاملاً القهوة وعلبة السجائر، فنهضت وغزوان مذهول لسرعتها في الحركة وتبديل موجتها النفسية. تركت زين في يد أبو زكور ورقة مالية لتسديد الحساب، حسابهما معاً، وحاول أن يعيد إليها الباقي فقالت: . . لك. . وشكراً.

لحق بها غزوان كمن فوجىء بالطوفان وسألها: هل أستطيع أن أراك بعد الصف؟ قالت وشاب آخر جدَّد في "الجوك بوكس" أغنية إديث بياف «لا. . لا شيء. . لا لستُ بنادمة على شيء». قالت لغزوان: ستندم. أجابها: لن أندم على شيء إلاّ على الأيام التي انصرمت منذ لقائنا الأول في حديقة السبكي. .

ضحكت كأن عصوراً نفسية مرت عليها منذ ذلك اللقاء وعلّمتها الكثير، قالت وهي تمضي عبر "المينغيت" متجهة إلى مبنى "المينهول" حيث صفّها: أعرف أننا سنلتقي ثانيةً وثالثةً مصادفةً. . كعادتنا. .

قال غزوان وهو مصرّ على المشي إلى جانبها: لا. . لم ألتقِ بك اليوم مصادفةً ولن أدعك بعد اليوم تذهبين. لقد رصدتك منذ اللحظة التي غادرت فيها الشويفات

(١) نوع من السجائر كثير النيكوتين كان شائعاً تدخينه في الستينات.

إلى بيروت.. لحقتُ بك بسيارتي كأي مخبر ماهر.. حتى "البستاني هول". وقد اضطررت لرشوة حارس المبنى ليتركني أقف فقط بعيداً من المدخل لأترقب خروجك ولحقت بك وأنت تتسكعين بفضول بين "الميديكل غيت" و"الأنكل سام"، ولن يستطيع شيء بعد اليوم أن يبعدني عنك حتى ولا أنت. وسأنتظرك حتى تغادرين الصفّ.

ابتسمت زين وهي غير مصدّقة **(يا لأكاذيب الذكور حين يريدون شيئاً ثم ينسونها لحظة الحصول عليه!!)**. أضاف: لن أفارقك بعد اليوم ولن أدعك تهربين مني.. إنني ببساطة أحبك.

لم تصدقه، لكنها ذهلت حين غادرت صفها ووجدته أمام الباب بانتظارها وقد فتح كتاباً مقلوباً يُحدّق فيه!

(لا تتعبْ نفسك بالحفر في جرحي الأوحد الذي اطلعتَ على جانبٍ من مظاهره، ولا تتوقع أن أنهارَ أمامك كحمقاء صغيرة وأقول لك: أنت الرجل الوحيد الذي ٱستطاع أن يفهم أحزاني وأن أنتحب على صدره وأن أتكئ على قامته.. فأنا أعرف أنك حائر مثلي ومسكون بالحيرة الحزينة أكثر مني، وقد تكون رفيقي في درب الأحزان، وربما المباهج، ولكنك لستَ مُنقذي ولستُ أنا بدوري مُنقذتك.. نحن رفيقان في دروب العمر والأشواك.. وهذا كل شيء. ولستُ بالتأكيد من النساء اللواتي يجفّفن الأزهار بين دفات كتب المذكرات وهن يرتدين الثوب المخملي الوردي الرومانسي وقفازات الدانتيل المبللة بالدموع). لكن زين في تلك الليلة وضعت ياسمينة من عقد الياسمين الذي ٱشتراه غزوان لها من بائع "الكورنيش" داخل دفتر مذكراتها ببعض الخجل من ذاتها.. واعتذرت من ذاتها على "رومنسيتها" **(لقد لحق بي كمراهق صغير، وهبّ للقائي كوطن سليب!)**.

* * *

ما كادت زين تصل إلى المجلة التي تكتب لها عموداً أسبوعياً وتسلم "المواد" إلى سكرتير التحرير الذي دعاها لشرب فنجان من القهوة حتى رنّ الهاتف في غرفته.. كادت تغادر الغرفة تهذيباً لتترك له حرية الكلام حين ناداها: الهاتف لك. ثمة من يريد أن يكلمك. وغادر هو الغرفة تهذيباً. جاءها صوت غزوان: لا تشربي القهوة هنا. أدعوك لشربها في مقهى "الهورس شو".

ـ هذا لا يُصدق.. هل ثمة من طلب منك مراقبتي في كل لحظة مقابل مبلغ باهظ من المال..

ـ أجل. واسمه قلبي.. أحترفُ حبك والقلق راتبي.. إنني أحبك أيتها المجنونة التي تقودني إلى الجنون بخطى عاقلة.. أحبك منذ لقائنا الأول حين كُنتِ طفلة مكسورة القلب وسأستجوبك ذات يوم حول ذلك.. وسأعترف لك بذهولي من انبثاقك من مقتولة إلى قاتلة، فأنت تقتلين لامبالاتي نحو النساء.. أنا بانتظارك أمام الباب لنذهب إلى الجبل.. أو إلى البحر.. أو إلى الجحيم.. أو إلى "الهورس شو" لشرب القهوة إذا أحببت.. المهم أن نكون معاً.. قالت زين: ثمة زميلة تريد استعمال الهاتف.. صرخ بها: تعالي.. أنا أمام الباب! أُحدثك من دكان البقال مقابل المجلة!!..

* * *

ـ ألو زين.. أنا فضيلة أكلمك من الكويت.. مساء الخير.

تقول زين بحرارة: «يا ميّت مسا» يا حبيبتي[1].. لم تستطع زين كتمان فضولها فأضافت: وكيف عرفتِ رقم هاتف المدرسة في الشويفات؟

ـ زودني به عمي أمجد..

ـ كم أنا مسرورة بسماع صوتك.. ما أخبارك؟

ـ بألف خير.. أنا سعيدة مع نجم ولستُ بنادمة. ولستُ حبلى.. فاطمئني.

ابتهجت زين، إذ إن اغتصاب "وحيد القرن" لها مر بدون مأساة الحمل...

أضافت فضيلة: أحببت فقط أن أشكرك على تشجيعك غير المباشر لي...

قالت زين: لا تقلقي.. "زقاق الياسمين" سيُرّحب بك حين تعودين، وأسرتنا ستُطلق "الزلاغيط" إذا جئت وعلى ذراعك طفل وإلى جانبك زوج محب.. نحن في البيت الكبير مثل الحليب، "نفور" كالمجانين غضباً ثم "نهمد" بالغفران بعد حين.

تلك المخابرة الهاتفية ألهبت أشواق زين إلى دمشق وإلى كل من عرفته فيها ـ تقريباً!... ـ وما عرفته. فركبت سيارتها وهامت على وجهها.. هامت على بحر

---

(١) «يا ميت مسا» تعبير شامي يعني مساء الخير ولكن بحرارة استثنائية.

بيروت حتى عين المريسة ثم عادت حتى وصلت إلى طريق الشام صعوداً حتى "دار الصياد" في الحازمية. تحاول تجاوز شاحنة لتصل إلى عاليه ثم تعود إلى الشويفات قبل "منع التجول" في المدرسة قبل منتصف الليل بساعة. يسقط ضوء سيارتها على لوحة الشاحنة: حمراء تحمل رقمها واسم "سوريا"..

اشتعل حنينها كأتون. لم تحاول تجاوز الشاحنة بل لحقت بها.. سارت خلفها وهي تشتهي لو كان بوسعها أن تتبعها حتى سوريا..

كالمنومة تقود سيارتها خلف الشاحنة وهبابها وصوت محركها المزمجر المزعج.. ثمة جاذبية لا توصف في تلك الشاحنة التي بوسع سائقها العودة إلى بيته في سوريا.. قبل بلوغ بحمدون أدركت أن عليها أن تعود إلى النوم في حرم المدرسة قبل "منع التجول"... واغتالها الشوق إلى والدها وجدّتها وزقاق الياسمين وقبّة السيار في قاسيون.. لا.. لستُ صخرة في قاسيون.. أنا بنت تبكي شوقاً لوطنها..

* * *

منذ اليوم الذي علمت فيه زين أن شبكة "التخريب"، كما سمّتها بعض الصحف والتي أرسلها الملازم ناهي وتمّ اعتقالها، كان من مهماتها إعادتها إلى سوريا بأي ثمن.. منذ ذلك اليوم صارت زين حين تصعد بسيارتها عند مفترق الشويفات تنظر في المرآة التي تعكس السيارات خلفها للتأكد من أن أحداً لا يتبعها بسيارته ويتربص بها شراً.

هذه المرة تأكدتْ من أن السيارة التي تطاردها بذكاء، والتي لاحظتها مرات في المرآة العاكسة، هي سيارة غزوان الذي يتربص بها حُباً. توقفت فجأة قبل وصولها إلى باب المدرسة، فتوقف بدوره.

هبطت من سيارتها ومشت نحو سيارته ولاقاها في منتصف الطريق..

ـ لماذا تلحق بي ليلاً.. أهي الغيرة؟ تعرف أنني لا أستطيع الذهاب إلى أي مكان بعد توقيت "منع التجول" في المدرسة..

ـ وهل تظنين أنني لا أطالع كل حرف في جريدتي قبل نشره؟ أعرف أنك معرّضة للاختطاف في محاولة ثانية...

- . . . . .

- أعرف أن الملازم ناهي ناقم عليك، وعرفتُ من مصادري الخاصة سبب نقمته. وأعرف ان ناهي هو اليد الضاربة للمقدم سمير والمدعوم منه، وانه بالتالي خطر حقاً. .

- . . . . .

- لا أريد أن يصيبك مكروه. . وهذا كل شيء. فأنتِ لا تنتمين مثلي إلى "حركة القوميين العرب" ولا تنتمين إلى منظمة أو حزب يحميك. .

مدت زين يدها ووضعتها على شفتي غزوان قائلة: أرجوك. . لا تحاول تسييسي وإدخالي في منظمتك. . ولا تبث آراءك وأنت تزعم حبي ليتمّ توظيفي "رفيقة" لغلي القهوة في مطبخك الثوري. .

قال مداعباً: كنت أفكر بمصير آخر لك كخطف طائرة مثلاً. . وضحك. .

همس: أنا أحبك مهما كُنتِ باستثناء أن تكوني جاسوسة لإسرائيل!

- إذاً فقد سمعت بأنني "ماتا هاري" سوريا. . أتجسس على وطني لحساب ألمانيا الغربية؟

قال ساخراً: هذا هراء. . الكل يعرف ذلك. . والكل يعرف سبب التهمة.

ردّت زين بصوت مرتجف: أجل هراء. . ولكنه يملك السلطة لاقتحام حياتي وتخريبها باعتقالي متسلحاً بتلك التهمة. . هل تظن أنني جئتُ إلى بيروت لمطاردتك؟ لقد جئتُ لإنقاذ حريّتي. .

قال غزوان وهو يحاول إخراج الحوار من حقل الألغام السياسي المكهرب الذي مشى فيه: سأراك غداً الساعة الثانية عشرة في مقهى "الأنكل سام" بعد انتهاء صفك.

ومضى بسرعة إلى سيارته قبل أن ترفض!

الفصل الثامن (محاولة ثالثة عشرة)

١ ــ يا وطني الحبيب لماذا تشرّدني؟

٢ ــ أقرع الأسوار اللامرئية لدمشق..

٣ ــ على رؤوس أصابع دموعي[١].

(١) أترك للقارئ اختيار العنوان الذي يجده مناسباً.. وشطب ما تبقى.

شرارة فرح أشعلت قلب زين وهي تسمع صوت والدها يحدثها حاملاً مفاجأة أبهجتها:

ـ ألو زين.. أنا في فندق "كونتيننتال"[1] برفقة المحامي نجاتي الذي سيحاضر معي بعد غد في ندوة مفتوحة بدعوة من نقابة المحامين في لبنان.. وصلنا قبل قليل وأغادر بيروت مساء الثلاثاء. المحاضرة بعد غد يوم الإثنين.. أتمنى أن تقضي معي عطلة نهاية الأسبوع.. سنذهب إلى مصايف الجبل غداً الأحد إذا لم تكوني مرتبطة بمواعيد..

لم تكن زين الغارقة في حياتها الجديدة في بيروت تحلم بغير صوتٍ كصوت والدها الذي تعرف أن بوسعها أن تبوح له من دون أن يطعنها، أو يقوم بتحويل لحظات نزفها لأسرار قلبها أمامه إلى سلاح لابتزازها فيما بعد أو للسيطرة عليها.

قالت زين والفرحة ترقص في صوتها إلى المدى الذي ذَكَّر والدها بصوت شهقاتها السعيدة في العيد وهي طفلة تركب أرجوحة الفرح: سأحضر الآن. سأحضر فوراً لنتناول طعام الغداء معاً. وسنقضي غداً الأحد معاً.. وسأكون أول المصفقين في ندوتك الإثنين. أنا قادمة الآن فوراً للقائك.

قال والدها بصوت منهك: لا يا ابنتي. تعالي مساءً فأنا متعب جداً، وعليَّ أن أنام قليلاً.. لدي بعض الألم في معدتي وقد أطلب منك أن تضربي لي موعداً مع طبيب شهير للمعدة سمعت به في دمشق إسمه الدكتور منير شمّاعة[2]، وقد أبقى عندك في بيروت يومين إضافيين للعلاج.

ـ سأذهب في الحال إلى عيادة الدكتور شمّاعة، مقابل جامعتي الأميركية، وأحصل لك على موعد لصباح الإثنين.. أتمنى ألا يكون قد أغلق أبوابه. الناس هنا تعشق "الويك أند"[3]. لا تقلق يا أبي.. نمْ قليلاً فأنت مُتعب وما يدور في

(١) فندق على شاطئ البحر في بيروت لم يعد اليوم موجوداً كما فندق "كارلتون" مقابله.
(٢) طبيب بيروتي ذائع الصيت في تلك الفترة وقد رحل عن عالمنا اليوم.
(٣) عطلة نهاية الأسبوع.

دمشق "يهدّ حيل"[1] الجبابرة الشوام القلقين على مصير بلدهم: هزيمة في فلسطين عام ١٩٤٨ . . انقلابات عسكرية متتالية. . وحدة فانفصال. . فانفصال آخر داخلي بين الناصريين والبعثيين. . وأنت أحد بُناة الاستقلال ومجانين تحرير فلسطين وكل ما يدور ينعكس عليك ويقهرك. . لا تقلق يا بابا. . وسأكون بانتظارك في صالون الفندق حين تستيقظ.

بقلق شديد يتملكها على أبيها، قادت زين سيارتها بسرعة صوب عيادة الدكتور شمّاعة وأوقفتها أمام مدخل "الأنكل سام" وصعدت إلى المبنى الملاصق حيث عيادة الدكتور شمّاعة لطلب موعد تذهب بعده إلى مكتبة الجامعة للعمل ريثما تلتقي بوالدها.

شاكستها سكرتيرته قائلة أن لا وقت شاغراً لدى الطبيب قبل عشرة أيام، فأصرّت زين على الحصول على موعد مع الطبيب، وتصادف لحظتها خروج الدكتور شمّاعة مع مريضه الأخير وهو على وشك الانصراف. ولعلّه حدس برهافته لوعة زين في صوتها المصرّ على الحصول على موعد فسألها: ماذا يؤلمك يا آنسة؟

أجابت بعفوية وهي تضمّ كتبها إلى صدرها: يؤلمني صوت أبي. طلب مني الحصول على موعد مع طبيب للمعدة. إنه يحسّ بألم في منطقة الصدر، وهو الذي لم يستشر يوماً طبيباً. .

سألها د. شمّاعة ـ: لهجتك "شامية". لماذا لم يستشر والدك أطباء دمشق؟ لديكم أطباء على درجة كبيرة من العلم. رائد مختبرات التحليل العصري في سوريا إسمه د. حيدر، لماذا لم يستشره والدك ويجري التحاليل عنده؟ فقد يكون سبب أوجاع صدره القلب لا المعدة.

ـ لأن «الكنيسة القريبة لا تشفي» كما يقول المثل الشامي. لذلك فهو يريد الذهاب إلى "الفاتيكان" رأساً! وأضافت: أبي مكابر ورحلته من دمشق إلى بيروت أتعبته فيما يبدو، ولم يسبق له الشكوى من صحته.

---

(١) يدمّر، يحطم. .

قال لها د. شمّاعة بإنسانية وهو الذي كان يتأهب لمغادرة العيادة: أحضريه الآن وأنا بانتظاره.

ـ سأفعل. هل تسمح لي بالاتصال به هاتفياً؟ اقتادها إلى غرفته وأجلسها على مقعده خلف طاولته إكراماً لقلقها. **(بنت مجنونة بالقلق على والدها؟ هذا جميل ولم يعد شائعاً.. لم أعد أُلاحظ الكثير من ذلك اليوم: يأتيني آباء مسّنون أعرف أولادهم الناجحين الذين لا يكلفون أنفسهم عناء مرافقة آبائهم.. اللعنة عليهم).**

رفض عامل الهاتف إيصالها بوالدها لأنه ترك تعليمات لدى "كونسييرج"[1] الفندق تقول: "لا اتصالات هاتفية قبل ساعتين".

قال لها د. شمّاعة: عودي به صباح الإثنين. سأكون بانتظاركما.

شكرته بحرارة وسألها: بالمناسبة، ما اسمك؟

وحين ذكرته له، أفرحها أنه ازداد ترحاباً بها، قائلاً إنه يُطالع لها أحياناً في الصحف معاركها وكتاباتها، مضيفاً: أنت مُشاغبة كبيرة، لكنك طفلة صغيرة حين تقلقين على والدك.

قالت زين «استرو ما شفتوا منا»، ثم أضافت: هذا مثل شامي.. فقاطعها: أعرفه.. وأحبه.

* * *

في غرفة المكتبة الشاسعة بالجامعة الأميركية فشلت زين في التركيز على القراءة إذ راحت تحصي الدقائق للقاء والدها. ستكون في فندقه بعد ساعة ونصف بانتظاره. وسرّها أنه ذكر لها وجود زميله المحامي نجاتي في الفندق معه لمشاركته في الندوة. تنتظر لحظة اللقاء بوالدها للعشاء بشوق، بدون نجاتي! لماذا لم يدعه إلى العشاء معهما؟.. سألت والدها ذلك وأجابها حرفياً: أُريد أن أملّي عينيّ بك يا ابنتي ونحن بمفردنا. وطارت زين فرحاً. لقد آلمها كثيراً الخدش العميق في علاقتهما حين ركبت رأسها وارتكبت غلطتها الكبرى بالزواج.. واعترفت بالخطأ فساعدها في تصحيح غلطتها.. لكنه اليوم يبدو

---

(١) العامل أو العاملة في قسم الاستقبال.

كارهاً ـ مثلها ـ لتذكر ما كان.. ومضى، وسعيداً لأنه أخيراً عثر على ابنته زين **(أم على ابنه زين العابدين الذي لم تنجبه له أمي على الرغم من أنها فقدت حياتها بفعل المحاولات المتكررة؟)**..

لا. لا أريده أن يحبني لأنني صُرت زين العابدين! فأنا زين، ولكنني لست ظلاً لابن لم يأتِ. أنا أتيت وأنا هنا، وهو فخور بي وذكر لي كم يفرحه حين يسأله متدربو المحاماة في مكتبه من الأقطار العربية: هل زين الكاتبة قريبتك؟. فيقول لهم بفخر: إنها ابنتي.

غادرت زين مكتبة الجامعة لعجزها عن التفكير بغير والدها.. وجلست في صالون الفندق مقابل المصعد بانتظاره.. **(لا.. لن أحدّثه عن أي موضوع مزعج.. لن أحدثه عن الماضي الذي مضى.. صوته يبدو متعباً. حان الوقت لأتعاطف مع الذين أحبّهم وأكفّ عن مطالبتهم بحبهم لي وتدليلي. يجب أن أكبر وأكف عن بحثي الملتاع عن حنان كحنان الأم، لأمنح حناني للذين أحبهم فهم أيضاً بحاجة مثلي إلى التعاطف. ثم إنه منذ اللحظة التي قُلت فيها له: أنا أخطأت وأُريد تصحيح غلطتي.. وأنتَ ربيتني على الاعتراف بالذنب. قال لي: أنا فخورٌ بك ما دُمتِ هكذا.. منذ تلك اللحظة انعقدت بيننا صداقة وصلة إنسانية نادرة من نمط لا تنفصم عُراه.. أبي.. أحبَّ مخلوق أعرفه إلى قلبي، فأمي لم أعرفها بل اخترعتها وأحببتها، أما أبي فها هو يغادر مصعد الفندق متجهاً نحوي.. أركض إليه وأضمّه وأنا أردد كالأطفال: بابا.. بابا!**

بصعوبة أنحنى للركوب في سيارة "السبور"[1] (الكارمنغيا). ولعلّ ضوء القمر الفاجر الجارح ذكّره بلياليا ونحن نتسكع معاً على خط القطار الحديدي في قرية "الريحانية"[2] متجهين صوب "الهامة" ونحن نسمع صوب هدير القطار الآتي.. فنتسابق فيمن سيقفز أولاً هارباً ولا "نتشاطر" فيمن سيقفز أخيراً متحدياً

---

(١) سيارة رياضية تُستعمل أحياناً للسباقات.

(٢) الريحانية: قرية "روائية" توهمت أنني اخترعت اسمها. وحين قام المخرج سمير ذكري بتصوير فيلم عن روايتي «**الرواية المستحيلة**»، قال لي إنه وجد عدة قرى في سوريا اسمها "الريحانية" وليس بينها قرية تقع على ضفة بردى كما في الرواية!

الخوف من القطار.. كُنا نعرف الفارق بين الشجاعة والتهوّر الغبي المتشاوف.. فما جمعنا كثير... وحتى زواجي الجنوني الفاشل الذي كلّف والدي الكثير من أعصابه.. ومن ماله أيضاً، لم ينجح في قطع ذلك الشريان بين قلبي وقلبه.

سألته وأنا أحاول إنعاشه بالشراهة التي لا تنقصه كشامي وأنا التي تعلمت منه أغنية شعبية شامية: «نادت الأرواح نفديك يا بطن بقا سيدي.. وصفيحة بلحمة وكبة سخنة...» وهنا يتابع المغني تعداد ما تشتهيه نفسه من مآكل: أين تريد أن نتناول العشاء أيها الحبيب؟ في مطعم "سفن سيز"[1] حيث تسبح الأسماك تحت الزجاج الشفّاف للبلاط الأرضي، أم في مطعم "العجمي" قبل مفرق سوق الجوخ في آخر الزيتونة حيث يمكن أن تلتقي بأصحابك الصحافيين أمثال: غسان التويني، وسعيد فريحة، وكامل مروة، ورياض طه، ورشدي المعلوف، وبديع سربيه، و.. و..[2] وسواهم، أم في مطعم فندق "الكارلتون"، أم في مطعم "فيصل". أم في "الأنكل سام"، أم في "مطعم اليلدزلار"، أم مطعم "السندباد" مقابله، أم في..

قاطعها قائلاً دونما شهية للطعام تسيل من صوته كما سبق أن ألفتْ: أريد الذهاب إلى مطعم "الغلاييني" في الروشة إلى حيث البحر، وإلى حيث أصطحبتك في زيارتنا الأولى إلى بيروت قبل عشرة أعوام حين كُنت بنتاً صغيرة، وحملتك في العودة إذ غفوت على المائدة.

ذهلت زين من كلامه، فهي تشعر أن عمرها في الواقع ألف عام! **(فهل كانت بنتاً صغيرة حقاً قبل عشرة أعوام أو أكثر قليلاً؟! وتلك الأعمار كلها التي عاشتها في دمشق والحروب التي خاضتها والخبرات كلها التي جربتها.. والمقالات كلها.. والأحزان كلها، أحدثتْ حقاً خلال أعوام قليلة فقط أم خلال ألف عام؟!.**

حربها مع الشيخ شفيق و"أزلامه" المتمردين، المراهقين الذين أهدروا دمها..

---

(١) مطعم في شارع بلس اشتهر في أواسط الستينات ولم يعد اليوم موجوداً.

(٢) من كبار الصحافيين اللبنانيين في ذلك الزمان، وقد رحلوا جميعاً.

وحربها مع طبقتها "البورجوازية"، التي زعم الملازم ناهي أنها تنتمي إليها من دون أن يدري شيئاً عن كفاح جدتها ووالدها من أجل العيش.. بل ومع الأرستقراطية ميراثاً عن أمها إبنة العراقة الثرية في اللاذقية. لم يكن في سلوكها وأبجديتها ما يرضي الجدانوفيين.. ناهيك عن حربها مع بعض أهل زقاق الياسمين في البيت الكبير وغيره، ذلك البيت خلف الجامع الأموي بالقيم التقليدية إياها التي لم تطقها أمها قبلها لكنها سايرتها وهي لم تساير أحداً.. وحربها مع الرجعيين والثوريين على السواء الذين وجدوا رغبتها في الحرية فوق طاقة "خطوطهم الحمر" المرسومة للمواطن الآدمي (وحريمه).. وحروبها الأخرى العديدة الكثيرة لأنها وجدت أن عشقها للحرية لا ينسجم مع "الحريات" المشروطة كلها لأدعياء المذاهب كلها. فهي لا تريد الحزب ديناً بديلاً، وترفض أية ممارسة دكتاتورية للثوريين وتجدها مرادفة للممارسات التي تزعم التديُّن لتدجين المواطن. معظمهم حاول تدجينها وترويضها وفشل، ونجحت هي خلال سنتين من الكتابة في الحصول على إجماع مطلق ضدها تقريباً ورفض ما تمثّله.. بحدّة أو بلباقة تحفظ "شعرة معاوية" وهكذا اتفق الثوار والرجعيون على أن سوريا ليست بحاجة إلى "بنت متمردة" مثلها... ومأساتها الحقيقية هي في حروبها مع الذين تحبهم وتنتمي إليهم. وها هي في بيروت تتابع تمردها.. من دون أن تضيق بها مدينة الحريّة ذرعاً، لا بل تحتضنها فكرياً وتدعمها بمعاني الكلمة كلها).

مرّت تلك العناوين كلها داخل رأس زين ووالدها صامت وهي أيضاً صامتة. توقفت أمام مطعم "الغلاييني" وساعدت والدها على الترجل من السيارة (**يبدو متعباً حقاً كما لم أره أبداً. لا. أنا أبالغ. «يا شيخي ليش وشك اصفر»**[1]. **سينتعش حين نجلس على مائدة وندلي أقدامنا في البحر**).

نظر أمجد إلى السلم المرتفع الذي يتعين على القادم إلى المطعم أن يهبطه وقال لابنته: لا أستطيع هبوط هذا الدرج ولا صعوده فيما بعد.

ـ حسناً. سأصطحبك إلى "مطعم مكسيم"[2] على شاطئ البحر.. إنه

---

(١) مثل شامي معناه إقلاق الآخر على صحته.

(٢) مطعم لم يعد موجوداً اليوم واشتهر في ستينات القرن الماضي وفي مطلع السبعينات بدل اسمه إلى "موبي ديك". والأسماء الغربية في المطاعم البيروتية كانت شائعة جداً آنذاك.

قريب، بعد "الرملة البيضاء" و"الإيدن روك".. ولا درج له. بينه وبين موقف السيارة رصيف.

قال لها: هل أغضبك إذا اعترفتُ لك بتعبي وذلك الألم في معدتي وقلتُ لك إنني أريد العودة إلى غرفتي في الفندق.. سأكتفي بحساء خفيف.. وأنام.

ـ لن تغضبني بل على العكس. أريدك غداً بكامل نشاطك.

أمام باب المصعد قبّلها على جبينها، ولا تدري لماذا انحنت وقبّلت يده..

قال بحنان: غداً نذهب إلى الجبل.. إلى عاليه وبحمدون وصوفر وشاغور حمانا وفالوغا.. و...

قاطعته: سنذهب إلى حيث تشاء.. وأنا سائقك.. متى تريدني أن أحضر؟

قال بصوت شاحب: تعرفين أنني أستيقظ باكراً لصلاة الصبح.. هل بوسعك المجيء في العاشرة؟ همست بحب: سأكون هنا بانتظارك أمام باب المصعد.

حين أنغلق عليه باب المصعد الشبيه بتابوت خشبي وغاب عن عينيها، لم تكن تدري أنها المرة الأخيرة التي تراه فيها حياً. مضت سعيدة لأنها ستقضي يوم الأحد مع والدها ولم تنسَ توقيت المنبِّه لتستيقظ في الثامنة وتهرع للقائه.

* * *

أيقظتها ـ قبل رنين المنبِّه ـ يدٌ تهزها. إنها إحدى المعلمات من زميلاتها في مهجع المعلمات. نهضتْ زين. وقبل أن تسأل كم الساعة، قالت لها زميلتها بحنان بالغ: أتصل شخص يُدعى المحامي نجاتي، قال إنه صديق والدك وقد طلب ذهابك إلى الفندق؛ لأن والدك مريض جداً... مريض جداً.

كادت زين أن تسألها: هل مات؟ قولي لي الحقيقة.. لكنها أشفقت على نفسها من معرفة الحقيقة.

على رؤوس أصابع دموعها ذهبت إلى الفندق. على رؤوس أصابع دموعها تلقت النبأ الفاجع، وأرهفت السمع لكلمات نجاتي: غرفتي ملاصقة لغرفته. كلانا ينهض باكراً. اتفقنا على اللقاء وقت طعام الفطور لمراجعة بعض مواضيع

ندوتنا. هبطتُ ولم أجده. صعدت. وجدته ملقياً على أرض الحمام وصابون الحلاقة يكاد يجفّ على وجهه. الطبيب قال إن ذبحة قلبية فاجأته وهو يحلق ذقنه، والصابون ما زال على فرشاة الحلاقة وطرف الشفرة..

على رؤوس أصابع دموعها طلبت الصعود لوداعه. قال لها نجاتي: لا تحركي السكين في جرحك، عودي إلى المدرسة في الشويفات وسأتصل بك حين أنجز الإجراءات الرسمية الضرورية والترتيبات لنقله بعد الظهر أو مساءً إلى دمشق..

ـ سأرافقك..

ـ ليس بوسعك ذلك. في نقطة "جديدة يابوس" سيتمّ اعتقالك ولن تقفي على قبر والدك بل في السجن.. بوسعك اللحاق بالسيارة التي أنقله فيها حتى الحدود اللبنانية.

على رؤوس أصابع دموعها استمعت إليه ورجته من جديد: أريد أن أراه لمرة أخيرة لأودعه ولو لثانية واحدة.. أرجوك..

ـ حسناً.. تعالي معي.

كانوا قد مدّدوا والدها على أريكة.. شاهدته.. شاحباً.. مسترخياً كما لم تره من قبل.. تحمل غطاء السرير وتغطيه به حتى عنقه، فهو يبدو "برداناً".

على رؤوس أصابع دموعها غادرت الغرفة ونجاتي يقول لها: سأتصل بك قبل أن نغادر بيروت إلى دمشق لمواكبة جثمانه إذا أحببتِ.. حتى الحدود.

(جثمانه؟ والدي صار جثماناً؟ على رؤوس أصابع دموعي أعود إلى الشويفات... أقود سيارتي وقد انطلقت في رأسي صرخة عتب على حافة الغضب..

لا.. لا تستطيع يا أبي الموت هكذا من دون استشارتي وأنت الغاضب مني بين حين وآخر لأنني أُقدم على ما تدعوه "حماقاتي" من دون استشارتك.

ما هذه الحماقة التي أقدمت عليها، موتك؟ كيف تجرؤ على اقتراف "جريمة" كهذه بحقي وأنا في أمسّ الحاجة إليك؟.. كيف تجرؤ على أن تخذلني الآن وقد

صرتُ قانعة بأن مشورتك هي المفتاح لحياة آمنة؟

ماذا أفعل الآن وأنتَ سقطتَ في الحمام ميتاً بينما كنت تحلق ذقنك، ودهست بوصلتي تحتك، ماذا أفعل لأتابع دربي بدون دعمك وحنانك وصداقتك ومحبتك وغفرانك.. كيف جرؤت على تركي هكذا وحيدة في عالم متوحش كله أفخاخ).

* * *

انطلق موكب السيارات باتجاه الحدود.. (أبكي وأبكي بلا صوت وأنا ألحق بعربة نقل الموتى السوداء وهي تنقل جثمان أبي لدفنه في مقبرة "الباب الصغير" بدمشق حيث يرقد أجدادي وأجداد أجدادي.. لن يكون بوسعي مرافقة جثمان أبي حتى إلى قرب أسوار سوريا.

توقفت عربة الموتى في زحمة السير في "ضهر البيدر، وتوقفتُ بدوري.. أطفأت أضواء سيارتي لبرهة من الوقت، وأضواء شراييني وأضواء صمّامات قلبي.. توقفتْ ضربات قلبي. وقفتْ روحي احتراماً لذلك المناضل من أجل حرية سوريا ضد الانتداب وأحد الأوفياء للاستقلال الذين نجوا من أنشوطة الإعدام.

وكان بوسعي في تلك اللحظة أن أسمع صوت الريح وهي تمر برئتي، وهدير موج بحر اللاذقية حيث دُفنت أمي. هبطت من السيارة وركعتُ احتراماً لموكبه، فقد كان يضمّ أشباح الآلاف من المناضلين الذين لم أعرفهم ولعلّهم ماتوا قبل أن أُولد لكنهم أورثوني معه ذلك الشعور بالعزّة ومقاومة كل من يحاول استلاب إنسانيتي واجتياح حريتي وبالاحترام لهم وبالقدرة على المقاومة على خطاهم، المقاومة بأنواعها كافة دونما تحنيط فأنا بشر، وبما في ذلك مقاومة "المقاومة" المزورة، كمقاومة عماتي وخالاتي لحريتي وتمردي وأنا طفلة وهن يحاولن تعذيبي نفسياً لكي أركع وأخضع وأتوسل.. كُنتُ برفقة أبي وأنا في الثامنة من العمر في أحد المطاعم وعندما قلت للنادل متوسلة: «دخيلك كباية مَيْ»[1]. غضب أبي وزجرني قائلاً: لا تستعملي كلمة.. دخيلك أو أي كلمة توسل أخرى أبداً.. الآن أصرخ: «دخيلك يا الله اتركه لي قليلاً بعد».

تتحرك السيارة من جديد. ألحق بها. في هذه الزيارة قال لي أبي للمرة الأولى

---

(١) أرجوك، أُريد كوباً من الماء.

في حياتي إنه سيحضر ثانية من دمشق خصيصاً للاحتفال بعيد ميلادي، أنا التي كبرت في بيت لم يعرف يوماً الاحتفال بأَعياد ميلاد الأولاد لأنه تصادف مع ذكرى موت من أنجبتهم... وعيد ميلادي هو ذكرى موتى أمي بمعنى ما..).

أبكي وأبكي بلا صوت وقد توقفتُ بسيارتي قبل خط الحدود.

توقفت عربة نقل الموتى وهبط منها المحامي نجاتي وأشار لي بيده بأن أتوقف.. فقد بلغنا خط الحدود مع وطني.

أبكي على رؤوس أصابع دموعي..

أغسل الحدود السورية ـ اللبنانية بدموعي..

أغسل مبنى "المصنع".. أغسل قهر قلبي.

أغسل أحزاني ربما لتتوهج وتتأجج وتشع بذلك البؤس السري كله الذي أختزنه.

أبكي داخل شراييني، أغسل صمتي الدائم عن أحزاني أنا التي روضتُ نفسي منذ الطفولة على اللاشكوى واللابكاء.

ها هو الضوء الأحمر في مؤخرة سيارة نقل الموتى يغيب والأشجار وقفت حداداً على أبي.. كما أزهار عبّاد الشمس. وحتى نباتات التخدير (حشيشة الكيف) المزروعة بكثرة في سهل البقاع انحنت مع الصفصاف كبقية المزروعات والنباتات في موكب توديعه من لبنان وتوقفت الأصوات لدقيقة حداداً عليه. ولعل البوم لم يطلق صيحاته طيلة دقيقة صمت حداداً على أبي كما بقية العصافير والأرانب والضفادع والخيول.. وأحبابي جميعاً آزروني ودعموني في محنتي من نباتات وطيور ودواب، وتوقفت قلوبهم عن النبض دقيقة حداداً على أبي..

للمرة الأولى منذ موت أمي انتحبتُ بدموع أنا التي تبكي دائماً بلا دموع...

ها أنا أخيراً أبكي وأُطلق سراح دموعي مصحوبة باللعنات على من حرمني من الإنحناء أمام قبر أبي في جبّانة "الباب الصغير" ووضع "الآس" على قبره مع همسة حب أُطلقها زفرة نار: من دونك أبي أنا بلا مظلة ولا عكاز لكنني أعدك بأن أستمر، فقد علّمتني فن الخسارة ولكن مع فن رفض اليأس في آنٍ معاً..

ها هي السيارة تتوقف أمام نقطة "المصنع" وفيها جثمان أبي الحبيب الغالي. المحامي نجاتي ينزل منها وبيده الأوراق الرسمية ليستطيع العودة بأبي كي يرتاح في

قبره في "الباب الصغير" مع أجداده..

الظلام دامس وليس بوسعي مشاهدة شيء على بعد دمعة مني.. لكنني أرى المشهد بوضوح، بل وأرى جثمان أبي، بوجه مسترخ، بلا حزن ولا ألم ولا معارك نفسية ولا قضايا وصدامات ولا عيون تسيل غراماً، أو غضباً، أو طموحاً.. انتهى كل شيء.. إنه لم يعد في كوكبنا.. لقد غادر قشرته الأرضية ومضى إلى كوكب آخر، فلماذا أحزن إلى هذا المدى لأنني لا أستطيع مرافقته إلى بيته الجديد: قبره؟ لقد أقلعت به طائرته من كوكبنا، غرفة الانتظار، إلى كوكب آخر وانتهى الأمر.. فكفي عن البكاء يا حمقاء.. ولكن كيف؟

ثمة نار تشتعل في قلبي وأردد: «يا نار كوني برداً وسلاماً...».

بدأت تمطر أمام الأسوار اللامرئية لدمشق من حيث أقف قرب نقطة "المصنع". أهبط من سيارتي وأقرع أبواب السور وأنا أصرخ تحت المطر: «إفتحي يا ماما»، ولا من مستجيب.. «إفتح يا وطني.. إفتح يا سمسم». ما هذا السور بلا نافذة وبلا باب وبلا شرفة لحوار!.. بلى، أسمع صوتاً يشبه صوت ناهي يقول وقد زرع في حنجرته مكبراً للصوت: إركعي وادخلي زحفاً على ركبتيك إذا كُنت تريدين الدخول إلى دمشق وزقاق الياسمين ومقبرة "الباب الصغير" حيث سيُدفن والدك.

أصرخ تحت المطر بساقين غارقتين في وحل كالرمل المتحرك: لا. لن أركع. سأترك الشوق يقتلني ولن أركع.. أُريد أن أدخل المدينة مرفوعة الرأس، ولن أمر بك يا ناهي وبشعبة مخابراتك في دربي إلى دفن أبي في "الباب الصغير" وزيارة شبحه في "زقاق الياسمين". لا. لن أركع. مهما قتلني الشوق.. لن أركع. لن ينال مني ناهي وأمثاله وعصابة أزلامه. عليه. عليه هو أن يركع أمامي ويستغفرني.

لا يا لاذقية أمي.. لا يا دمشق أبي.. لا.. لن يذلّني أحد بعد اليوم.. سأظل هكذا وحيدة ومشرّدة. وحين سيعيدون تابوتي إلى الوطن لدفني، سأشترط أن يُحمل في جنازتي عمودياً لا أفقياً، ورأسي داخل التابوت يتجه صوب سماء جبل قاسيون لا صوب التراب... وأتمنى لو أعود قبل ذلك بقليل، على قدمَيْ وإنْ كنتُ أعرف أن ذلك شبه مستحيل لمتمردة مثلي لا تعرف كيف تغلق فم صدقها ولا كيف تحشو حنجرتها بالغنائم بدلاً من أناشيد كبريائها.

وأخذتُ أردد لنفسي بصوت عالٍ: كفّي عن البكاء أيتها الحمقاء.. كفي عن

قرع الأسوار. تعلّمي درس اكتشاف دروب أخرى.. وبلاد أخرى.

أنتحبُ في سيارتي حزناً على أبي وعلى نفسي وعلى من سيولد بعد أن أموت فيما يتناسل ناهي ويتكاثر ولا يجرؤ أحد على تعريته..

ـ ألا ترغبين في العودة إلى دمشق واللاذقية و.. و..؟

ـ أرغب أكثر من أي شيء في هذا الكوكب المجنون بقدر جنوني، ولكنني أرغب في العودة من دون المرور بـ"مصنع" الرعب والهلع وقوائم المطلوبين. الوطن يجب أن يتسع للجميع.. حتى لمن ينتقد ناهي في الصحف، في المصانع، وداخل جدران المقاهي ذات الآذان.. المزروعة حتى في جدران أرواحنا وفي رئاتنا، وفي شرايين مخاوفنا...

قد لا يكون الشرير موجوداً حقاً إلا في مخيلتنا، ولكن الملدوغ من جُحر مرتين وأكثر من حقّه أن يرتاب.. فهل الشك من حُسن الفطن أم أنه الحماقة بعينها التي تهدر عمرنا؟ لا أدري.. أنا كاتبة.. دمها شارات استفهام. ولو كانت لديّ الأجوبة كلها لتوقفت عن الكتابة.

أقرع الأسوار اللامرئية لدمشق تحت المطر وأنا أنتحب تمردي وأصرخ بوطني: أنتَ علّمتني رفض الذل على طول تاريخك مع الفاتحين، فلماذا تريد أن تذلّني الآن؟

لا يا وطني الحبيب، لن تجرّني من عنقي ككلب صغير.. أريدك أن تحبّني وتحترمني.. لا أن تعاملني كقاصر.. أو كمجرم عليه أن يقوم هو بإثبات براءته.

أريد أن أغادرك حين أشاء وأعود إليك حين يحلو لي.

ادعميني يا دمشق. فأنا أكاد أهوي...

ادعمني يا زقاق الياسمين.. يا الجامع الأموي.. يا كنيسة القديس يوحنا فم الذهب.. يا حيّ سوق ساروجة...

ادعميني يا مأذنة الشحم.. يا زقاق الجن.. يا الحريقة يا ستي زينب.. يا قبر عاتكة.. يا سوق الحميدية.. يا طريق الصالحية.. يا الشيخ محيي الدين.. يا المهاجرين.. يا جبل قاسيون.. فأنا صخرة منك وفيك...

ادعميني يا بومتي لنطير معاً فوق قبة السيّار.. ادعموني.. فالذين قمعوني ورفضوني وقهروني سيمضون.. وسيبقى بيت عمتي في الحلبوني وقطتها فلّة..

نعم أنا مجنونة تطير إلى جانبي بومة متفائلة، وسأظل أُحلّق فوق أحزاني كلها وكوارثي جميعاً.. تماماً كما علّمني أبي الذي مات.. مات.. يا إلهي مات أبي وأنا أهذي تحت المطر. إنه الليل لكنني أرى في الظلام حين أحدّق في الأفق صوب دمشق..

ها أنا أتسلق قاسيون من سفحه في الربوة.. أصل إلى الصخرة الشاهقة التي يعرفها أهل الشام من زمان وقد كتب مجنون عليها: «اذكريني دائماً».. وكتبتُ عليها يوم غادرتُ دمشق: «لا أنساك».. وها أنا أكتب عليها كلمة واحدة: «سأعود»...

مهما طُرت فوق القارات، أنا صخرة في قاسيون وسأعود.. أنا صخرة اقتلعوها من قاسيون تهيم في الفضاء بلا مدار...

لا. لستُ صخرة، أنا حبة ترابٍ من قاسيون تذريها رياحٌ مظلمة.. أنا هشّة وحزينة، وحيدة ومجنونة..

وها أنا أنتحب وأكره سماع صوتي وأنا أبكي).

ما زلتُ متوقفة بسيارتي قرب نقطة "المصنع" بعدما تجاوزتني من زمان سيارة نقل الموتى التي تقلّ أبي ودواليبها السود الضخمة تركض جيئةً وذهاباً فوق رأسي، وتطحنه.. تقل أبي؟ بل جثمان أبي. مات أبي. مات. مات!!..

(أكرر ذلك لنفسي: مات أبي؟ بل مات صديقي الوحيد في هذا الكوكب المتوحش.. مات المخلوق الوحيد الذي أحبّني وهو يعرف دخيلة نفسي وأخطائي. مات. مات.. كما ماتت أمي التي ربما أحبّتني ذات يوم.. لا أذكر وجهها ولا صوتها فقد ركضتْ إلى موتها وأنا طفلة لا تعي شيئاً وقيل لي فيما بعد أن أمي ماتت قبل أن تبلغ الثلاثين من العمر وأنها كانت تحبني وتدللني. (أعرف ذلك من الغرفة وردية الأثاث التي كانت غرفتي)، ولكن ليس في كتاباتها المنشورة باسم مستعار وغير المنشورة ما يشير إلى حضوري في حياتها..

ولكن ذلك لا يعني شيئاً.. أنا أعرف أننا نكتب عن الذين نحبّهم في ظلال حروفنا، وليس بالضرورة في لافتات إعلانية ضخمة مضاءة بالنيون..

مات أبي.. مات من كان يحبّني على الرغم من أنه عرفني جيداً.. أكرر لنفسي من دون أن أضجر من التكرار: دمشق كلها تكرهني تقريباً باستثنائه... "الثوريون"

يجدونني البنت المتمردة ولكن الوفية لطبقتها "البورجوازية" . . بنت مدللة مفسودة أخرى تُصدر كُتُباً كديكور إضافي لغنجها ودلالها . . "البورجوازيون" يجدونني متمردة وثورية لا تُطاق وسلوكها بحاجة إلى تشذيب بضربة على رأسها . . "المتأسلمون" يجدونني بحاجة إلى الجَلْد والشنق بحبال لحاهم . . وأسرتي في زقاق الياسمين تجد في سلوكي مثلاً لا يُحتذى لبنات الأسرة، وللمرة الأولى تتفق آراؤهم مع الأسرة الأرستقراطية لأمي في اللاذقية . . إلى حيث ذهبت للمشاركة في ندوة أدبية، متحدية كل ما طحن أمي وحرمها من الكتابة باسمها الحقيقي بل باسم مستعار، وحاولوا عبثاً إرغامها على ارتداء ثوب التزوير فأرتدتْ ثوب الموت ومضتْ . .

لا أحد يحبّني في دمشق أو يريد أن يمنحني فرصة العمل في مؤسّسته . . إلا فيما ندر . . وكثيرون تخلصوا من رغبتي في العمل معهم ولكن بلطف ورقة كحدّ الشفرة. لقد اكتفوا بواحدة نصف متمردة هي أمي وهم ليسوا بحاجة إلى أخرى أكثر ضراوة وشراسة . .

لا أحد يحبّني من زملائي الأدباء لأنني أستعصي على الترويض ولعب دور "الجارية الأدبية" . .

وبعض الذين رافقتهم في ندواتي الأدبية الأولى صاروا نصف أعداء لي مع التدرج في أساليب الإعلان عن جوهر واحد لسلوكهم الذكوري الأدبي: الطاعة أيتها المتمردة وإلاّ دمّرناك . . . اكتبي ما يحلو لنا لا ما يحلو لك.

لقد فشلوا في تدميري لكنهم أضافوا إلى جرعة السمّ العدواني التي أتجرعها ما يفيض عن حاجة امرأة حزينة مثلي، وحيدة، تحاول عبثاً أن تجد يداً في تلك البحار المتلاطمة، لا لتتمسّك بها وتتشلها إلى برّ السلامة بل فقط لتأنس بها وتتابع مُعاركة الأمواج الهائجة . .

الأمواج الهائجة تلقي بي على قمة جبل . . وأنا واقفة على شفير هاوية . . أرى بوضوح أنني واقفة على حافة وادٍ سحيق . . وأقرر بصدق: أريد أن أموت بعدما فقدت الإنسان الوحيد الذي عرف دخيلة نفسي وأحبني . . أريد أن ينتهي كل شيء ويتوقف كل شيء . . أريد أن أموت . . أريد أن أقفز إلى الهاوية . . . أن أموت . . أن أغادر ذلك كله . . أن أموت . . أقفز دونما تردد . . أهوي . . وقبل أن أصل إلى قاع الوادي وأتحطم، أشعر بالندم . . بالندم الحقيقي العميق الجارح . . لا . . لا أريد أن

أموت.. سأطير كي لا أقع.. سأُحرّك ذراعيّ ليصيرا أجنحة... لي أجنحة ويجب أن أجدها وأطير.. وكما في أحلامي أحرّك ذراعَيْ وأنا أتمنى أن أطير ولا أقع ويفرحني حقاً أنني أطير كما في أحلامي.. أطير حقاً وليس في الحلم.. إنني أطير.. نادمة على قفزتي تلك. لا.. لا أريد أن أموت.. لي أجنحة وأطير).

أستيقظ على صوت قرع فوق زجاج نافذة سيارتي. إذاً غفوت وكنت أحلم. أفتح النافذة. يسألني جندي أعرف من لهجته أنه جبلي لبناني: هل أنتِ بخير؟

أُجيبه باقتضاب وأنا ما زلتُ نصف نائمة: نعم. شكراً لك.

يضيف: ما الذي تفعلينه هنا؟

أتوقف عن الطيران والحلم. أقول له من دون أن أكذب: كُنتُ ذاهبة إلى دمشق، ولكن ثمة عوائق فيما يبدو.

قال ضاحكاً: النعاسُ طبعاً. ثم أضاف بحزم: هل أستطيع أن أرى أوراقك الثبوتية؟

أول ما وقعت يدي عليه كان بطاقة صغيرة ذات غلاف أسود من الجامعة الأميركية عليها صورتي وهي تثبت أنني طالبة فيها.. ثم أحاول إخراج ما تبقي من أوراق ثبوتية لكنه ما كاد يشاهد ذلك حتى اطمأن وقال لي: لا حاجة للمزيد. إذهبي إلى فندق قريب في شتورة وغداً فجراً تعودين إلى بيتك في الشام...

لم أقل له: غداً يدفنون أبي وحين يهيلون التراب عليه لن أكون هناك.. لكنه سينساب في دورتي الدموية.

أعود إلى بيتي في الشام؟ أين بيتي؟ في شعبة المخابرات حيث ناهي يطلب قطع لساني أم حيث يطالبون بقطع رأسي في زقاق الياسمين؟!.

أكاد أقول للجندي اللبناني اللطيف: إنني أريد النوم على خط الحدود... أن أتمدد فوقه، لكنني أعرف أن الحدود ليست مرسومة بخط أبيض واضح على التراب كما على تراب ملاعب التنس... إنني مُتعبة مُتعبة.. نصف نائمة، نصف يقظة وقد أطلقت حواسي صفارات الإنذار.. مثقلة بالهزائم..

أشكر الجندي. ألاحظ في مرآة السيارة أنه عنصر من دورية متوقفة خلفي في سيارة عسكرية..

أقلع بسيارتي بعيداً في الظلمة الدامسة. أتذكر تلك اللحظة التي ندمت فيها لأنني اخترت الموت. ثم ما لبثتُ أن رفضت الوقوع في الهاوية كي أطير.. كي أطير... وقرّرتْ أن أطير..

قرَّرتُ ألا أقفز إلى الهاوية ثانيةً، بل أن أكتشف أجنحتي لأطير.. لأطير..

الفهرس

رسالة حُب متنكرة في إهداء ٥
لحظة تذكير بحقيقة الروايات ٨

الفصل الأول (محاولة سادسة)

١) إلقاء القبض على حياتي
٢) أنا صخرة في قاسيون ٩

الفصل الثاني (محاولة سابعة)

حبي لدمشق يذلّني ٢٧

الفصل الثالث (محاولة ثامنة)

مدينة "الهُص الهُص.. العيب العيب" ٥٥

الفصل الرابع (محاولة تاسعة)

فَشِلَ زواجي ونَجَحَ طلاقي ٦٩

الفصل الخامس (محاولة عاشرة)

من "زقاق الياسمين" إلى "زقاق الجن" ١٠٥

الفصل السادس (محاولة حادية عشرة)

بيروت عاصمة الحريّة، ولكن... ..... ١٣٥

الفصل السابع (محاولة ثانية عشرة)

١ ـ "الرجل الصحّ" في "التوقيت الخطأ"؟
٢ ـ محاولة غير صالحة للنشر ١٦٩

الفصل الثامن (محاولة ثالثة عشرة)

١ ـ يا وطني الحبيب لماذا تشرّدني؟
٢ ـ أقرع الأسوار اللامرئية لدمشق. .
٣ ـ على رؤوس أصابع دموعي ١٨٥

منشورات

غادة السمّان

منشورات غادة السمان

أعمال غادة السمّان:
قصص

عيناك قدري	(الطبعة الثالثة عشرة)
لا بحر في بيروت	(الطبعة العاشرة)
ليل الغرباء	(الطبعة العاشرة)
رحيل المرافئ القديمة	(الطبعة الثامنة)
زمن الحب الآخر	(الطبعة السادسة)
القمر المربع (قصص غرائبية)	(الطبعة الثانية)

روايات

بيروت ٧٥	(الطبعة السابعة)
كوابيس بيروت	(الطبعة التاسعة)
ليلة المليار	(الطبعة الثالثة)
الرواية المستحيلة: فسيفساء دمشقية	(الطبعة الرابعة)
سهرة تنكرية للموتى	(الطبعة الثالثة)

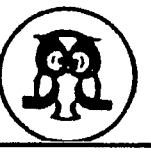

منشورات غادة السمان

غادة السمّان: الأعمال غير الكاملة

زمن الحب الآخر	(قصص)	(الطبعة السادسة)
الجسد حقيبة سفر		(الطبعة السادسة)
السباحة في بحيرة الشيطان		(الطبعة السابعة)
ختم الذاكرة بالشمع الأحمر		(الطبعة الخامسة)
اعتقال لحظة هاربة		(الطبعة الثامنة)
مواطنة متلبسة بالقراءة		(الطبعة الخامسة)
الرغيف ينبض كالقلب		(الطبعة الرابعة)
ع.غ. تتفرس		(الطبعة الخامسة)
صفارة إنذار داخل رأسي		(الطبعة الرابعة)
كتابات غير ملتزمة		(الطبعة الرابعة)
الحب من الوريد إلى الوريد		(الطبعة السابعة)
القبيلة تستجوب القتيلة		(الطبعة الرابعة)
البحر يحاكم سمكة		(الطبعة الثالثة)
تسكع داخل جرح		(الطبعة الثانية)
محاكمة حب		(الطبعة الثانية)
امرأة عربية.. وحرة		(الطبعة الأولى)
ستاتي الصبية.. لتعاتبك		(الطبعة الأولى)
استجواب متمردة		(الطبعة الأولى)
حكايات حب عابرة		(الطبعة الأولى)

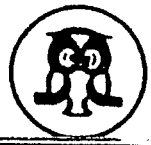

منشورات غادة السمان

أعمال غادة السمّان: نصوص شعرية

حب	(الطبعة الحادية عشرة)
أعلنت عليك الحب	(الطبعة الرابعة عشرة)
اشهد عكس الريح	(الطبعة الرابعة)
عاشقة في محبرة	(الطبعة الرابعة)
رسائل الحنين إلى الياسمين	(الطبعة الرابعة)
الأبدية لحظة حب	(الطبعة الثانية)
الرقص مع البوم	(الطبعة الثانية)
الحبيب الافتراضي	(الطبعة الثانية)
القلب العاري.. عاشقاً	(الطبعة الأولى)
عاشقة الحرية	(الطبعة الأولى)

أدب رحلات

الجسد حقيبة سفر	(الطبعة الخامسة)
غربة تحت الصفر	(الطبعة الثانية)
شهوة الأجنحة	(الطبعة الثالثة)
القلب نورس وحيد	(الطبعة الأولى)
رعشة الحرية	(الطبعة الثالثة)

أعمال أخرى

الأعماق المحتلة	(الطبعة الثانية)

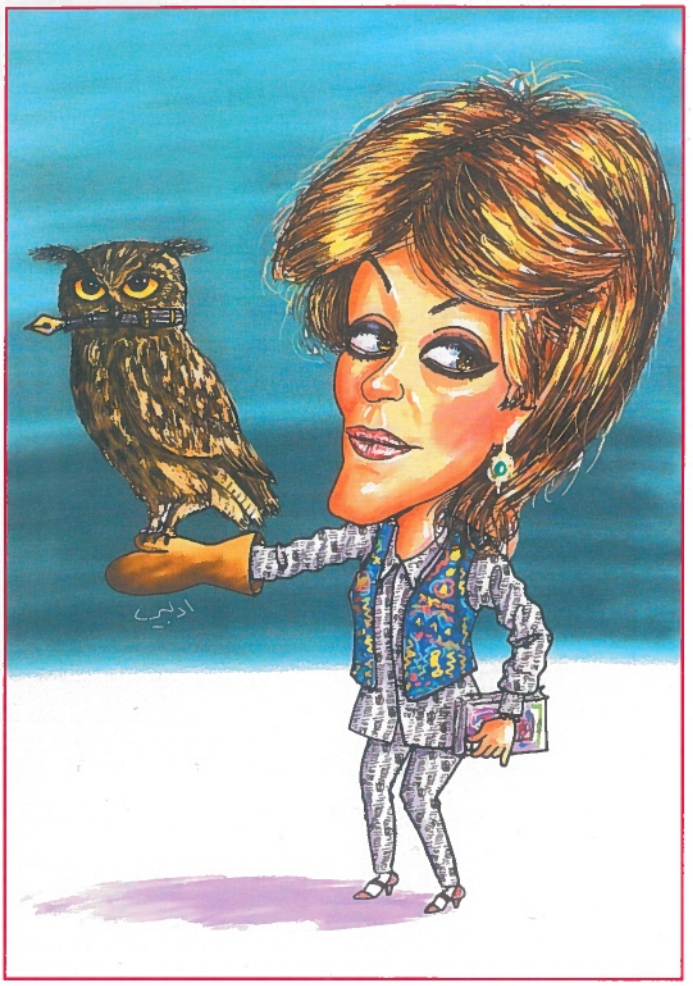

□ هذه الكاتبة الكبيرة تستحق أن يُدرج اسمها في خانة الفائزين بجائزة نوبل، بل هي أهلٌ للفوز بها أكثر من الذين فازوا بها سابقاً.

عبده وازن (٢٠١٤)

□ يُمثّل أدب غادة السمّان اليوم تياراً أدبياً مهمّاً علينا ألا نضيق بما فيه من تطرّف وجُرأة. لقد فتحت أمام الأدب العربي آفاقاً فكرية وفنية وأسلوبية رائعة.. وكانت ثائرة آمنت بالحرية.

ساره ضاهر (٢٠١٤)

● صدر لغادة السمّان خمسون كتاباً في الرواية والقصة والشعر وأدب الرحلات والنقد الأدبي والاجتماعي والمحاورات الأدبية.. وسواها.

● صدر عن أدبها ثمانية عشر كتاباً بعضها مُترجم عن الانكليزية والفرنسية والايطالية.

● تُرجم بعض أعمالها إلى أكثر من ثماني عشرة لغة على نطاق استشراقي ضيّق أو تجاري واسع، منها: الالمانية. الفرنسية. الانكليزية. البولونية. الاسبانية. الروسية. الايطالية. الكورية. الهندية. اليوغسلافية. الهولندية. الرومانية. الصينية. الفارسية. البلغارية. الأرمنية.

منشورات غادة السمان

ISBN 978-9953-409-67-2

9 789953 409672